النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

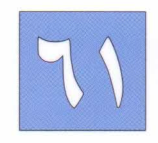
أغاثا كريستي

مُغامَرة كَعْكَة العيد

وقصص أخرى









مُغامَرة كَعْكَةَ العيد

في البداية تلقى بوارو تحذيراً بالابتعاد عن كعكة العيد. ما هو السر الغريب في تلك الكعكة؟

بعد ذلك يأتي الاكتشاف المثير لجثة في صندوق، ثم جريمة يُتَّهَم فيها الشخص الخطأ، ثم تلك القضية الغريبة للميت الذي غيّر عادتَه في تناول الطعام، وأخيراً اللغز الغريب للقتيل الذي رأى حادثة قتله في المنام!

ستة ألغاز محيّرة تواجه بوارو، لكنه لن يفشل في حل أي واحد منها.

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

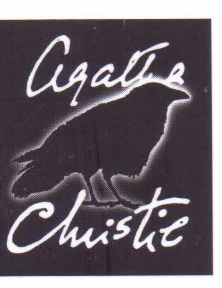
Agatha Christie



The Adventure of The Christmas Pudding



هيركيول بوارو







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العال





ISBN 2-1957-2709-0



US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

أغَاثا كريستي

مُغامَرة كَعْكَة العيد

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لمجموعة أغاثا كريستي القصصية
المنشورة أول مرة عام ١٩٦٠ بعنوان
The Adventure of the Christmas Pudding

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

مُغامَرة كَعْكَة العيد
وقصص أخرى

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٦٠

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون



بسم الله الرحمن الرحيم

مغامرة كعكة العيد

-١-

قال السيد هيركيول بوارو: أنا آسف جداً!

ولكنه قوطع بشكل مهذب وبارع يخلو من التكلف: أرجو أن لا تتسرع بالرفض يا سيد بوارو؛ إذ توجد قضايا حيوية تخص الدولة، وسوف تكون الأوساط العليا ممتنة لتعاونك.

لوح بوارو بيده قائلاً: هذا لطف كبير منك، ولكني -فعلاً- لا أستطيع تولي الأمر؛ ففي هذا الوقت من السنة...

قاطعه السيد جيزموند ثانية: فترة عيد الميلاد... وهل أجمل من قضائه على الطريقة القديمة في الريف الإنكليزي؟

ارتعش هيركيول بوارو الذي لم تَرُقْ له فكرة الريف الإنكليزي في مثل هذا الوقت من السنة، وعاد السيد جيزموند ليغريه بقوله: عيد ميلاد على الطريقة القديمة!

قال هيركيول بوارو: ولكني لست إنكليزياً، وفي بلادي لا يحتفل بعيد الميلاد سوى الأطفال، أما نحن الكبار فنحتفل بعيد رأس السنة.

- آه، ولكن عيد الميلاد في إنكلترا تقليد عظيم، وأؤكد لك أنك ستشهده على أفضل صورة في «كينغزليسي»، وهو منزل قديم رائع، حتى إن أحد أجنحته يعود إلى القرن الرابع عشر.

وارتعش بوارو مرة أخرى؛ فقد شعر بخشية من ذكر المنازل الريفية القديمة، إذ أنه قد عانى كثيراً من منازل إنكلترا التاريخية تلك. نقل نظره باستحسان في أرجاء شقته المريحة العصرية المدفَّأة والمجهَّزة بأحدث وسائل الراحة، ثم قال بحزم: إنني لا أغادر لندن في الشتاء.

نظر جيزموند إلى زميله، ثم إلى بوارو وهو يقول: لا أعتقد أنك تقدّر تماماً الأهمية الفائقة لهذه القضية يا سيد بوارو.

لم يكن الزائر الآخر قد تفوّه حتى الآن إلا بعبارة «تشرّفنا» مهذبةً ورسميةً، وقد جلس الآن محدقاً إلى حذائه اللامع وقد ارتسمت على وجهه علاماتُ الامتعاض الشديد. كان شاباً لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وبدا واضحاً أنه في حالة بؤس شديد.

قال بوارو: نعم؛ بالطبع؛ إنني أُقدّر خطورة القضية، ومشاعري القلبية مع صاحب السمو.

أجاب جيزموند: إن الموقف في غاية الدقة.

حوّل بوارو انتباهه من الشاب إلى زميله الأكبر سناً. لو أراد المرء أن يلخّص السيد جيزموند بكلمة واحدة لكانت تلك الكلمة هي: «التحفظ». كان كل ما فيه متحفظاً؛ ملابسه المناسبة جيدة التفصيل، صوته العذب المصقول الذي لا يرتفع إلا نادراً عن الوتيرة المقبولة، شعره البني الفاتح الذي يرقّ عند الصدغين، ووجهه الشاحب الجاد.

بدا لهيركيول بوارو أنه قد تعرّف في حياته إلى عشرات من أمثال السيد جيزموند، وكانوا جميعاً يستعملون -في لحظة ما- العبارة نفسها: «الموقف في غاية الدقة».

قال بوارو: يمكن للشرطة أن يتولّوا القضية بكفاءة.

- لا؛ ليس الشرطة، فاسترداد الـ... حسناً، استرداد ما نريد استرداده يتطلب بالتأكيد إجراءات في المحاكم لا نرغب في خوضها، كما أننا لا نعرف إلا القليل من المعلومات. إننا نشك، ولكننا لا نعرف.

قال بوارو ثانية: إنني معكم من كل قلبي.

وقد كان بوارو مخطئاً لو ظن أن مشاعره القلبية ستعني شيئاً لزائرَيْه، فقد كانا يريدان مساعدة عملية لا مشاعر قلبية.

عاد السير جيزموند لشرح محاسن عيد الميلاد الإنكليزي: إن الطراز الحقيقي لأعياد الميلاد التقليدية آخذٌ بالتلاشي كما تعلم؛ فالناس يقضونه في الفنادق هذه الأيام. أما عيد الميلاد الإنكليزي، حيث تجتمع العائلة كلها، والأطفال وهداياهم، وشجرة عيد الميلاد، والديك الرومي، وكعكة الخوخ، ورجل الثلج خلف النافذة...

قاطعه هيركيول بوارو مشاكساً ومراعياً لدواعي الدّقة: وكيف نصنع رجلَ ثلج وليس ثمة ثلج. لا أعتقد أنه يمكن شراء الثلج، حتى لعيد ميلاد إنكليزي.

قال السيد جيزموند: كنت أحدّث صديقاً لي في مكتب الأرصاد الجوية اليوم وأخبرني أنه من الأغلب هطول الثلج في عيد الميلاد.

لم يكن نقل هذه المعلومة في محله، فقد ارتعش هيركيول

بوارو بأشد مما ارتعش سابقاً وهو يقول: ثلج في الريف؟ سيكون ذلك أسوأ، ولا سيما في بيت حجري وضخم وبارد.

- أبداً؛ فقد تغيرت الأمور كثيراً في السنوات العشر الأخيرة، وتوجد الآن تدفئة مركزية تعمل بالوقود.

للمرة الأولى بدأ التردد يلوح على وجه بوارو وهو يتساءل: في «كينغزليسي» تدفئة مركزية؟

اغتنم السيد جيزموند الفرصة قائلاً: نعم؛ بالطبع، بالإضافة إلى شبكة واسعة للماء الساخن، وأنابيب تدفئة في كل غرفة، ثق -يا عزيزي بوارو- بأن «كينغزليسي» هو الراحة ذاتها في فصل الشتاء، وربما وجدتَه أدفأ من اللزوم.

قال بوارو: غير معقول!

وبحذاقة متمرسة استغل جيزموند هذا التقدم قائلاً وهو يضع ثقته في بوارو: أنت تدرك صعوبة المتاهة العويصة التي نتخبّط فيها؟

هزّ بوارو رأسه، فالمشكلة لم تكن سهلة حقاً؛ فمنذ بضعة أسابيع وصل إلى لندن أمير شاب هو الابن الوحيد لأحد مهراجات الهند. وكانت بلاده تمر بفترة من الاستياء والقلاقل؛ فرغم ما يتمتع به والده من ولاء شعبي نتيجة محافظته على نمط حياته الشرقي إلا أن الرأي العام كان يشعر بالريبة نوعاً ما تجاه الابن، فقد كانت حماقاته ذات طابع غربي لا يلقى الاستحسان. وقد أُعلنت حديثاً خطوبته لابنة عم له كانت حريصة على عدم إظهار أية عادات غربية في بلدها رغم دراستها في جامعة كامبريدج، وقد تم الإعلان عن موعد الزواج وقام الأمير الشاب برحلة إلى إنكلترا حاملاً معه بعضاً من جواهر أسرته

الشهيرة لكي يعهد لدار «كارتييه» بإعادة وضعها في قوالب عصرية. وكان من بين الجواهر ياقوتة مشهورة نُزعت من عقدها ذي الطراز القديم ووضعها صاغة «كارتييه» المشهورون في قالب جديد.

حتى ذلك الحين سارت الأمور بشكل طبيعي، ولكن بعد ذلك ظهر ما لم يكن متوقعاً؛ فقد كان من الطبيعي لشاب على هذه الدرجة من الغنى والنزوات أن يرتكب بعض الحماقات، كأن يهَبَ صديقة عابرة مشت معه في شارع بوند سواراً من الزمرد أو مشبكاً ثميناً لقاء الصحبة التي جمعت بينهما، وأن يعتبر ذلك طبيعياً! ولكن الأمير كان أكثر طيشاً من ذلك؛ فبعد أن انتشى بإطراء السيدة واهتمامها أراها الياقوتة الشهيرة في قالبها الجديد، ثم زاد من حماقته فاستجاب لطلبها بأن تلبسها لسهرة واحدة فقط.

وكانت العاقبة سريعة ومؤلمة، فقد تركت المرأة طاولة عشائها لتجديد زينتها، ومر الوقت ولم تعد، فقد غادرت المبنى من باب آخر واختفت منذ ذلك الحين. وكان الجانب المأساوي في الموضوع أن الياقوتة بقالبها الجديد قد اختفت معها.

هذه هي الحقائق التي كان من شأن إعلانها إثارة عواقب وخيمة؛ إذ لم تكن الياقوتة مجرد ياقوتة، بل كانت ملكاً تاريخياً ذا أهمية عظيمة في تلك المنطقة من البلاد، وكانت ملابسات اختفائها تجعل أي إعلان غير ضروري عن تلك الملابسات أمراً يمكن أن يؤدي إلى عواقب سياسية خطيرة جداً.

ما كان جيزموند بالرجل الذي يضع تلك الحقائق بشكل مبسّط، فقد لفها بالكثير من الحشو والبهرجة. ولم يكن بوارو يعرف بالضبط من هو جيزموند. لقد قابل الكثير من أمثاله خلال عمله، ولم يكن

متأكداً مما إذا كان جيزموند يعمل في وزارة الداخلية أو الخارجية أو أي مكتب سري آخر من مكاتب الدولة، المهم أنه كان يعمل لحساب الحكومة وأن الياقوتة ينبغي أن تُستَرَد، وأن السيد بوارو (كما أصر جيزموند برفق) هو الرجل الذي ينبغي أن يستردها.

قال بوارو مذعناً: حسناً، ولكن معلوماتكم قليلة جداً. مقترحات وشكوك... وكل ذلك لا يكفي لبدء التحقيق.

- دع عنك ذلك يا سيد بوارو، فالمشكلة لا تستعصي على قدراتك بالتأكيد. هيا يا صاحبي!

كان ذلك تواضعاً زائفاً، فقد كان واضحاً من نبرة صوت بوارو أن مجرد تعهده بمهمة يجعل النجاح مرادفاً لها.

قال جيزموند: إن الرجل ما يزال في مقتبل العمر، ومن المؤلم أن تفسد حياته كلها بسبب لحظة طيش عابرة.

نظر بوارو بلطف إلى الشاب منكسر الخاطر وقال مشجعاً: إن الشباب هو وقت الحماقات، ولو كان الأمير شاباً عادياً لمرّ ذلك دون مشكلة؛ إذ يتولى الأب دفع التكاليف ويتولى محامي الأسرة حل جميع المشكلات وينتهي كل شيء بسلام. أما في وضع كوضعك فالأمر صعب بالفعل، فأنت على وشك الزواج...

قاطعه الشاب والكلمات تتدفق منه لأول مرة: هذه هي المشكلة، هذه هي بالضبط؛ فخطيبتي جادة كثيراً وتتعامل مع الحياة بجِد كبير. الفضيحة هي المشكلة، فالياقوتة -كما تعلم- مشهورة جداً جداً، ولها تاريخ طويل رافقه الكثير من سفك الدماء وسقط بسببها الكثير من القتلى!

نظر بوارو بإمعان إلى جيزموند قائلاً: القتلى؟ أرجو أن لا يصل الأمر إلى هذه الدرجة!

قام جيزموند بحركة مضطربة أشبه بدجاجة أرادت وضع بيضة ثم غيرت رأيها، ثم قال بجِدّ مفتعَل: لا، لا؛ من المستحيل أن تصل الأمور إلى هذا المستوى.

أجاب بوارو: لا يمكنك أن تؤكد ذلك؛ فبصرف النظر عن الشخص الذي يحوز الياقوتة الآن فربما كان آخرون يسعون للحصول عليها. مَن الذي يمكنه أن يقاوم الإغراء يا صديقي؟

أجاب جيزموند بمزيد من الجدية المفتعَلة: ما أظننا بحاجة إلى الدخول في افتراضات من هذا النوع، فهي غير مجدية.

أجاب بوارو بجدية مفاجئة: أما أنا فأضع جميع الاحتمالات في الاعتبار، مثل السياسيين!

نظر جيزموند إليه بشك وهو يستجمع نفسه قائلاً: حسناً، فهل أعتبر الأمر منتهياً إذن؟ هل ستذهب إلى «كنغزليسي»؟

تساءل بوارو: وكيف سأبرّر وجودي هناك؟

ابتسم جيزموند وأجاب بثقة: أعتقد أن ترتيب ذلك مسألة يسيرة. أؤكد لك أن الأمر سيبدو طبيعياً تماماً، وستجد آل «ليسي» قوماً رائعين وممتعين!

- ألم تخدعني بشأن التدفئة المركزية؟

أجاب جيزموند بشكل بدا معه متأثراً: أبداً؛ أؤكد لك أنك ستجد هناك كل وسائل الراحة.

تمتم بوارو وهو يتذكر: "الرفاهية العصرية كلها"، ثم أضاف: موافق.

-٢-

كانت درجة الحرارة في غرفة استقبال كينغزليسي الكبيرة اثنتين وعشرين درجة مئوية عندما جلس بوارو يتحدث إلى السيدة ليسي قرب إحدى النوافذ الكبيرة ذات الأعمدة الحجرية.

كانت السيدة ليسي تطرّز بالإبرة، ولم تكن تطرز أشكالاً نافرة أو زهوراً مزخرفة على الحرير، بل بدا أنها تشغل نفسها بمهمة تطريز حواشٍ لمناديل المائدة، وكانت تتكلم وهي تطرّز بصوت رقيق تأمليٍّ وجده بوارو رائعاً: آمُل أن تستمتع بحفلة عيد الميلاد عندنا هنا يا سيد بوارو، فهي تقتصر على العائلة: حفيدتي وحفيدي وصديقه، وبريجيت ابنة أخي، وابنة العم ديانا، وصديق قديم هو ديفيد ويلواين. حفلة عائلية تماماً، وهو ما أخبرتني إدوينا موكام أنك تريده. حفلة عيد ميلاد تقليدية لن تجد شيئاً تقليدياً أكثر منها؛ فزوجي ما زال يعيش في الماضي تماماً، وهو يحب أن يرى كل شيء كما كان عندما كان صبياً في الثانية عشرة من عمره، وقد اعتاد على قضاء إجازاته هنا.

ابتسمت لنفسها وأكملت: يريد كل شيء كما كان؛ شجرة عيد الميلاد والأكياس المعلقة وحساء المحار والديك الرومي... بل يريد ديكين روميين أحدهما مسلوق والآخر مشوي، وكعكة الخوخ التي يُخفى فيها الخاتم وزرّ العازب، وكل التفاصيل الأخرى. لم تعد الأمور كما كانت من قبل، ولكن زوجي يتوقع كل شيء؛ كل الحلويات القديمة، حلوى اللوز والزبيب والفواكه المجففة والزنجبيل... يا إلهي! أبدو وكأنني دليلٌ للأطعمة والحلويات!

- لقد أثرت شهيتي يا سيدتي.

- أتوقع أننا سنصاب جميعاً بسوء هضم مريع مساء غد، فما من أحد اعتاد على أكل كلّ هذا في هذه الأيام.

قطعت حديثَها بعضُ الصيحات والقهقهات العالية خارج النافذة، فألقت بنظرة إلى الخارج وقالت: لا أدري ماذا يفعل هؤلاء في الخارج... ربما كانوا يلعبون لعبة ما. لقد كنت أخشى دائماً أن يشعر هؤلاء الفتيان بالملل من عيد الميلاد عندنا هنا، ولكن على العكس من ذلك؛ إن لابني وابنتي وأصدقائهما موقفاً مترفعاً تجاه العيد؛ فهم يعتقدون بأنه هراء وهرج مبالَغ فيه وأن من الأفضل قضاءه في فندق ما حيث يُمضون الوقت بالرقص والاحتفال، أما الجيل الأصغر فيجد عيدنا هنا ممتعاً جداً.

سكتت السيدة ليسي قليلاً ثم مضت تقول: وبالإضافة إلى ذلك فإن فتيان وفتيات المدارس هم دائماً في حالة جوع، أليس كذلك؟ لا بد أنهم يجوّعونهم بقدر ما يأكله ثلاثة رجال أشرار.

ضحك بوارو وقال: إنه لطف كبير منك ومن زوجك سيدتي أن تسمحا لي بالانضمام إلى حفلكم العائلي بهذه الطريقة.

- إن هذا من دواعي سرورنا بالتأكيد، وأرجوك أن لا تُلقي بالاً إذا وجدت هوراس فظاً بعض الشيء، فهذه طريقته ليس إلاّ.

كان زوجها الكولونيل هوراس ليسي قد علّق على حضور بوارو قائلاً: لا أستطيع فهم السبب الذي جعلك ترغبين في وجود أجنبي لعين يعكّر علينا عيدنا. لماذا لا يأتينا في وقت آخر؟ إنني لا أستطيع تحمّل الأجانب. حسناً، حسناً، لقد فرضته علينا إدوينا موركام.

ولكن ما علاقتها هي؟ بودّي لو أعرف لماذا لا تستضيفه هي في عيد الميلاد؟

وأجابته السيدة ليسي في حينها: لأنك تعلم جيداً أن إدوينا تذهب دوماً إلى حفلة آل كلاريدج.

نظر إليها زوجها نظرة ثاقبة وقال: أظنك تخططين لشيء، أليس كذلك؟

قالت وقد فتحت عينيها الزرقاوين: أخطط لشيء؟ طبعاً لا! ولماذا أخطط؟

ضحك الكولونيل العجوز ضحكة عميقة مدوية وقال: إنني لا أستبعد ذلك؛ فعندما تبدين في غاية البراءة تكونين بصدد أمر ما.

* * *

بعد أن استعرضت السيدة ليسي تلك الأفكار في عقلها مضت إلى القول: لقد قالت إدوينا إن بإمكانك مساعدتنا. لست متأكدة كيف ستساعدنا، ولكن إدوينا قالت إن بعض أصدقائك قد وجدك كفؤاً في مشكلة مثل مشكلتنا. ولكن، أنت لا تعرف عن أي شيء أتكلم.

نظر إليها بوارو مشجّعاً. كانت في نحو السبعين من عمرها، منتصبةَ القامة كالرمح، لونُ شعرها كبياض الثلج، وردية الوجنتين زرقاء العينين ذات أنف مضحك وذقن ينمُّ عن التصميم.

قال بوارو: إذا كان يوجد ما يمكنني عمله فسأكون سعيداً بذلك. إنها قضية افتتان مؤسف لفتاة شابة كما فهمت.

هزّت السيدة ليسي رأسها بالإيجاب وقالت: نعم. ولكن يبدو من غير الطبيعي أن... أن أحدثك عن ذلك؛ ففي النهاية أنت غريب تماماً.

أردف بوارو بتفهّم: وأجنبي أيضاً.

قالت السيدة ليسي: نعم، ولكن من شأن ذلك أن يسهّل الأمر على نحوٍ ما. ومهما يكن فقد بدت إدوينا مقتنعة بأنك ربما تعلم شيئاً... حسناً، لنقل: شيئاً ذا فائدة عن ذلك الشاب ديزموند لي ورتلي.

اقتطع بوارو لحظة من تفكيره لكي يعجب بإبداع السيد جيزموند؛ فقد استعمل السيدة موركام بسهولة ويسر لتحقيق أهدافه الخاصة، ثم عاد ليقول: ليس لهذا الشاب سمعة حسنة كما فهمتُ.

- بالطبع ليست سمعته حسنة، بل إنها سيئة للغاية. ولكن ذلك لن يؤثّر في علاقة سارة به، فمن غير المجدي أن تحذّر الفتيات من الرجال سيئي السمعة، بل إن ذلك سيرغبهنّ بهم أكثر.

- أنت محقّةٌ تماماً.

تابعت السيدة ليسي: في شبابي (وكان ذلك قبل وقت طويل جداً) اعتاد أهلنا أن يحذرونا من بعض الشباب، وكنا نتمنى لو نستطيع مراقصتهم أو الاختلاء بهم.

ضحكت ومضت قائلةً: ولذلك لم أدَعْ هوراس يعالج الأمر بطريقته.

قال بوارو: أخبريني، ما الذي يقلقك بالضبط؟

قالت السيدة ليسي: لقد قُتل ابننا في الحرب ثم ماتت زوجته خلال ولادتها، فنشأت سارة بيننا وقمنا بتربيتها. وقد حرصنا على أن

تتمتع سارة دوماً بأكبر قَدْرٍ من الحرية، ولا أدري إن كنا على صواب في ذلك.

- ذلك هو الأنسب كما أعتقد، إذ لا يستطيع المرء السير بشكل يناقض روحَ العصر.

- هذا بالضبط ما كنت أعتقده. وبالطبع فإن الفتيات يُقْدِمْنَ هذه الأيام على مثل هذه الأمور.

نظر بوارو إليها مستفهماً فقالت: دعني أعبّر عن ذلك بالشكل التالي: لقد عاشت سارة حياة الطبقة الدنيا، فلم تحرص على أن تظهر بالمظهر اللائق بها اجتماعياً، بل آثرت -عوضاً عن ذلك- أن تعيش في بيت من غرفتين قرب النهر في تشيلسي وترتدي تلك الملابس المضحكة التي يلبسها شباب تلك الطبقة بجواربهم السميكة السوداء أو الخضراء الفاقعة، وراحت تمارس حياتها دون أن تغسل شعرها أو تمشطه!

- ذلك طبيعي تماماً، فتلك هي «الموضة» اليوم، وسيكبرون ويتركونها.

- نعم؛ أعلم ذلك، ولست قلقة من ذلك النوع من التصرفات، ولكنها افتتنت بهذا المدعو ديزموند لي ورتلي (ذي السمعة البغيضة) الذي يعيش على خداع الفتيات الثريات، ويبدو أنهن يقعن في حبائله بجنون. لقد أوشك على الزواج بالآنسة هوب لولا أن أهلها لجؤوا إلى المحكمة ووضعوها تحت الوصاية، وهو ما يريد هوراس أن يفعله مع سارة لكي يحميها كما يقول. ولكنني لا أعتقد أن ذلك سيكون مجدياً يا سيد بوارو؛ إذ يمكن لهما أن يهربا إلى أيرلندا أو الأرجنتين ويتزوجا هناك غير آبهَيْن لوصاية المحكمة. فإذا ما وُلد لهما

طفلٌ فلا يملك المرء إلا الإذعان للأمر الواقع والموافقة على الزواج، ثم يقع الطلاق بعد عام أو عامين (كما أراه يحصل عادة) وتأتي الفتاة إلى بيتها لتتزوج بعد فترة تطول أو تقصر شخصاً طيباً إلى درجة البله وتستقر معه. وأعتقد أن المحزن في الأمر هو وجود طفل يُربّى في ظل زوج أم لا يمكن أن يعامله معاملة الأب مهما كان لطيفاً. ولعل ما كنا نفعله في شبابنا أفضل بكثير من هذا المصير؛ إذ كنا نعتبر أن أول فتى تقع الفتاة في حبه هو دائماً غير ملائم! وأتذكّر أنني كنت أحس بعواطف قوية تجاه شاب، شاب يُدعى... من الغريب أنني لا أذكر اسمه الأول، ولكنه من عائلة تيبيت. وقد منعه والدي من زيارتنا، ولكنني كنت أرقص معه في الحفلات التي كنا نُدعى إليها. وكنا نهرب لنجلس سوياً، وأحياناً كان أصدقاؤنا ينظّمون رحلات فنذهب معهم. وكان المرء يستمتع كثيراً بتلك اللقاءات الممنوعة، مع أننا لم نكن نذهب بعيداً في علاقاتنا كما تفعل فتيات اليوم. وبعد فترة اختفى السيد تيبيت ليظهر بعد أربع سنوات، فهل تصدق -يا سيد بوارو- أنني دهشت عندما التقيت به بعد تلك السنوات وتساءلت: ما الذي أحببت فيه؟! فقد بدا لي شاباً بليداً لا شكل له ولا منطق.

قال السيد بوارو بلهجة واعظة: يعتقد المرء دوماً أن أيام شبابه هي أجمل الأيام.

أجابت السيدة ليسي: أعلمُ أن كلامي مملّ وما كان لي أن أضجرك، ولكني -على أية حال- لا أريد لسارة أن تتزوج ديزموند لي ورتلي وهي الفتاة الغالية عليّ. لقد جمعت الصداقة بين سارة وديفيد ديلواين الموجود هنا، ولطالما أحبّا بعضهما البعض.

وفكرت السيدة ليسي قليلاً ثم قالت: حسناً، سأعترف لك

-يا سيد بوارو- أنني أنا نفسي أحببت ديزموند. طبعاً لا أعني أنني أحببته فعلاً بعقلي، بل شعرت بجاذبيته وعرفت أسباب تعلق سارة به. ولكن لي من العمر والتجربة ما يجعلني أعرف أنه عديم الفائدة تماماً، حتى ولو استمتعت بصحبته.

ثم أضافت بكآبة: مع أنني أعتقد أن له بعض الصفات الحسنة، فقد استأذن في إحضار أخته إلى هنا بعد أن أجرت عملية قائلاً إن من المحزن لها أن تقضي العيد في المستشفى. وقد تساءل إن كان في إحضارها معه أي إزعاج لنا، كما تعهّد بأن يقوم بنفسه بإيصال طعامها إلى غرفتها والقيام بخدمتها. وأنا أعتقد أن هذا الموقف يعتبر موقفاً لطيفاً منه، ما رأيك أنت يا سيد بوارو؟

قال بوارو وهو غارقٌ في التفكير: موقفه يدلّ على مراعاة لمشاعر الآخرين، وهو ما لا ينسجم مع شخصيته.

- لا أدري، ولكن يمكن أن تكون للمرء عواطف عائلية طيبة في نفس الوقت الذي يتمنى فيه سرقة فتاة غنية. وبالمناسبة، فإن سارة ستصبح غنية جداً، ليس بما سنتركه لها من أموال (إذ إن معظم أموالنا ستؤول مع هذا البيت إلى حفيدنا كولين)، ولكن والدة سارة كانت غنية جداً وسوف تؤول ثروتها إلى سارة عندما تبلغ الحادية والعشرين، وهي الآن في العشرين من عمرها. حسناً، أنا أعتقد أن خوف ديزموند على أخته كان بالفعل موقفاً نبيلاً، كما أنه لم يختلق لها مركزاً وهمياً مرموقاً، فهي تعمل طابعة اختزال في لندن كما أذكر. وقد حافظ على وعده الطيّب بإيصال الطعام إليها في أغلب الأحيان، ولذلك فإن فيه بعض النقاط الجيدة كما أعتقد.

ثم أضافت السيدة ليسي بتصميم شديد: ولكنني -مع ذلك- لا أريد لسارة أن تتزوجه.

قال بوارو: بعد كل الذي سمعتُه وأخبرتِني به فإنني أظن أن هذا الزواج سيكون كارثة.

تساءلت السيدة ليسي: هل تظن أن بمقدورك أن تساعدنا بأية وسيلة؟

أجاب بوارو: نعم؛ أظن أن هذا ممكن، ولكنني لا أريد أن أعدَ بالكثير لأن أمثال ديزموند في عالمنا هذا أذكياء يا سيدتي. ولكن لا تيأسي، فبوسع المرء أن يقوم بشيء ما تجاه هذا الأمر. وفي كل الأحوال سأبذل قصارى جهدي، إن لم يكن لشيء فامتناناً مني لتلطفكم بدعوتي لمتعة عيد الميلاد هذه.

ثم نظر حوله وأضاف: لأنه ليس من السهل الحصول على عيد ميلاد جيد في هذه الأيام.

تنهدت السيدة ليسي وانحنت إلى الأمام قائلةً: هذا صحيح. ولكن أتعلم ما الذي أحلم به وأتوق للحصول عليه يا سيد بوارو؟

- أخبريني أنت يا سيدتي.

- ببساطة: أتوق إلى بيت صغير عصري تسهل إدارته يُبنى في الحديقة هنا بمطبخ عصري تماماً ودون ممرات طويلة، بيت بسيط ومريح أسكنه.

- إنها فكرة عملية جداً يا سيدتي.

- ولكنها صعبة التحقيق؛ فزوجي يعشق هذا البيت والإقامةَ فيه ولا يعبأ إن كان غير مريح قليلاً أو كانت به بعض النواقص، وهو يكره

(بكل معنى الكلمة) السكن في بيت صغير عصري في الحديقة!

- إذن فأنت تُضَحّين من أجل رغباته؟

- أنا لا أعتبرها تضحية يا سيد بوارو؛ فقد تزوجت هوراس فكان جيداً معي وأسعدني طول هذه السنين، وأنا أريد أن أسعده.

قال بوارو: ستستمرين في السكن هنا إذن؟

أجابت السيدة ليسي: إنه ليس سكناً مزعجاً إلى هذا الحد.

فاستدرك بوارو بسرعة: نعم، نعم. بل على العكس؛ إنه مريحٌ جداً، كما أن التدفئة المركزية والماء الساخن عندكم من الأمور العظيمة.

- لقد أنفقنا الكثير لنجعله مريحاً للسكن. لقد بعنا قطعة أرض جاهزة للاستصلاح (هكذا يسمّونها، أليس كذلك؟)، وكانت بعيدة عن المنزل في الجانب الآخر من الحديقة لحسن الحظ. لقد كانت في الحقيقة قطعة أرض لا تسرّ الناظر، ولكننا حصلنا على ثمن جيد لها مكننا من إجراء كل التحسينات الممكنة في المنزل.

- وماذا بشأن الخدمة يا سيدتي؟

- آه، هذا أسهل مما تتوقع. لا يمكننا أن نتوقع الخدمة والرعاية التي كانت في السابق بالطبع، ولكن لدينا بعض الأشخاص الذين يأتون من القرية، إذ تأتي امرأتان صباحاً لتحضير الغداء وغسل الأواني، وتأتي أخرياتٌ للخدمة مساء. توجد الكثيرات ممن يرغبن في القدوم للعمل بضع ساعات كل يوم. أما عيد الميلاد فمن حسن حظنا أن عزيزتي السيدة روس تأتي في كل عيد ميلاد، وهي طباخة رائعة من الدرجة الأولى تقاعدت قبل نحو عشر سنوات ولكنها تأتي

للمساعدة في المناسبات. كما يوجد عندنا العزيز بيفيريل أيضاً.

- النادل؟

- نعم؛ لقد تقاعد أيضاً، وهو يسكن في المنزل الصغير قرب الكوخ، ولكنه متعلق بنا ويصرّ على الحضور لخدمتنا في أعياد الميلاد. إنني أخاف فعلاً يا سيد بوارو أن يصيبه مكروه؛ فهو طاعن في السن وضعيف إلى حدٍّ أشعر معه بأنه لو حمل حملاً ثقيلاً فسيوقعه، ولذلك فمن المؤلم مراقبته، خاصة وأن قلبه ليس على ما يرام وأخشى عليه من الإجهاد. ولكنني سأجرح مشاعره بعنف لو منعته من أن يأتي لخدمتنا. إنه يتنحنح ويتأفف مدمدماً عندما يرى حال أواني الشرب الفضية، وما إن يقضي ثلاثة أيام هنا حتى ترى تلك الأواني وقد عادت رائعة من جديد. إنه صديق مخلص وعزيز.

ابتسمت في وجه بوارو وقالت: عيد ميلاد أبيض أيضاً! انظر، لقد بدأ الثلج بالتساقط، وها هم الأطفال قادمون. ينبغي أن أعرّفك بهم يا سيد بوارو.

قدمت السيدة ليسي السيد بوارو إلى الغلامين، أولاً: كولين حفيدها التلميذ وصديقه مايكل، وهما فتيان لطيفان مؤدبان في الخامسة عشرة من عمرهما، أحدهما أسمر والثاني أشقر. ثم قدمته لابنة عمهما بريجيت ذات الشعر الأسود والعمر المماثل والحيوية المتدفقة.

ثم قالت السيدة ليسي: وهذه حفيدتي سارة.

نظر بوارو إلى سارة بشيء من الاهتمام. بدت فتاةً جذّابةً إلى حد ما، وبدا طبعُها جَسوراً ميالاً إلى التحدي، ولكنها كانت تُظهر حباً حقيقياً لجدتها.

- وهذا السيد لي ورتلي.

كان ديزموند لي ورتلي يرتدي سترة كتلك التي يرتديها صيادو السمك وبنطالاً ضيقاً من الجينز الأسود، وكان شعره طويلاً ولا يمكن الجزم فيما إذا كان قد حلق ذقنه ذلك الصباح. وعلى العكس منه كان الشاب الذي قدمته السيدة ليسي بعده، ديفيد ديلواين، جاداً وهادئاً بابتسامته العذبة، ومدمناً -كما هو واضح- على الماء والصابون. وكان في المجموعة عضو آخر، فتاة جذابة ذات نظرات عميقة قُدِّمت على أنها ديانا ميلتون.

بعد التعارف قُدِّم لهم الشاي مع وجبة ضخمة من الكعك والحلوى والشطائر، وقد تمتع الصغار بحفلة الشاي تلك. أما الكولونيل ليسي فقد انضمّ في النهاية معلّقاً بنبرة غير ذات معنى: الشاي... نعم؛ أريد شاياً.

استلم كوبه من يد زوجته وتناول قطعتي كعك، ثم ألقى نظرةَ مقتٍ على ديزموند لي ورتلي قبل أن يجلس في أبعد مقعد عنه.

كان الكولونيل رجلاً ضخماً كث الحاجبين ذا وجه أحمر لوّحته الشمس، وكان يمكن لمن يراه أن يخطئ فيحسبه مزارعاً لا مالكاً لهذا المكان كله.

قال الكولونيل: لقد بدأ الثلج بالهطول؛ سيكون عيد ميلاد أبيض.

وانفضّ الجمع بعد جلسة الشاي.

قالت السيدة ليسي لبوارو: أظن أنهم ذهبوا للّعب بمسجلاتهم الآن؛ إنهم مغرَمون بالألعاب التقنية، وهم فخورون بامتلاكها.

ثم نظرت بدلال إلى حفيدها وهو يغادر الغرفة. ولكن الغلامين وبريجيت اختاروا الذهاب إلى البحيرة ليروا إن كان الثلج هناك قد تجمّع بما يسمح بالتزلج.

قال كولين: أعتقد أنه كان بإمكاننا التزلج هذا الصباح، ولكن هودغينز العجوز لم يسمح لنا، فهو شديد الحذر كعادته دائماً.

وقالت ديانا ميلتون برقة: لنتمشَّ قليلاً يا ديفيد.

تردد ديفيد ديلواين للحظات وهو ينظر إلى سارة ذات الشعر الأحمر وهي تقف مع ديزموند لي ورتلي ويدها على ذراعه وعيناها معلقتان بوجهه، ثم قال أخيراً: حسناً، لنتمشَّ.

وسرعان ما وضعت ديانا يدها حول ذراعه ودارا نحو باب الحديقة. ثم قالت سارة بدورها: هل نخرج نحن أيضاً يا ديزموند؟ فالجو خانق جداً في المنزل.

أجاب ديزموند: ما لي وللمشي؟ سأحضر سيارتي لنذهب إلى مقهى سبيكلربور.

ترددت سارة قليلاً قبل أن تقول: لنذهب إلى مقهى وايت هارت في سوق ليدبوري؛ فذلك أفضل.

كان في نفس سارة اشمئزاز غريزي من ارتياد مقهى سبيكلربور المحلّي مع ديزموند، وإن لم تكن لتقول ذلك مهما كلف الأمر؛ فلم يكن ارتيادُ تلك الحانة من تقاليد كينغزليسي، ولم يحدث لنساء العزبة أن ذهبن إليها قط. وقد راود سارةَ شعورٌ غامضٌ بأن ذهابهما إليها سيكون بمثابة خذلان للكولونيل العجوز وزوجته (ولقد كان من شأن ديزموند -لو عرف ذلك- أن يقول: ولِمَ لا؟).

وفي لحظة سخط شعرت سارة أن عليها أن تخبره بأسباب رفضها إزعاج العجوزين؛ فلا يمكن للمرء أن يزعج عجوزين غاليين كجدها وجدتها العزيزة «إيم» ما لم يكن ذلك ضرورياً، فقد كانا في غاية اللطف حقاً إذ سمحا لها بممارسة حياتها الخاصة وقَبِلا لها أن تعيش في تشيلسي كما تريد، حتى دون أن يفهما دوافعها. وقد كان هذا الموقف بتأثير من «إيم» بالطبع، إذ كان من شأن الجد أن يقيم الدنيا ويقعدها لو تُرِكَ الأمر إليه.

لم تكن عند سارة أية أوهام فيما يخص موقفَ جدها. كانت دعوة ديزموند إلى كينغزليسي من عمل إيم لا من عمله، لقد كانت إيم عزيزة غالية دائماً.

وبينما كان ديزموند يحضر سيارته أطلّت سارة ثانيةً على غرفة الجلوس وقالت: نحن ذاهبان إلى سوق ليدبوري، إلى مقهى وايت هارت.

كان في صوتها أثر قليل من التحدي، ولكن لم يَبدُ أن السيدة انتبهت إليه عندما أجابت: حسناً يا عزيزتي؛ هذا رائع. وها هما ديفيد وديانا قد خرجا معاً يتمشيان. كم يسعدني ذلك! لقد كانت دعوة ديانا إلى هنا فكرة بارعة مني في الواقع، فمن المحزن أن تترمّل وهي شابة لم تتجاوز الثانية والعشرين، وإني لأرجو أن تتزوج ثانية وبسرعة!

نظرت سارة إليها بحدة وقالت: ما الذي تخططين له يا جدتي؟

أجابت السيدة ليسي بمرح: إنها خطتي الصغيرة، فأنا أعتقد أن ديانا مناسبة تماماً لديفيد. إنني أدرك -بالطبع- أنه كان متعلقاً بك أنت يا عزيزتي، ولكنك لم تعودي بحاجة إليه. لا أريده أن يبقى حزيناً، وأعتقد أن ديانا تناسبه تماماً.

قالت سارة: يا لك من خاطبة!

فأجابتها: أعلم ذلك، العجائزُ كلهن هكذا، وأرى أن ديانا قد أصبحت متحمسة له بالفعل. ألا تشعرين أنها ستكون مناسبة له؟

قالت سارة: لا أظن، فأنا أشعر أن ديانا انفعالية تماماً وجادّة كثيراً، وأظن أن ديفيد سيجدها مملّةً جداً بعد الزواج.

قالت ليسي: حسناً، سنرى. ولكنك لا تريدينه أنت، أليس كذلك يا عزيزتي؟

أجابت سارة بسرعة: "بالتأكيد". ثم أضافت فجأة: أنت تحبين ديزموند يا جدتي... أليس كذلك؟

- أنا متأكدة أنه لطيف جداً.

- لكن جدي لا يحبه.

- لا يمكنك انتظار ذلك منه، ولكن يمكنني القول إنه سيغير رأيه بمرور الزمن. أرجو أن لا تضغطي عليه يا عزيزتي؛ فكبار السن بطيئون جداً في تغيير قناعاتهم وجدُّك رجلٌ عنيد.

- لا يهمني ما يقوله جدي أو ما يفكر فيه، وسأتزوج ديزموند وقتَما أشاء!

- أعرف ذلك يا عزيزتي. ولكن حاولي معالجة الأمر بواقعية؛ فبوسع جدك أن يثير كثيراً من المتاعب كما تعلمين، وأنت ما تزالين دون سن الرشد. بعد عام واحد تستطيعين التصرف كما يحلو لك، وأتوقع أن يغيّر هوراس موقفه قبل مرور هذا الوقت.

ألقت سارة ذراعيها حول عنق جدتها وقبلتها بشغف وهي

تقول: إنك تقفين معي يا حبيبتي، أليس كذلك؟

- أنا أريدك أن تكوني سعيدة. آه، ها هو فتاك قد أحضر سيارته. أتدرين؟ إنني أحب هذه البناطيل الضيقة التي يلبسها الشباب هذه الأيام فهي تظهرهم أنيقين للغاية، ولو أنها تضخّم الحَنَف طبعاً!

فكرت سارة بأن ديزموند أحنف فعلاً وأن ساقيه ملتويتان إلى الداخل. إنها لم تنتبه إلى ذلك من قبل!

ودّعتها السيدة ليسي قائلة: اذهبي وتمتعي بوقتك يا عزيزتي.

راقبتها وهي تتوجه إلى السيارة، ثم تذكرت ضيفها الأجنبي فذهبت إلى المكتبة بحثاً عنه. وهناك وجدت هيركيول بوارو مستمتعاً بإغفاءة قصيرة، فابتسمت ومضت عبر الصالة إلى المطبخ للتداول مع السيدة روس.

* * *

عند السيارة ابتدر ديزموند سارة بقوله: بسرعة يا عزيزتي. هل غضب أهلك لأنك ستذهبين معي إلى المقهى؟ إنهم ينتمون إلى عصور قديمة!

قالت سارة بحدة وهي تدخل السيارة: بل هم لم يقولوا شيئاً.

- وما سبب وجود هذا الغريب هنا؟ أليس من رجال التحري؟ عن أي شيء جاء يتحرى هنا؟

- إنه لم يأتِ لأسباب مهنية، بل إن جدتي إدوينا موركام هي التي طلبت منا استضافته، وأظن أنه قد تقاعد من مهنته منذ زمن طويل.

- إنه يبدو مثل حصانِ عربةٍ عجوز عليل!

- أظنه أراد أن يشهد حفل عيد ميلاد إنكليزي على الطريقة التقليدية.

ضحك ديزموند بازدراء قائلاً: يوجد الكثير مما يثير الغثيان في مثل هذا العيد. لا أدري كيف تتحملين ذلك!

تقبضت ذقن سارة العدوانية وهي تقول بتحد: إنني أتمتع به.

- غير معقول يا عزيزتي. دعينا نوقف هذا العبث غداً ونذهب إلى سكاربورو أو أي مكان آخر.

- لا يمكنني فعل ذلك.

- ولِمَ لا؟

- لأنه يجرح مشاعرهم.

- هذا هراء! إنك لا تلتفتين إلى هذه المشاعر الطفولية السخيفة.

- ربما لم يكن الأمر كذلك، ولكن...

سكتت سارة، فقد أدركت وهي تشعر بالذنب أنها طالما انتظرت بشوق حفلة عيد الميلاد، ولكن الاعتراف بذلك لديزموند كان محرجاً لها، فهو لم يكن ينتظر منها أن تتمتع بعيد الميلاد وبالحياة العائلية. تمنت للحظة لو أن ديزموند لم يأتِ هنا في عيد الميلاد، بل تمنت لو أنه لم يأتِ إلى هنا البتة. لقد كانت رؤيتها لديزموند في لندن أكثر متعة من رؤيتها له هنا في بيتها.

* * *

في هذه الأثناء كان الغلامان ومعهما بريجيت عائدين من

البحيرة وهم في نقاش ساخن حول مشكلات التزلج. كانت قطع الثلج تتساقط، وكان يمكن للمرء أن يتنبأ -بمجرد النظر إلى السماء- بقرب حدوث عاصفة ثلجية قوية.

قال كولين: سيستمر هطول الثلج طول الليل، وأراهن أنه سيكون بارتفاع قدمين مع صباح العيد.

كان هذا التوقع مفرحاً، فقال مايكل: فلنصنع رجلَ ثلج إذن.

علق كولين بقوله: يا إلهي! إنني لم أصنع رجل ثلج منذ أمد طويل، ربما منذ كنت في الرابعة من عمري.

قالت بريجيت: لا أظن أن من السهل صنعه، أعني أنه ينبغي معرفة الطريقة.

قال كولين: يمكننا أن نصنع تمثالاً للسيد بوارو ونضع له شارباً كبيراً أسود. يوجد شاربٌ في صندوق الزينة.

فكر مايكل قليلاً ثم قال: لا أدري كيف أصبح السيد بوارو محققاً؛ فأنا لا أظنه قادراً أبداً على التخفي!

أضافت بريجيت: صحيح، ولا يمكن للمرء أن يتخيله راكضاً بمنظاره باحثاً عن طَرَف خيط أو متفحصاً آثار أقدام.

قال كولين: عندي فكرة. لماذا لا نرتب له تمثيلية؟

بريجيت: ماذا تعني بتمثيلية؟

كولين: نرتب له جريمة قتل.

بريجيت: فكرة رائعة! أتعني وضع جثة في الثلج أو شيئاً كهذا؟

كولين: نعم؛ إن ذلك سيسلّيه.

قهقهت بريجيت قائلة: أشك في قدرتي على القيام بهذه المزحة الثقيلة.

كولين: إذا استمر الثلج في السقوط فستكون لدينا خلفية مثالية للمشهد؛ جثة وآثار أقدام. سيكون علينا الإعداد لذلك بعناية، وعلينا سرقة أحد خناجر جدي وصنع بعض الدم.

توقفوا قليلاً، ثم دخلوا في نقاش مثير دون انتباه إلى الثلج الذي تسارع هطوله.

كولين: توجد في غرفة الدراسة القديمة علبة أصباغ، ويمكننا أن نمزج بعضها بلون الدم. أظن أنه الأرجواني مع القرمزي.

بريجيت: أظن أن الأُرجواني مع القرمزي زائد الحمرة، ينبغي أن يميل اللون نحو البنّي قليلاً.

مايكل: ومن سيكون الجثة؟

بريجيت: أنا سأكون الجثة.

كولين: لا؛ اسمعي، إنها فكرتي.

بريجيت: لا، لا، بل أنا؛ فالجثة ينبغي أن تكون جثةَ فتاة، إنها أكثر إثارة. فتاة جميلة تتمدد ميتةً على الثلج.

صاح مايكل ساخراً: فتاة جميلة؟ آهاه!

بريجيت: ولي شعر أسود أيضاً.

مايكل: وما علاقة الشعر بذلك؟

بريجيت: إنه يبدو أكثر وضوحاً وقوةً فوق الثلج، وسأرتدي سترتي الحمراء أيضاً.

مايكل: السترة الحمراء لن تظهر عليها آثار الدماء.

بريجيت: ولكنها ستبدو مثيرة جداً فوق الثلج، كما أن أكمامها بيضاء ويمكن تلطيخها بالدماء. أليست تلك فكرة رائعة؟ ولكن هل تظنان أنها ستنطلي عليه؟

مايكل: نعم، إذا أحسنّا إعدادها. سنضع أثر أقدامك على الثلج وآثار أقدام شخص آخر يذهب إلى الجثة ويعود من عندها، آثار أقدام رجل بالطبع. وسيحرص بوارو على عدم إفساد آثار الأقدام، وبالتالي فلن يعلم أنك لست ميتة حقاً. ولكن ألا تعتقدان...؟

توقف مايكل وقد داهمته فكرة مفاجئة بينما تطلع إليه الآخران، ثم أكمل: ألا تعتقدان أن اللعبة ستزعجه؟

بريجيت: لا أعتقد ذلك، بل أنا متأكدة أنه سيفهم أننا ما قمنا بها إلا لتسليته، أي من قبيل تسليات العيد.

فكر كولين قليلاً وقال: أظن أن علينا أن لا نقوم بذلك يوم العيد، فهذه المزحة لن تعجب جدي كثيراً.

بريجيت: في اليوم الثاني إذن، «يوم الإهداء»؟

مايكل: نعم، سيكون «يوم الإهداء» مناسباً.

بريجيت: وهذا سيعطينا مزيداً من الوقت أيضاً، فلدينا الكثير

مما ينبغي إعداده. لندخل الآن ونلقِ نظرة على مستلزمات التمثيلية.

وأسرعوا بدخول المنزل.

-٣-

كان المساء حافلاً، فقد أُحضر نبات الإيلكس بكميات كبيرة ونُصبت شجرة الميلاد في زاوية غرفة الطعام وشرع الجميع بتزيينها.

تمتم ديزموند في أذن سارة بسخرية: لم أتخيل أن عادات بالية كهذه ما زالت مستمرة.

أجابته مدافعة عن تقاليدها: لقد اعتدنا القيام بذلك.

- يا للسبب الوجيه!

- آه، لا تكن مزعجاً، إن هذا ممتع.

- عزيزتي سارة، لا أكاد أصدق ذلك!

- حسناً، ربما لا يكون الأمر هكذا بالضبط، ولكنني أحبها لسبب ما.

سألت السيدة ليسي وقد بلغت الساعة الثانية عشرة إلا ثلثاً: لقد حان وقت النوم، أليس كذلك؟ من يريد القيام مبكراً في الغد لفتح الجوارب المحشوة بهدايا العيد؟

أجاب ديزموند: لست أنا، تعالي يا سارة.

أمسك بيدها وقادها إلى المكتبة حيث جهاز التسجيل وهو يردد: لكل شيء حدود! الجوارب المحشوة بهدايا العيد؟!

قلت سارة: نعم؛ وماذا في ذلك؟

أما أغلب أفراد المجموعة فقد تهيؤوا للذهاب إلى النوم ترافقهم ضحكاتهم وأصواتهم العالية، ثم تلاشت ضحكاتهم وهم يبتعدون.

قالت السيدة ليسي: الصغار يحبون هذا التقليد.

ردّ زوجها قائلاً: ولكن سارة وصاحبها لا يحبانه.

- أعتقد أنك مخطئ في هذه النقطة يا عزيزي، فسارة تحبه ولكنها لا ترغب في قول ذلك.

- ما أشد حيرتي من اهتمامها برأي هذا الفتى!

قالت السيدة ليسي: "إنها ما تزال صغيرة". ثم التفتت إلى بوارو وسألته: سيد بوارو، هل ستنام؟ أتمنى لك ليلة سعيدة ونوماً هانئاً.

قال بوارو: وأنت يا سيدتي، ألست ذاهبة إلى النوم؟

- ليس الآن، عليّ أن أملأ جوارب الصغار بالهدايا. صحيح أنهم لم يعودوا أطفالاً، ولكنهم يحبون هذا التقليد. إننا نضع لهم أشياء صغيرة مضحكة تثير لديهم كثيراً من المتعة.

بوارو: أهنئك يا سيدتي، فأنت تُجهدين نفسك لتجعلي البيت سعيداً في العيد.

وفيما انصرف بوارو علّق الكولونيل ليسي بقوله: ها... يا له من رجل منمّق الكلام! لكنه يحترمك.

دخل هيركيول بوارو غرفة نومه الفسيحة المزودة بالتدفئة، وبينما كان يتجه إلى سريره الضخم لاحظ ظرفاً على الوسادة. فتح الظرف وأخرج منه قصاصة ورق عليها رسالةٌ كُتبت باضطراب

وبأحرف كبيرة: «لا تأكلْ شيئاً من كعكة الخوخ... التوقيع: شخصٌ يريد لك الخير».

حدق هيركيول بوارو بالورقة وقد ارتفع حاجباه وهو يتمتم: لغز غريب، ومفاجئ تماماً!

-٤-

في الثانية ظهراً بدأت وليمة العيد، وكانت احتفالاً حقيقياً. تعالت طقطقة جذوع الشجر الضخمة في المدفأة الواسعة، وتعالى فوقها لغط الألسنة التي كانت تتكلم في وقت واحد، وشُرِب حساء المحار كله وجيء بديكين روميين ضخمين فعادا إلى المطبخ هيكلين من العظم... والآن حانت اللحظة الحاسمة، وتهادت كعكة العيد مسجّاةً بجلال تنتظرُ إلقاء النظرة الأخيرة قبل دفنها! ولم يسمح بيفيريل العجوز الذي ترتعش يداه وركبتاه تحت وطأة ثمانين عاماً لأحد سواه بأن يحملها، تاركاً السيدة ليسي تجلس وهي تضغط على كفّيها خوفاً وقلقاً، إذ كانت على يقين من أن بيفيريل سيقع ميتاً في أحد أعياد الميلاد. لم يكن أمامها سوى خيارين اثنين: إما أن تخاطر بتركه يقع ميتاً يوماً ما، وإما أن تمنعه من العمل وتؤذي بذلك مشاعره لدرجة تجعله يفضل الموت على الحياة. وقد آثرت الخيار الأول حتى الآن.

رقدت الكعكة بسلام على طبق فضي مثل كرة قدم ضخمة وقد غُرز فيها عرق من نبتة الإيلكس كراية النصر، وارتفعت حولها الشموع بلهبها المتموج، وتعالت صيحات الفرح والاستحسان.

استطاعت السيدة ليسي أن تقنع بيفيريل بوضع الكعكة أمامها بحيث تتولى هي تقديمها بدل دورانه بها على الحضور حول الطاولة،

وتنفست الصعداء عندما استقرت الكعكة سليمة أمامها. وسرعان ما توزعت الأطباق فيما كان لهب الشموع يلوّح أطراف الكعكة.

صاحت بريجيت: تمنَّ أمنية يا سيد بوارو قبل أن تُطفئ الشموع. وأنت يا جدتي الغالية، بسرعة.

أسندت السيدة ليسي ظهرها إلى الخلف بارتياح، فقد نجحت «عملية الكعكة» واستقرت أمام كل واحد حصته التي ما تزال النار تلوّحها، وساد الصمت للحظة حول المائدة فيما كان الجميع يتمنون أمنياتهم بعمق.

لم يكن أحدٌ لينتبه إلى التعبير الفضولي على وجه السيد بوارو وهو يتفحص حصته من الكعكة على طبقه، وتذكر التحذير: «لا تأكل شيئاً من كعكة الخوخ». ماذا يعني هذا التحذير المشؤوم؟ ليس ثمة في حصته من الكعكة ما يختلف عن حصص الآخرين! تناول ملعقته وشوكته وهو يتنهد معترفاً لنفسه بارتباكه وحيرته، وهو الذي لا يحبّ أبداً الاعتراف بالحيرة والارتباك.

- أتريد بعض الصلصة الجامدة يا سيد بوارو؟

تناول بوارو بامتنان صلصة جامدة.

قال الكولونيل ليسي: إن عيد الميلاد لا يأتي إلا مرة في كل عام، والسيدة روس امرأة عظيمة وطباخة عظيمة أيضاً.

قال كولين وهو يضع قطعة كبيرة في فمه: حقاً إنها كذلك، إنها كعكة خوخ رائعة، هممم!

هاجم هيركيول بوارو حصته من الكعكة بلطف ولكن بنشاط.

تناول لقمة أولى فكانت لذيذة، ثم تناول لقمة أخرى، ولكن شيئاً ما رنَّ على طبقه. تفحصه بالشوكة تساعده في ذلك بريجيت الجالسة عن يساره.

قالت بريجيت: حصلت على شيء يا سيد بوارو. ترى ما هو؟

عزل بوارو شيئاً فضياً صغيراً من الحلوى العالقة به، فهتفت بريجيت مبتهجة: آه، إنه «زرّ العازب»! زر العازب من نصيب السيد بوارو!

غمس هيركيول بوارو الزرّ الفضي الصغير في كأس الماء قرب طبقه ونظفه مما علق به قائلاً: إنه رائع جداً!

وتبرع كولين بالشرح قائلاً: هذا يعني أنك ستبقى عازباً يا سيد بوارو.

قال بوارو: هذا طبيعي؛ فقد بلغت هذه السن المتقدمة وأنا عازب، وما أظنني سأغير هذا الوضع الآن.

فردّ مايكل: لا تيأس؛ فقد قرأت في الصحيفة أن رجلاً في الخامسة والتسعين قد تزوج فتاة في الثانية والعشرين من عمرها.

قال بوارو: هذا تشجيعٌ جيد.

فجأة هتف السيد ليسي وقد احمرّ وجهه وامتدت يده إلى فمه: ما هذا يا إيم؟ كيف تدعين الطاهية تضع زجاجاً في الكعكة؟!

صاحت السيدة ليسي باستغراب: "زجاج؟!" فيما كان الكولونيل يخرج من فمه القطعة التي أزعجته مدمدماً: كادت أن تكسر سني، ولو ابتلعتها لسببت لي التهاباً في الزائدة.

أدخل القطعة في كأس الماء ونظفها ثم نظر إليها وهتف: يا إلهي! حجرٌ أحمر من أحجار الحلي الزائفة.

- هل يمكن أن أراه؟

مد السيد بوارو يده برشاقة فوق الجالسين وأخذ الحجر من الكولونيل ليسي وتفحصه بدقة. كان حجراً ضخماً أحمر كما وصفه المضيف، بلون الياقوت.

تلألأت الأضواء من جنباته عندما قلّبه بوارو، وفجأة تزحزح أحد الكراسي حول المائدة.

صاح مايكل: آه، الأغرب أن يكون حجراً حقيقياً.

بريجيت: ربما كان حقيقياً.

مايكل: لا تكوني حمقاء يا بريجيت، فياقوتة بهذا الحجم تساوي آلاف الجنيهات. أليس كذلك يا سيد بوارو؟

بوارو: بلى؛ بالتأكيد.

السيدة ليسي: ولكنني لا أفهم كيف وصل هذا الحجر إلى الكعكة.

قال كولين وقد ألهاه ما وجده في لقمته: آه، الخنزير من نصيبي! هذا ليس عدلاً.

بدأت بريجيت تهتف على الفور: الخنزير من نصيب كولين، فكولين هو الخنزير الشره إذن.

قالت ديانا بصوت عال: الخاتم من نصيبي.

مايكل: جيد؛ هذا يعني أنك ستتزوجين قبلنا جميعاً.

بريجيت: وأنا حصلت على الكشتبان.

أنشد الصبيّان: ستصبح بريجيت عجوزاً عانساً، ستصبح عجوزاً عانساً.

سأل ديفيد: ومن منكم وجد النقود؟ في الكعكة قطعة نقدية بعشرة شلنات ذهبية كما أخبرتني السيدة روس. مَن وجدها؟

قال ديزموند: أحسب أنني أنا صاحب الحظ.

همس الكولونيل ليسي بصوت سمعه الشخصان الجالسان إلى جواره: نعم، ستكون محظوظاً.

قال ديفيد: "وأنا وجدت خاتماً أيضاً". ثم أضاف وهو ينظر إلى ديانا: يا لها من مصادفة، أليس كذلك؟

واستمر الضحك، ولم ينتبّه أحد إلى السيد بوارو الذي دس الحجر الأحمر في جيبه بلامبالاة وكأنه يفكر في شيء آخر.

* * *

تتابعت الفطائر والحلوى بعد كعكة العيد، ثم نهض الكبار إلى غرفهم للقيلولة قبل جلسة الشاي حيث تُضاء شجرة العيد. أما بوارو فلم يتوجه إلى القيلولة بل توجه إلى المطبخ الضخم ذي الطراز القديم حيث أجال نظره متسائلاً: هل لي أن أهنّئ الطباخة على هذه الوجبة الرائعة التي تناولناها؟

مضت دقيقة قبل أن تأتي السيدة روس بوقار لرؤيته، وكانت ذات جسم ضخم ومفتول كأنه جسم دوقة في عرض مسرحي. وفي غرفة

الغسيل كانت امرأتان هزيلتان تغسلان الأواني، بينما تتنقل امرأة أخرى ناعمة الشعر بين غرفة الغسيل والمطبخ. وبدا واضحاً أن النسوة الثلاث كنّ مجرد توابع وأن السيدة روس هي الأميرة الفعلية لركن المطبخ.

قالت السيدة روس بتهذيب: يسرني أن الطعام قد أعجبك يا سيدي.

صاح بوارو: وأي إعجاب!

ثم رفع يده إلى شفتيه في إشارة أجنبية متقنة وقبّلها ونفخ القبلة إلى السقف قائلاً: إنك عبقرية يا سيدة روس. لم أتذوق أبداً وجبة كهذه؛ لقد كان حساء المحار رائعاً وحشوة الكستناء في الديك الرومي شيئاً فريداً لم أجربه من قبل.

أجابت السيدة روس بتهذيبها المعتاد: من المدهش أن أسمع ذلك منك يا سيدي، فقد أعددت تلك الحشوة بطريقة خاصة علمني إياها طباخ نمساوي عملت معه منذ زمن بعيد، أما ما تبقى فكله أُعِدَّ بالطريقة الإنكليزية البحتة.

قال بوارو: وهل يوجد أفضل من الطريقة الإنكليزية؟

- هذا من لطفك يا سيدي. ربما كنت تفضل الأسلوب الأوروبي لأنك أجنبيٌ، وأنا أستطيع أن أعد الأكلات الأوروبية أيضاً.

- أنا واثق من قدرتك على إعداد أي شيء يا سيدة روس، ولكني أقول لك: إن الطبخ الإنكليزي (وأقصد الإنكليزي الحقيقي، لا ذلك الذي يقدَّم في فنادق ومطاعم الدرجة الثانية) محترم تماماً من قِبل خبراء الطبخ في أوروبا، وأعتقد أن بعثة خاصة قد أُوفدت إلى لندن في بداية القرن الثامن عشر فكتبت تقريراً أرسلته إلى فرنسا يتحدث عن روائع الكعكات الإنكليزية. وجاء في التقرير ما نصه:

«ليس لدينا في فرنسا مثل هذه الكعكات، وإنّ تذوّق التنوع والجودة في الكعكات الإنكليزية يستحق وحده القيام برحلة إلى لندن».

واندفع بوارو يلقي بنشوة وحماسة قصيدته: وفوق كل الكعكات تأتي كعكة الخوخ التي يقدمها الإنكليز في عيد الميلاد كتلك التي أكلناها اليوم. لقد صُنعت في البيت ولم يتم شراؤها من السوق، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي. إنها من صنعي، وبالطريقة نفسها التي أصنعها بها منذ سنوات عديدة. عندما جئت إلى هنا قالت السيدة ليسي إنها طلبت كعكة جاهزة من أحد محلات لندن لتوفر عليّ التعب، فقلت لها: لا يا سيدتي، هذا لطف منك، ولكن كعكة السوق لا يمكن أن تعادل كعكة العيد التي نصنعها في البيت.

ومضت السيدة روس تقترب من موضوعها المفضل بحماسة متزايدة لفنان قدير: لعلمك يا سيدي، لقد أعددتُ هذه الكعكة بأسرع مما ينبغي عادة. فكعكة عيد الميلاد ينبغي أن تُحضَّر قبل بضعة أسابيع وتُترَك، وكلما تُركت أكثر (ضمن المعقول) كان ذلك أفضل. وكان من المفترض أن يكون الأمر كذلك هذا العام، ولكن هذه الكعكة لم تُحضَّر إلا قبل ثلاثة أيام، قبل يوم من حضورك يا سيدي. ومع ذلك فقد حافظت على التقليد القديم، حيث كان على كل فرد في البيت أن يأتي إلى المطبخ ليمزج خليط الكعك ليلاً ويتمنى أمنية. إنه تقليد قديم -يا سيدي- وقد حافظت عليه دوماً.

قال بوارو: شيء ممتع ومثير للاهتمام... إذن فقد أتى الجميع إلى المطبخ؟

- نعم يا سيدي؛ الشابان الصغيران والآنسة بريجيت، والسيد القادم من لندن وأخته، والسيد ديفيد والآنسة ديانا، كلٌّ منهم مزج خليط الكعكة قليلاً.

- كم كعكة صنعتِ يا سيدتي؟ هذه فقط؟

- لا يا سيدي، لقد صنعت أربعاً: اثنتين كبيرتين، واثنتين أصغر منهما. الكعكة الكبيرة الأخرى كنت أنوي تقديمها في عيد رأس السنة، أما الكعكتان الصغيرتان فقد أعددتهما للكولونيل وللسيدة ليسي عندما يكونان وحدهما معاً بغياب بقية أفراد العائلة.

- نعم، نعم.

- وفي الحقيقة، فإن الكعكة التي أكلتموها على الغداء اليوم كانت الكعكة الخطأ.

- الكعكة الخطأ؟ كيف؟

- حسناً، لدينا -يا سيدي- قالب صيني ضخم لكعكة العيد يسمح بفجوات في الكعكة لوضع نبات الإيلكس، وعادة ما نسكب كعكة عيد الميلاد فيه. ولكن حدث في هذا الصباح حادث مؤسف جداً، إذ جاءت آني لتنزل القالب عن الرف فانزلقت قدمها فسقط القالب وانكسر. ولم أتمكن -طبعاً- من تقديم الكعكة التي كانت بداخله، فربما كان فيها بعض شظايا القالب. ولذلك اضطررنا إلى تقديم الكعكة الأخرى، كعكة عيد رأس السنة التي كانت في طبق منبسط. ورغم أن انتفاخ الكعكة كان جيداً إلا أنها لم تكن كاملة الزخرفة والزينة كما ينبغي لقالب عيد الميلاد. إنني لا أدري فعلاً أين يمكننا العثور على قالب مماثل، فهم لا يصنعون أشياء بهذا الحجم في

هذه الأيام. كل الأواني صغيرة جداً بحيث لا يمكنك شراء طبق يتسع لثماني بيضات أو عشر للإفطار. لم تعد الأمور كما كانت من قبل!

قال بوارو: هذا صحيح، ولكن اليوم يختلف، فقد كان يوم عيد الميلاد هذا واحداً من الأيام الخوالي، أليس كذلك؟

تنهدت السيدة روس قائلة: يسرني أنك تقول ذلك يا سيدي، ولكني لا أجد اليوم المساعدة التي كنت أحصل عليها من قبل، أقصد مساعدة فتيات ذوات خبرة؛ ففتيات اليوم (وخفضت صوتها قليلاً وهي تقول ذلك) لسنَ مدربات رغم طيبتهن واستعدادهن للتعلم، هل تفهم ما أعنيه؟

- نعم، لقد تغير الزمن. أنا أيضاً أحزن لذلك أحياناً.

- إن هذا البيت كبير جداً بالنسبة لسيدتي والكولونيل، وسيدتي تعرف ذلك. وحياتهما فيه لم تعد كالسابق، إذ يعيشان في زاوية واحدة منه، والحياةُ لا تدبّ في هذا البيت إلا في أعياد الميلاد حيث تجتمع العائلة كلها.

- أعتقد أنها المرة الأولى التي يأتي فيها السيد لي ورتلي وشقيقته إلى هنا؟

تسللت نبرة تحفظ بسيط إلى صوت السيدة روس وهي تجيب: نعم يا سيدي، إنه شاب لطيف جداً ولكن... لنقل: إنه يبدو غير مناسب للآنسة سارة حسب أفكارنا. ولكن، هناك في لندن، تختلف الاعتبارات! حسناً، من المؤسف أن أخته مريضة. لقد أجرت عملية فيما سمعت، وقد كانت صحتها جيدة في اليوم الأول لوصولها إلى هنا، ولكنها انتكست في ذلك اليوم الذي كنا نُعِدّ فيه الكعكات

فنُقلت إلى السرير وبقيت فيه منذ ذلك الحين. أظن أنها خرجت من المستشفى قبل أن تتعافى تماماً، فأطباء اليوم يخرجونك من المستشفى قبل أن تتمكن من الوقوف على قدميك. إن زوجة ابن أخي...

ومضت السيدة روس في حديث طويل مفعم بالحماسة حول العلاج في المستشفيات الذي تعرّض له أقرباؤها، مقارَنةً بالعناية التي كانت تُبذَل للمرضى في العهود الخالية.

واساها بوارو بما تيسر له من كلام ثم قال: بقي عليّ أن أشكرك على هذه الوجبة المتقنة الفاخرة، واسمحي لي بتعبير بسيط عن تقديري لهذا الجهد.

واندسّت ورقة مطوية من فئة الخمسة جنيهات في يدها، فقالت بطريقة روتينية: أرجوك يا سيدي، لا تفعل.

- إنني مصرّ، لا بد من ذلك.

قبلت السيدة روس المبلغ كما لو أنه حقها قائلة: حسناً يا سيدي، إنه لطف بالغ منك. أتمنى لك عيدَ ميلادٍ سعيداً وعاماً جديداً موفقاً.

-٥-

كانت نهاية العيد كنهاية كل أعياد الميلاد، فقد أُضيئت شجرة الميلاد وجيء بعدها بعشاء خفيف بارد. وأخيراً توجه بوارو ومضيفه ومضيفته إلى النوم باكراً، فيما قالت السيدة ليسي: طابت ليتك يا سيد بوارو، أرجو أن تكون قد تمتعت هنا.

- لقد كان يوماً رائعاً يا سيدتي.

- ولكنك تبدو مستغرقاً في تفكيرك؟

- إن الكعكة الإنكليزية هي ما أفكر فيه.

سألت السيدة ليسي بلطف: أكانت ثقيلة على معدتك؟

- لا، لا. إنني لا أفكر في قابليتها للهضم، بل أتأمل في أهميتها. إنها جزء من التقاليد فيما أرى.

- على كل حال طابت ليلتك، وأرجو أن لا تحلم كثيراً بكعك العيد وفطائره.

دمدم بوارو لنفسه وهو ينزع ملابسه: نعم، إن كعكة الخوخ تلك لمشكلة حقاً؛ ثمة شيء هنا لا أفهمه أبداً.

ثم هزّ رأسه بغيظ وقال: حسناً، سنرى.

ذهب بوارو إلى فراشه بعد إجراء بعض التحضيرات، ولكن ليس بهدف النوم.

لم يؤتِ صبرُه ثمارَه إلا بعد ساعتين تقريباً، حيث فُتح باب غرفته بهدوء، فابتسم لنفسه؛ لقد جرت الأمور كما توقع لها. وعاد بذاكرته إلى فنجان القهوة الذي قدمه إليه ديزموند لي ورتلي بكل لطف، وعندما أدار ديزموند ظهره وضع الفنجان على الطاولة لدقائق، ثم بدا أنه أخذه ثانية فيما كان ديزموند يشعر بالارتياح لرؤيته يشرب القهوة حتى آخر قطرة. ولكن ابتسامة صغيرة تراقصت على شارب بوارو عندما فكر بأن الشخص الذي يغط في سبات عميق هذه الليلة ليس هو بل شخص آخر. قال بوارو لنفسه: ديفيد ذلك الشاب اللطيف، قلق وحزين، ولن يؤذيه أن يغط في نوم عميق لليلة واحدة. ولكن لنرَ ما سيحدث الآن.

بقي هادئاً يتنفّس بانتظام موحِياً بين الفينة والأخرى بالشخير، ولكن بأضعف درجات الإيحاء. وتقدم الشخص إلى السرير وانحنى فوقه، وعندما اقتنع بنوم بوارو ذهب إلى طاولة الزينة وفتش بمساعدة مصباح صغير يحمله كل أمتعة بوارو المرتبة بعناية فوقها. امتدت الأصابع إلى المحفظة ثم أدراج الطاولة، ثم جيوب ثياب بوارو، وأخيراً تقدم الزائر من السرير ودس يده بحذر شديد تحت الوسادة. ثم سحب يده ووقف دقيقة أو دقيقتين كما لو أنه لا يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله الآن. دار في الغرفة باحثاً داخل أواني الزينة، ثم دخل إلى حمام الغرفة ثم خرج منه، وبعدها خرج من الغرفة معبّراً بهمهمة خافتة عن اشمئزازه.

حدّث بوارو نفسه من تحت أنفاسه: آه، لقد خاب أملك. نعم، خيبة أمل حقيقية! كيف يخيل إليك أن هيركيول بوارو يمكن أن يخفي شيئاً ثم تجده أنت؟!

ثم أدار ظهره وأخلد إلى النوم.

* * *

صحا بوارو صباح اليوم التالي على دقات خفيفة على باب غرفته.

- مَنْ هناك؟ ادخل، ادخل.

فُتِحَ الباب ووقف على عتبته كولين لاهثاً أحمر الوجه وخلفه مايكل.

كولين: سيد بوارو، سيد بوارو!

جلس بوارو في فراشه قائلاً: نعم، هل هو شاي الصباح؟ هذا أنت يا كولين، ما الذي حدث؟

وقف كولين صامتاً للحظات وقد بدا أنه تحت وطأة شعور جارف، ولكن ما أسكت كولين فعلاً كان منظر قلنسوة النوم التي يرتديها هيركيول بوارو. وأخيراً استجمع كولين أنفاسه وقال: أظن يا سيد بوارو... هل لك أن تساعدنا؟ لقد حدث شيء فظيع!

- حدث شيء؟ ما هو؟

- إنها... إنها بريجيت، ملقاة على الثلج في الخارج. إنها ترقد دون حراك، ومن الأفضل أن تأتي وتنظر بنفسك. إنني أرتعد خوفاً، فربما تكون قد ماتت!

قذف بوارو بأغطية سريره هاتفاً: ماذا؟ الآنسة بريجيت، ماتت!

- أظن... أظن أن أحداً قتلها؛ فهناك دم و... أرجوك أن تأتي!

- بالتأكيد، سآتي فوراً.

أدخل بوارو قدميه في حذائه وألقى معطفَ فراءٍ على كتفيه فوق البيجاما وهو يقول: ها أنا ذا قادم، فوراً. هل أخبرتما الآخرين.

- لا، لم أخبر غيرك حتى الآن، فقد ظننت أن ذلك أفضل، كما أن جدي وجدتي لم يستيقظا بعد. إن الخدم يحضّرون الإفطار في الأسفل ولكني لم أخبر أحداً. إن بريجيت هناك في الجانب الآخر للبيت، قرب العتبة وشبّاك المكتبة.

- حسناً، تقدّمْ وأرشدني إليها، سأتبعك.

دار كولين ليرشد بوارو مخفياً تكشيرة ابتهاج. نزلوا الدرج

وخرجوا من الباب الجانبي. كان صباحاً صافياً لم ترتفع شمسُهُ بعد، وقد توقف الثلج عن التساقط، وإن يكن قد بدا واضحاً أنه تساقط بكثافة طول الليل لينسج سجّادة من الثلج الكثيف لم تفسدها بعدُ أرجل العابرين أو حركة الحياة.

بدت الطبيعة في غاية النقاء والجمال، وأشار كولين بطريقة درامية مؤثرة وهو يلهث: هناك، إنها هناك.

كان المنظر درامياً حقاً، فعلى بعد بضعة أمتار كانت بريجيت ممدَّدة على الثلج بسترتها الحمراء وقد التفّ شالٌ صوفي أبيض حول كتفيها ملطَّخاً باللون القرمزي. كان رأسها موجَّهاً إلى الجهة الأخرى وجهها مغطى بشعرها الطويل الأسود، فيما استقرت إحدى يديها تحت جسمها واليد الأخرى ممدودة مطبقة الأصابع، ووسط البقع القرمزية انتصب مقبض خنجر معقوف كان الكولونيل ليسي قد عرضه على ضيوفه في الليلة الماضية.

- يا إلهي! كأنه مشهد مسرحي!

صدر من مايكل صوت ضحكة مكتومة، وسرعان ما تدخل كولين ليتدارك الموقف. قال كولين: نعم، يبدو الأمر غير حقيقي نوعاً ما. ولكن هل ترى آثار الأقدام؟ ألا ينبغي أن نحافظ عليها؟

- نعم، آثار الأقدام، ينبغي الحرص على عدم إفسادها.

- هذا رأيي أيضاً، ولذلك لم أسمح بحضور أحد قبلك إلى هنا، فأنت تعرف ما الذي يتوجب فعله.

- لا فرق، ولكن علينا أن نرى إن كانت ما تزال على قيد الحياة، أليس كذلك؟

- بلى؛ طبعاً، ولكننا اعتقدنا... أعني أننا لم نرغب في...

- نعم، لقد اتصفتما بالحصافة؛ فقد قرأتما القصص البوليسية وتعلمان أنه لا ينبغي لمس شيء في مسرح الجريمة وأن من الواجب ترك الجثة كما هي. ولكننا غير متأكدين حتى الآن إن كانت بريجيت جثة فعلاً، أليس كذلك؟ صحيح أن الاحتراس مطلوب ولكن الاعتبارات الإنسانية تأتي أولاً، ويجب علينا أن نفكر بالطبيب قبل الشرطة، أليس كذلك؟

قال كولين وقد فوجئ قليلاً: بلى، بالطبع.

مايكل: لقد فكرنا أن من الأفضل أن نخبرك أنت أولاً.

بوارو: إذن قفا هنا بينما أذهب أنا من الجانب الآخر كيلا أفسد آثار الأقدام هذه. إنها آثار ممتازة وواضحة، ما رأيكما؟ آثار أقدام رجل وفتاة ذهبا إلى حيث ترقد بريجيت، ثم عاد الرجل دون الفتاة.

قال كولين وهو يحبس أنفاسه: لا شك أنها آثار أقدام القاتل.

بوارو: إنها كذلك بالضبط. آثار أقدام طويلة رفيعة ذات نوع خاص من الأحذية. إنها آثار واضحة يسهل تمييزها، وستكون في غاية الأهمية.

في هذه اللحظة خرج ديزموند لي ورتلي وسارة من المنزل وانضما إلى المجموعة. تساءل ديزموند بأسلوب مسرحي: ماذا تفعلون هنا بربكم؟ لقد رأيتكم من نافذة غرفتي. ماذا هناك؟ يا إلهي! ما هذا؟ كأنها...

- بالضبط، كأنها جريمة قتل، أليس كذلك؟

شهقت سارة ونظرت بسرعة وارتياب إلى الصبيين.

قال ديزموند: هل تعنون أن شخصاً ما قتل هذه الفتاة... ما اسمها؟ بريجيت؟ ومَنذا يهمه قتلها؟ مستحيل!

قال بوارو: كثير من المستحيلات يحدث، خاصةً قبل الإفطار. هكذا يقول تراثكم: «ستة مستحيلات تقع قبل الإفطار»! أرجو أن تنتظروا هنا جميعاً.

دار بوارو بحذر واقترب من بريجيت وانحنى للحظة فوق جسدها فيما كان كولين ومايكل يهتزان بضحكهما المكتوم، ودنت سارة منهما وتمتمت قائلة: ماذا فعلتما؟

همس كولين: هذه الشقية بريجيت، أليست رائعة؟ لم تأتِ بحركة!

همس مايكل: لم أرَ في حياتي أحداً أشبه بحال الميت من بريجيت.

نهض بوارو قائلاً: أمر فظيع!

بدت في صوته عاطفة لم تكن من قبل. دار مايكل وكولين وقد اهتزّا طرباً، وتساءل مايكل بصوت منخفض: ماذا نفعل الآن؟

قال بوارو: ليس أمامنا ما نفعله سوى استدعاء الشرطة. هل يذهب أحدكم ليتصل بالشرطة أم تريدون أن أذهب أنا؟

قال كولين: حسناً، ما رأيك يا مايكل؟

مايكل: نعم، لقد انتهت اللعبة الآن.

ثم تقدم وهو يشعر -للمرة الأولى- بعدم الثقة بنفسه وقال: أنا آسِفٌ جداً، أرجو أن لا تغضب، لقد كانت... حسناً، كانت نوعاً من نكات عيد الميلاد. لقد فكّرنا أن نمثل لك جريمة قتل.

- فكرتما أن تمثلا لي جريمة قتل؟ وهذا الـ... وهذا...

قاطعه كولين شارحاً: إنه مجرد مشهد أعددناه لنسلّيك به.

بوارو: آه، لقد فهمت. لقد أردتما أن تجعلاني مغفل الأول من نيسان (أبريل)، أليس كذلك؟ ولكن اليوم ليس الأول من نيسان، إنه السادس والعشرون من كانون الأول (ديسمبر).

كولين: ربما لم يكن ذلك مناسباً، ولكن... لا أظنك تغضب من ذلك يا سيد بوارو. هيا يا بريجيت، انهضي، لا شك أنك قد تجمّدتِ.

غير أن الجسم الملقى في الثلج لم يتحرك.

نظر بوارو إليهما بإمعان وقال: الغريب أنها لا تسمعك كما يبدو. أأنتما متأكدان من أنها مجرد مزحة؟

أجاب كولين بامتعاض: طبعاً؛ إننا لم نقصد إيذاء أحد.

بوارو: فلماذا لا تنهض الآنسة بريجيت إذن؟

كولين: لا أرى سبباً لذلك.

صاحت سارة وقد نفد صبرها: هيا يا بريجيت، قومي وكفاك سخافة.

قال كولين بقلق: إننا آسفان جداً بالفعل ونعتذر بصدق يا سيد بوارو.

أجاب بوارو بنبرة خاصة: لا حاجة لاعتذاركما.

حدّق كولين قائلاً: ماذا تعني؟

ثم دار ثانية وصاح: بريجيت، بريجيت! ما الأمر؟ لماذا لا تنهض؟ لماذا تستمر متمددة هناك؟

أومأ بوارو لديزموند: أنت يا سيد ورتلي، تعال هنا.

اقترب ديزموند منه فقال بوارو: افحص نبضها.

انحنى ديزموند وأمسك بمعصمها، ثم حدق إلى بوارو قائلاً: لا نبض لها، نبضها متوقف. يا إلهي! إنها ميتة حقاً!

بوارو: نعم ميتة، لقد قلب أحدهم الملهاة إلى مأساة!

ديزموند: أحدهم؟ مَن؟

بوارو: توجد هنا آثار أقدام ذهبت وعادت، وهذه الآثار تشبه إلى حد بعيد الآثار التي تركتها قدماك وأنت قادم إلى هنا يا سيد ورتلي.

صاح ديزموند: ماذا تعني؟ هل تتهمني؟ أنا؟ هل جننت؟! لماذا عساني أقتل هذه الفتاة؟

بوارو: آه، لماذا؟ هذا ما يحيرني. دعنا نفكر.

انحنى بوارو فوق الفتاة وفتح بهدوء أصابع كفها المتصلبة، فشهق ديزموند وهو يحدق إلى يدها غيرَ مصدق ما يراه، فقد كانت في قبضة يدها ياقوتة كبيرة.

صاح ديزموند: إنها تلك القطعة اللعينة التي كانت في الكعكة!

بوارو: أأنت متأكد؟

قال ديزموند: "طبعاً، إنها هي بالتأكيد". وبحركة سريعة انحنى وأخذ الحجر الأحمر من كف بريجيت.

قال بوارو مؤنباً: لا تفعل ذلك؛ فلا ينبغي العبث بأي شيء.

- أنا لم أعبث بالجثة، ولكن هذا الحجر دليل مهم وقد يضيع. المهم الآن أن نحضر الشرطة في أقرب وقت؛ سأذهب حالاً وأتصل بهم.

ثم دار وركض بسرعة نحو البيت فيما تقدمت سارة من بوارو وقالت وقد شحب وجهها: إنني لا أفهم شيئاً، لا أفهم شيئاً!

ثم أمسكت بذراع بوارو قائلة: ماذا قصدت من... من قصة آثار الأقدام؟

قال بوارو: انظري بنفسك يا آنسة.

كانت الآثار الموصلة إلى الجثة ذهاباً وإياباً هي نفسها الآثار التي تركها ديزموند وهو يرافق بوارو إلى الجثة.

سارة: هل تعني أنه ديزموند؟ هراء!

وفجأة مزق السكونَ صوتُ سيارة مندفعة، والتفت بوارو وسارة معاً ليشاهدا سيارة تندفع بعنف في الطريق. وتمكنت سارة من ملاحظة أي سيارة كانت فصاحت قائلة: إنه ديزموند... هذه سيارة ديزموند. لا بد أنه قد ذهب لاستدعاء الشرطة بدلاً من أن يتصل بهم بالهاتف.

في تلك اللحظة خرجت ديانا من البيت وجاءت راكضة لتنضمّ

إلى المجموعة وهي تسأل بأنفاس مقطوعة: ماذا حصل؟ لقد جاء ديزموند لتوه إلى البيت راكضاً، وقد ذكر شيئاً عن بريجيت وأنها قد قُتلت ثم هرع إلى الهاتف، ولكن الهاتف كان معطلاً فيما يبدو؛ فقد قال إنه لم يتلقَّ أي رد مما حمله على القول بأن الأسلاك مقطوعة، وقد قال إن الطريقة الوحيدة للوصول إلى الشرطة هي في الذهاب بالسيارة إليهم. ولكن لماذا الشرطة؟

قام بوارو بإشارة من يده فهتفت ديانا وهي تحدق إليه: بريجيت؟! ولكن بالتأكيد... أليست هذه مزحة من نوع ما؟ لقد سمعت في الليلة الماضية شيئاً، وقد حسبت أن الأولاد كانوا سيدبرون لعبة لك يا سيد بوارو.

قال بوارو: نعم، لقد كانت تلك هي الفكرة؛ تدبير لعبة أُخدَع بها. على أي حال، تعالوا الآن إلى البيت جميعاً قبل أن نموت هنا من البرد، فلا أرى ما يمكننا عمله قبل أن يأتي السيد ورتلي بالشرطة.

قال كولين: ولكن انتظر؛ لا يمكننا ترك بريجيت هنا بمفردها.

قال بوارو بلطف كبير: لن يفيدها بقاء أي منا هنا. هيا معي؛ إنها لمأساة محزنة، محزنة جداً، ولكن لم يعد بوسعنا أن نصنع أي شيء لمساعدة الآنسة بريجيت. ولذلك تعالوا إلى الداخل لنتدفأ ونشرب شيئاً من الشاي الحار أو القهوة الساخنة.

تبعه الجميع إلى البيت طائعين. وفي تلك اللحظة كان بيفيريل على وشك قرع جرس الإفطار، ولقد بدا غريباً له أن يرى الكل عائدين من خارج البيت في هذا الوقت المبكر وأن يرى بوارو بمعطف فوق بيجامته، ولكنه لم يعلق بأي شيء. لقد كان بيفيريل ما يزال الخادمَ النموذجي وهو

في هذه السن، وما كان ليلاحظ ما لم يُطلَب منه ملاحظته!

دخل الجميع إلى غرفة الطعام وأخذوا مقاعدهم، وحين استلم كل منهم كوباً من القهوة أو من الشاي وشرع بارتشافه تكلم بوارو قائلاً: إنني مضطر إلى إعادة سرد بعض الوقائع. لن أكون قادراً على تقديم كل التفصيلات ولكني سأشرح الخطوط العريضة للموضوع، وهو يخص مهراجا هندياً صغيراً جاء إلى هذه البلاد ومعه جوهرة شهيرة كان سيقدمها هدية للفتاة التي سوف يتزوجها. ولكنه -لسوء الحظ- ارتبط قبل هذا الزواج بصداقة مع فتاة جميلة شابة، وهذه الفتاة لم تهتم حقيقة بالشاب بل اهتمت بالجوهرة ذاتها، وبلغ من اهتمامها بها أنها قد اختفت ذات يوم ومعها الجوهرة التاريخية الثمينة التي امتلكتها عائلة المهراجا لأجيال عدة. وهكذا وقع المسكين الشاب في ورطة فظيعة كما ترون. وما كان ليحتمل الفضيحة بذهابه إلى الشرطة، ولذلك جاء إليّ؛ إلى هيركيول بوارو، مناشداً: "استرجع لي تلك الجوهرة". حسناً، لقد كان لتلك الشابة اللعوب صديق محتال قام بالكثير من الأعمال الإجرامية (مثل الابتزاز وبيع الجواهر المسروقة)، وقد حامت الشكوك حوله دوماً ولكن لم يمكن إثبات أي جرم عليه؛ فلقد كان على درجة عالية من الذكاء والدهاء. وقد بلغني أن صاحبنا، الشاب الذكي المحتال، قد جاء إلى هذا البيت لقضاء عطلة عيد الميلاد. وقد كان من الضروري لتلك الفتاة المحتالة أن تبتعد عن الأضواء لبعض الوقت بعد استيلائها على الجوهرة حتى لا تتعرض للاستجواب والمساءلة، وهكذا رُتِّب أمر قدومها إلى هذا البيت متظاهِرةً بأنها أخت ذلك المحتال.

شهقت سارة وصاحت: آه، لا، ليس هنا... ليس معي هنا!

قال بوارو: بل هكذا تم الأمر. وبمناورة صغيرة أصبحت أنا

أيضاً ضيفاً هنا في عيد الميلاد. كانت تلك الشابة (التي يُفترَض أنها قد غادرت المستشفى لتوها) قد بدت متعافية تماماً عندما وصلَتْ هنا، ولكن عندما وصل خبر قدومي أنا أيضاً (وأنا رجل تحرٍّ معروف) أصابها -مباشرةً- ما أسميتموه انتكاسة. لقد أخفت الياقوتة في أقرب مكان خطر على بالها ثم انتكست فجأة وحُمِلت إلى سريرها؛ فلم تكن تريد لي أن أراها لأن عندي -بلا شك- صورة لها وسأعرفها. صحيح أن ذلك كان مملاً لها، ولكنها اضطرت لملازمة الغرفة فيما كان أخوها المزعوم يأخذ لها الطعام.

سأل مايكل: وماذا عن الياقوتة؟

بوارو: أظن أنه في لحظة الإعلان عن قدومي كانت تلك السيدة الشابة معكم في المطبخ بينما أنتم تضحكون وتتحدثون وتشاركون في مزج خليط كعكات العيد. كانت خلطة الكعكات مسكوبةً في عدة طاسات فقامت السيدة بإخفاء الياقوتة بغرزها في إحدى طاسات الكعك، ولكن ليس في الكعكة التي سنتناولها في يوم العيد. لقد كانت تعرف أن كعكة عيد الميلاد مسكوبة في قالب خاص، وهكذا فقد وضعتها في القالب الآخر، القالب الذي يفترض أن تؤكَل كعكته في عيد رأس السنة، آمِلةً أنها ستغادر البيت قبل حلول عيد رأس السنة آخِذةً تلك الكعكة بالتأكيد. ولكن لننظر كيف يلعب القدر لعبته: فقد وقع صباح عيد الميلاد حادث، حيث سقطت كعكة العيد بقالبها الفاخر على الأرض وتناثر القالب إلى شظايا. فما العمل إذن؟ لقد أخذت السيدة الطيبة روس الكعكة الأخرى وقدمتها لنا.

كولين: يا إلهي! هل تعني أن القطعة التي وجدها جدي في فمه في عيد الميلاد هي الياقوتة الحقيقية؟

بوارو: بالضبط؛ ولكم أن تتخيلوا شعور السيد ديزموند وهو يراها. حسناً، ما الذي حدث بعد ذلك؟ تداولنا الياقوتة، تفحصتها أنا وتمكنت دون انتباه أحد أن أدسها في جيبي بلا اهتمام، ولكن شخصاً واحداً كان يراقب ما قمت به، وعندما أويت إلى فراشي جاء ذلك الشخص وفتّش غرفتي وملابسي فلم يجد الياقوتة، لماذا؟

هتف مايكل: لأنك أعطيتها لبريجيت. هذه هي القضية، ولذلك فقد... ولكنني لا أفهم. ما الذي حدث بالضبط؟

ابتسم بوارو في وجهه وقال: تعالوا الآن إلى المكتبة، سأريكم شيئاً من نافذتها من شأنه أن يوضّح اللغز.

تبعه الجميع إلى المكتبة حيث أشار إلى النافذة قائلاً: تأملوا ثانية مشهد الجريمة.

وانطلقت شهقةٌ موحّدة من شفاههم جميعاً؛ فلم تكن على الثلج أية جثة! لقد اختفت كل آثار المأساة إلا ثلجاً أفسدت الأقدام استواءه.

علّقَ كولين بصوت خافت: أكان ذلك حلماً أم أن أحداً أخذ الجثة؟

أجاب بوارو هازّاً رأسه وعيناه تلمعان: أرأيتم؟ ها نحن أمام لغز الجثة المفقودة.

صاح مايكل: يا إلهي! ما هذا يا سيد بوارو؟ آه! انظروا؛ لقد كان يخدعنا طول الوقت.

تلألأت عينا بوارو أكثر من ذي قبل وهو يشرح: صحيح يا أبنائي. لقد أعددت أنا أيضاً نكتة صغيرة؛ فقد علمت بخطتكم

فرتّبتُ لها خطة مضادة. حسناً يا آنسة بريجيت، أرجو أن لا تكوني قد عانيتِ كثيراً في الثلج، لن أغفر لنفسي إذا أصابك التهاب رئوي.

كانت بريجيت قد دخلت الغرفة لتوها مرتدية تنورة وسترة صوفيتين وهي تضحك، وقال بوارو بصرامة: لقد أرسلت لك شراباً ساخناً، فهل شربتِه؟

قالت بريجيت: أجل، رشفة واحدة كانت كافية. أنا بخير الآن ولكن ذراعي تؤلمني من ذلك الرباط الذي ألزمتني بوضعه لوقف نبض المعصم. هل قمتُ بدوري بشكل جيد؟

بوارو: لقد كنتِ رائعةً يا طفلتي، رائعة. ولكن دعيني أشرح لهم ما لم يفهموه. فالبارحة ذهبتُ إلى الآنسة بريجيت وأخبرتها أنني على علم بالخطة وطلبت منها أن تؤدي لي دوراً، فقامت بذلك بكل فطنة، ووضعت آثار الأقدام مستعينة بحذاء السيد لي ورتلي.

قالت سارة بصوت أجش: ولكن ما الهدف من ذلك كله يا سيد بوارو؟ ما الهدف من إرسال ديزموند لإحضار الشرطة؟ سيغضب رجال الشرطة كثيراً عندما يعرفون أنها مجرد خدعة.

هز بوارو رأسه بلطف قائلاً: ولكنني لا أعتقد أبداً أن السيد ديزموند قد ذهب لإحضار الشرطة، فجريمة القتل هي آخر ما يمكن للسيد ورتلي أن يرغب بالتورط فيه. لقد فقد أعصابه ولم يعد قادراً على أن يرى شيئاً إلاّ الفرصةَ التي سنحت له لأخذ الياقوتة، فأخذها وادّعى أن الهاتف معطل ليسرع إلى سيارته بحجة إحضار الشرطة. وأنا شخصياً أعتقد أن هذه هي المرة الأخيرة التي سترينه فيها ولأمد طويل؛ فله -كما أعلم- طرقه الخاصة في الخروج من إنكلترا. إن لديه طائرة خاصة، أليس كذلك يا آنسة؟

سارة: بلى، وقد كنا نفكر بـ...

توقفت فجأة، فقال بوارو: لقد أراد منك أن تهربي معه بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ حسناً، إنها طريقة ذكية لتهريب الجوهرة خارج إنكلترا، فعندما يهرب المرء مع فتاة وينتشر الخبر فلن يشك أحد بأنه قد قام أيضاً بتهريب جوهرة تاريخية خارج البلاد. نعم، كان ذلك سيشكل تمويهاً رائعاً.

سارة: لا أصدق، لا أصدق كلمة واحدة مما تقول!

أومأ بوارو برأسه إلى الباب خلفها قائلاً: فاسألي شقيقته إذن.

التفتت سارة بحدة لترى في الباب فتاة حسناء ذات شعر أشقر بلاتيني تقف عابسة وهي ترتدي معطفاً من الفراء، وكان واضحاً أنها تتميز غيظاً.

- شقيقته؟! إن ذلك الخنزير ليس أخاً لي! إذن فقد أخذ الجوهرة وتركني لأتحمل النتائج. لقد كانت العملية من تخطيطه هو، وهو الذي حرّضني وهيأني لها. قال إنها ستكون ثروة دون عناء وإنهم لن يحاكموني خشية الفضيحة، فسوف يكون بمقدوري أن أهدد دوماً بالإعلان عن أن الجوهرة قد وصلتني هدية. كان المفترض أن نقتسم الغنيمة في باريس، وها هو الخنزير يتركني ويهرب. كم أود لو أقتله!

ثم غيرت الموضوع بسرعة قائلة: ينبغي أن أخرج بسرعة من هنا. هلاّ طلب لي أحدكم سيارة أجرة؟

قال بوارو: بالباب سيارة ستأخذك إلى المحطة يا آنسة.

قالت الآنسة: لقد أعددتَ لكل شيء عدته كما يبدو؟

قال بوارو: نعم، لأغلب الأشياء.

* * *

لم يكن بوارو ليترك الأمور تجري بسهولة، فعندما عاد إلى غرفة الطعام بعد إيصال الآنسة ورتلي المزيفة إلى السيارة كان كولين بانتظاره وقد تقطب وجهه الطفولي وهو يقول: اسمع يا سيد بوارو، ماذا عن الياقوتة؟ أتعني أنك تركته يهرب بها؟

ظهر الامتعاض على وجه بوارو وهو يفتل شاربه مرتبكاً وقال: سأعيدها؛ لدينا وسائل أخرى، وما زال...

مايكل: ولكن... كيف يهرب ذلك المجرم بالياقوتة؟!

صاحت بريجيت بحدة: إنه يخدعنا ثانية! إنك تخدعنا يا سيد بوارو، أليس كذلك؟

بوارو: ما رأيك بخدعة سحرية أخرى يا آنسة؟ ضعي يدك في جيبي الأيسر.

دست بريجيت يدها في الجيب وأخرجتها مع صرخة انتصار رافعةً ياقوتةً ضخمةً تتلألأ بروعة لونها القرمزي.

قال بوارو: هل فهمتِ الآن؟ لقد كانت الياقوتة التي أمسكتِها بيدك نسخة زجاجية لهذه الياقوتة، وقد أحضرتها معي من لندن لعلي أستطيع تبديلها بالياقوتة الحقيقية وذلك تفادياً للفضيحة. سيحاول السيد ديزموند أن يعرض الياقوتة في باريس أو بلجيكا أو حيثما كان المتعاملون معه، وهناك سيدركون بأن الحجر زائف! هل رأيتِ أروع من ذلك؟ لقد انتهى كل شيء على ما يرام، فقد تم تجنب الفضيحة،

وسيستعيد أميرنا ياقوتته ويعود إلى بلاده ليدخل زواجاً رزيناً وسعيداً كما نأمل. إنها النهايات السعيدة للجميع.

تمتمت سارة قائلة: إلاّ لي أنا!

كان صوتها منخفضاً جداً بحيث لم يسمعه أحدٌ إلا بوارو الذي هز رأسه قائلاً: أنت مخطئة فيما قلتِ يا آنستي؛ فقد كسبت التجربة، والتجارب كلها ثمينة. وأنا أشعر أن السعادة تنتظرك في المستقبل.

سارة: هذا ما تشعر به أنت.

كولين: ولكن قل لي يا سيد بوارو، كيف علمت بالمشهد الذي كنا نعده لك؟

قال بوارو وهو يفتل شاربه: إن العلم بالأشياء هو مهنتي.

كولين: نعم، ولكني لا أفهم كيف. هل خان أحدٌ منا ووشى إليك بالأمر؟

بوارو: لا، لا، اطمئن.

كولين: إذن كيف؟ أخبرنا كيف.

وهتف الجميع بصوت واحد: نعم، أخبرنا، كيف؟

احتجَّ بوارو قائلاً: لا، لن أفعل، فلو أخبرتكم كيف استنتجت ذلك فسوف تستخفّون بالأمر؛ كالساحر الذي يُطلع الناس على طريقة أعماله السحرية!

الجميع: أخبرنا يا سيد بوارو، هيا، أخبرنا.

بوارو: هل تريدون فعلاً أن أحل لكم هذا اللغز الأخير؟

الجميع: نعم، هيا، أخبرنا.

بوارو: لا أعتقد أن ذلك ممكن؛ ستصابون بخيبة أمل.

الجميع: ما هذا يا سيد بوارو؟ هيا أخبرنا. كيف علمت بالأمر؟

بوارو: حسناً، لقد كنت في ذلك اليوم جالساً باسترخاء تحت النافذة في المكتبة بعد أن تناولنا الشاي فأخذني النوم، وعندما استيقظت كنتم أنتم تناقشون خطتكم خلف نافذتي تماماً، وكانت النافذة مفتوحة من أعلاها!

هتف كولين بازدراء: أهذا كل شيء؟! يا للبساطة!

فرد بوارو وهو يبتسم: أليس الأمر كذلك؟ ألا ترى؟ لقد أحبطتك.

مايكل: على أية حال نحن نعرف كل شيء الآن.

دمدم بوارو لنفسه: هل نعرف حقاً؟ أما أنا فلا أعرف كل شيء... أنا الذي عمله أن يعرف الأشياء!

قام يمشي في الصالة وهو يهز رأسه قليلاً، ثم سحب من جيبه، ربما للمرة العشرين، ورقة مهترئة وقرأ فيها: «لا تأكلْ شيئاً من كعكة الخوخ... شخصٌ يريد لك الخير».

هز رأسه مرة أخرى. لقد نجح في تفسير كل شيء إلا هذه. مَن الذي كتب هذه الورقة؟ ولماذا كُتبت أصلاً؟ سوف لن ينعم بالراحة أبداً حتى يجد أجوبة لهذه الأسئلة.

كان مستغرقاً في هذه الأفكار عندما قطعها فجأة صوتُ شهقة مكتومة. والتفت بوارو ليجد أمامه خادمة ترتدي ثوباً مزهّراً وتمسك

بيدها ممسحة الغبار، ورآها تحدق بعينين واسعتين إلى الورقة التي أمسكها بيده. وما لبثت الفتاة أن راحت تردد: آه يا سيدي، أرجوك يا سيدي...

سألها بوارو: ومن أنت أيتها الفتاة؟

- اسمي آني بيتس يا سيدي، وأنا هنا لمساعدة السيدة روس. أنا لم أقصد... لم يكن في نيتي أن أعمل شيئاً لا يليق بي أن أعمله. لقد كان قصدي طيباً... أعني لمصلحتك.

خطر ببال بوارو خاطر مفاجئ فسألها وهو يمسك الورقة بيده: أأنتِ مَن كتب هذه الورقة؟

- لم أقصد أي سوء يا سيدي، صدّقْني.

قال بوارو مبتسماً: طبعاً أنت لم تقصدي أي سوء يا آني، ولكن خبّريني عن الأمر. لماذا كتبتِ هذه الورقة؟

- حسناً يا سيدي. لقد كان السبب هو السيد ورتلي وأخته. ولكنها لم تكن أخته في الحقيقة... أنا متأكدة من هذا، بل الجميع هنا كذلك. لم تكن أخته وكل الخدم أحسّوا بهذا... لقد أحسسنا كلنا أن شيئاً غريباً يجري هنا. سأتحدث معك بصراحة يا سيدي؛ لقد كنت في حمام غرفتها أقوم باستبدال المناشف عندما سمعت الحديث من وراء الباب. كان هو في غرفتها وسمعتهما يتحادثان؛ قال لها: "هذا الرجل، رجل التحري الذي سيأتي إلى هنا... علينا أن نتصرف بشأنه... يجب أن نبعده عن الطريق بأسرع وقت ممكن". ثم قال بصوت خافت: "أين وضعتِه؟"، فأجابته قائلة: "في الكعكة". آه يا سيدي! لقد أحسست بأن قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان وأيقنت

أنهما بصدد تسميمك بواسطة كعكة العيد. ولم أدرِ ماذا أفعل؛ فالسيدة روس ما كانت لتستمع إلى ما يقوله أمثالي. ثم جاءتني الفكرة بأن أكتب لك تحذيراً، فكتبت هذه الورقة ووضعتها على وسادتك حيث يمكن أن تراها عندما تذهب إلى النوم.

توقفت آني وقد تقطعت أنفاسها، وتفحصها بوارو لبعض الوقت قبل أن يقول: لعلك تشاهدين كثيراً من أفلام الإثارة يا آني. ولكن المهم -على أية حال- أن لديك قلباً طيباً وشيئاً من الإبداع. سأتذكر أن أرسل لك هدية عندما أعود إلى لندن.

- لك الشكر يا سيدي، لك الشكر الجزيل.

- ماذا تفضلين على سبيل الهدية يا آني؟

- أي شيء أحبه؟ هل يمكنني أن أحصل على أي شيء؟

- في حدود المعقول بالطبع، نعم.

- آه، شكراً يا سيدي. هل يمكنني الحصول على صندوق زينة كذلك الذي كانت تملكه أخت السيد ورتلي... أعني التي كانت تدّعي أنها أخته؟

قال بوارو: "نعم؛ أحسب أن هذا أمر يمكن تدبيره"، ثم تمتم بصوت خافت: يا للغرابة! لقد كنت منذ أيام في متحف أتفحص بعض الآثار التي تعود إلى المجتمع البابلي (أو أحد المجتمعات القريبة منه منذ بضعة آلاف من السنين) ورأيت بينها صناديق لزينة النساء. يبدو أن قلب المرأة لا يتغير أبداً!

- أرجو المعذرة يا سيدي، هل قلتَ شيئاً؟

- لا؛ لا تهتمي. سوف تنالين صندوق الزينة الذي تريدين يا بنيتي.

- شكراً، شكراً جزيلاً يا سيدي.

غادرت آني المكان ونظر إليها بوارو وهو يهز رأسه باستحسان، ثم قال لنفسه: والآن، لأذهب؛ فلم يبقَ ما يمكن أن أفعله في هذا المكان.

* * *

لغز الصندوق الإسباني

-١-

دخل هيركيول بوارو الغرفة الصغيرة في وقته المعتاد ليجد سكرتيرته القديرة الآنسة ليمون تنتظر تعليمات اليوم. كانت الآنسة ليمون آلة بشرية، آلة للدقة والضبط ذات كفاءة عالية، وكانت في الثامنة والأربعين من عمرها، ولا تتمتع -لحسن حظها- بأي خيال.

قال بوارو: صباح الخير يا آنسة ليمون.

- صباح الخير يا سيد بوارو.

جلس بوارو، فيما وضعت الآنسة ليمون أمامه بريد الصباح مرتباً ومصنفاً، ثم عادت فجلست مكانها وهي تحمل دفتراً وقلماً استعداداً للتعليمات. ولكن حصل تغيّر في الروتين هذا الصباح، فقد أحضر بوارو معه صحيفة الصباح وكانت عيناه تتصفحانها باهتمام. كانت العناوين كبيرة واضحة: «لغز الصندوق الإسباني، آخر التطورات».

سألها بوارو: هل قرأت صحف الصباح يا آنسة ليمون؟

- نعم يا سيد بوارو، إن أنباء جنيف غير مشجعة.

استبعد بوارو أنباء جنيف بحركة من ذراعه وقال بتأمل: صندوق إسباني، هل تستطيعين أن تخبريني ما هو بالضبط الصندوق الإسباني يا آنسة ليمون؟

- أظن أنه صندوق جيء به من إسبانيا يا سيد بوارو.

- هذا معقول، ولكن أليس لديك معرفة تفصيلية به؟

- أظن أن هذه الصناديق تعود إلى العصر الإليزابيثي، وهي ضخمة ومزيَّنة بالنقوش النحاسية، لكنها صناديق جميلة إذا ما تمت العناية بها وتلميعها. لقد اشترت أختي واحداً من تلك الصناديق في مناسبة تنزيلات وهي تضع فيه أغطية المنزل، إنه جميل الشكل.

انحنى بوارو بلباقة قائلاً: أنا واثق من أن منزل أيّ من أخواتك سيكون أثاثه محفوظاً بعناية تامة.

أجابته الآنسة ليمون حزينة بأن الخدم لا يعرفون شحم المرفق في هذه الأيام. وبدا بوارو متحيراً، ولكنه قرر أن لا يسألها عن المعنى الضمني لهذا التعبير الغامض: «شحم المرفق». لقد كان ذلك تعبيراً إنكليزياً عامياً يُقصَد به «العمل الشاق»، لكن بوارو البلجيكي ما كان ليفطن إلى هذا المعنى بالتأكيد.

عاد بوارو إلى الصحيفة متأملاً الأسماء: الرائد ريتش، السيد والسيدة كلايتون، القائد مكلارين، السيد والسيدة سبينس... كانت بالنسبة إليه مجرد أسماء، ومع ذلك فقد كان لهؤلاء شخصياتهم الإنسانية، كرههم وحبهم ومخاوفهم. كانت تلك دراما لا يشارك فيها هيركيول بوارو، لكنه كان توّاقاً إلى لعب دور فيها! في حفل ساهر، في غرفة يجثم قرب أحد جدرانها صندوق إسباني ضخم،

ستة أشخاص؛ خمسة منهم يتحدثون ويتناولون عشاءهم ويستمعون إلى الأسطوانات، والسادس ميت في الصندوق الإسباني!

فكّر بوارو: كم كان صديقي العزيز هيستنغز سيستمتع بمثل هذه القصة! كم كان سيحلّق بخياله الرومَنسي فيها وكم من سخافة كان سيرددها! آه، هيستنغز العزيز! في هذه اللحظة، اليوم، أنا أفتقده، فبدلاً منه...

تنهد ونظر إلى الآنسة ليمون التي أدركت بذكائها أن بوارو ليس في مزاج يسمح له بإملاء الرسائل، فرفعت الغطاء عن الآلة الطابعة بانتظار البدء بإنجاز ما لم يُنجَز من الأعمال. لقد كانت الصناديق الإسبانية المشؤومة التي تحوي جثث الموتى آخر ما يمكن أن يجذب اهتمامها.

تنهد بوارو ونظر إلى الوجه المصوَّر في الصحيفة. لم تكن عملية إعادة طبع الصورة على ورق الصحيفة موفَّقة، فقد بدت الصورة ضبابية. ولكن يا له من وجه! السيدة كلايتون، زوجة القتيل.

ألقى بالجريدة فجأة إلى الآنسة ليمون متسائلاً: انظري إلى هذا الوجه.

نظرت الآنسة ليمون إلى الوجه دون إبداء أية مشاعر.

- ما رأيك فيها يا آنسة ليمون؟ إنها السيدة كلايتون.

أخذت الآنسة ليمون الصحيفة ونظرت إلى الصورة دون اهتمام ثم قالت: إنها تشبه قليلاً زوجة مدير المصرف في منطقة كرويدون هيث حيث كنا نسكن.

- هذا أمر مثير. هل لك أن تتلطفي وتسردي لي قصة زوجة مدير مصرفكم.

- حسناً، إنها ليست قصة سارة يا سيد بوارو.

- لقد خطر لي أنها غير سارة فعلاً. استمري.

- كان يدور كثير من اللغط حول السيدة آدامز وفنّان شاب، مما دفع السيد آدامز إلى إطلاق النار على نفسه. ومع ذلك فإن السيدة آدامز لم تقبل الزواج بالشاب مما جعله يتناول سماً ما، ولكن تم إنقاذه من الموت، وأخيراً تزوجت السيدة آدامز محامياً شاباً. وأظن أن مزيداً من المشكلات قد وقع بعد ذلك، ولكننا كنا قد تركنا كرويدون هيث وقتها فلم أعد أسمع الكثير عن المرأة.

هزّ بوارو رأسه باهتمام قائلاً: هل كانت جميلة؟

- حسناً، لم تكن من النوع الذي يمكن وصفه بالجمال، ولكن يبدو أنها كانت ذات تأثير خاص.

- ما هو بالضبط ذلك الشيء الذي تمتلكه ساحرات هذا العالم، مثل هيلين طروادة وكليوباترا؟

أدخلت الآنسة ليمون ورقة في آلة الطباعة بشيء من الحدة قائلةً: الحقيقة أنني لم أفكر في هذا الأمر يا سيد بوارو، فالمسألة تبدو سخيفة في نظري. ولو أن الناس انصرفوا إلى أعمالهم وتركوا التفكير بمثل هذه الأمور لكان خيراً لهم.

وهكذا رمت الآنسة ليمون عن كاهلها الضعف والعاطفة الإنسانيين، وتركت أصابعها تحوم حول مفاتيح آلة الطباعة متشوّقة إلى اللحظة التي تبدأ فيها عملها.

قال بوارو: هذا رأيك إذن؟ وأنت الآن ترغبين أن أتركك تقومين بعملك. لكن عملك -يا آنسة ليمون- لا يقتصر على تسجيل ما أمليه عليك وترتيب أوراقي والردّ على مكالماتي الهاتفية وطباعة رسائلي... إنك تؤدّين ذلك كله بشكل رائع، لكن أنا لا أتعامل مع الوثائق فحسب، بل مع البشر. وأنا أحتاج إلى مساعدتك في هذا الحقل أيضاً.

قالت الآنسة ليمون بصبر: حاضر يا سيد بوارو، ما الذي تريدني أن أفعله؟

- هذه القضية تثير اهتمامي، وسأكون سعيداً لو أعددت لي دراسة عن تقارير صحف الصباح بشأن الموضوع، وأية تقارير إضافية في صحف المساء... أعدّي لي ملخصاً عن الحقائق.

- حسناً يا سيد بوارو.

انسحب بوارو إلى غرفة جلوسه وعلى وجهه ابتسامة كئيبة، ثم أخذ يحدث نفسه: إنه لمن السخرية فعلاً أن تعمل عندي الآنسة ليمون بعد صديقي العزيز هيستنغز. أي تناقض بين الاثنين! كم كان عزيزي هيستنغز سيجد من المتعة في مثل هذه القضية. لقد كان حريّاً أن يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يتحدث عنها واضعاً حول كل حدث من أحداثها أكثر الافتراضات رومَنسية، مصدّقاً كل ما تكتبه الصحف عنها كحقائق منزَّلة! أما هذه المسكينة ليمون، فحتى القليل الذي طلبته منها لم تجده ممتعاً أبداً.

جاءته الآنسة ليمون بعد بعض الوقت بورقة مطبوعة قائلة: هذه هي المعلومات التي طلبتها يا سيد بوارو، ولو أنني أخشى أن لا تكون موثوقة لأن الصحف تختلف كثيراً في تغطيتها للحدث، ولعلّي لا أضمن أن تكون المعلومات الواردة دقيقة بأكثر من ستين بالمئة.

تمتم بوارو قائلاً: ربما كانت تقديراتك محافظة، ولكن شكراً على ما تجشمت من عناء.

كانت الحقائق مثيرة ولكنها واضحة بما فيه الكفاية، فقد دعا الرائد تشارلز ريتش (الأعزب ميسور الحال) بعض أصدقائه إلى حفلة ساهرة في شقته، وكان هؤلاء الأصدقاء هم: السيد والسيدة كلايتون، والسيد والسيدة سبينس، والقائد مكلارين. وكان القائد مكلارين صديقاً قديماً لريتش ولعائلة كلايتون أيضاً، بينما كان السيد والسيدة سبينس الشابان مجرد صديقين حديثين. أما أعمالهم: فقد كان آرنولد كلايتون يعمل في وزارة المالية، بينما يعمل جيريمي سبينس موظفاً عادياً، وكان الرائد ريتش في الثامنة والأربعين، وآرنولد كلايتون في الخامسة والخمسين، والقائد مكلارين في السادسة والأربعين، وجيريمي سبينس في السابعة والثلاثين. وقد قيل عن السيدة كلايتون إنها أصغر من زوجها ببضع سنوات. شخص واحد من هؤلاء لم يستطيع حضور الحفلة، ففي اللحظة الأخيرة تم استدعاء السيد كلايتون إلى إسكتلندا في عمل طارئ، وكان يفترض أن يغادر محطة كينغز كروس في قطار الساعة الثامنة والربع.

مضت الحفلة كما تمضي مثيلاتها، حيث بدا الجميع سعداء يتمتعون بوقتهم، ولم يكن ثمة صخب ولا شراب. انتهت الحفلة في الساعة الثانية عشرة إلاّ ربعاً تقريباً، حيث غادر الضيوف الأربعة معاً واشتركوا في سيارة أجرة في طريق عودتهم. نزل القائد مكلارين أولاً عند النادي، ثم نزلت السيدة مارغريتا كلايتون عند شارع كارديغان غاردنز المتفرع من شارع سلون، وواصل السيد والسيدة سبينس طريقهما إلى بيتهما في تشيلسي.

الاكتشاف الرهيب تم في صبيحة اليوم التالي على يد خادم الرائد ريتش، المدعو وليام بيرجس، الذي لم يكن خادماً مقيماً. فقد وصل بيرجس مبكراً لتنظيف غرف الجلوس قبل أن يُحضر للرائد ريتش شاي الصباح، وفي أثناء التنظيف فوجئ ببقعة كبيرة لوّثت السجادة فاتحة اللون حيث يقع الصندوق الإسباني. وبدا أن هذه البقعة قد تسربت من الصندوق، فرفع الخادم غطاءه ونظر فيه ليُروَّع بالعثور على جثة السيد كلايتون مطعونة في العنق. واستجاب بيرجس لأول فكرة خطرت له فهرع إلى الشارع وأحضر أول شرطي رآه.

كان تلك هي الحقائق البسيطة للقضية، غير أنه كانت هناك تفصيلات أخرى. فقد أبلغ الشرطة النبأ فوراً للسيدة كلايتون التي انهارت تماماً. كانت قد رأت زوجها للمرة الأخيرة بعد الساعة السادسة بقليل في مساء اليوم السابق، حيث جاء منزعجاً لاستدعائه إلى إسكتلندا في عمل طارئ يخص بعض ممتلكاته هناك. وقد حثّ زوجته على حضور الحفلة بدونه، ثم ذهب إلى النادي الذي يضمه والقائد مكلارين حيث شرب الشاي مع صديقه وشرح له الأمر، ثم قال وهو ينظر إلى ساعته إنه لا يملك من الوقت قبل التوجه إلى محطة كينغز كروس إلا ما يسمح له بالمرور على الرائد ريتش لشرح موقفه، وقال إنه حاول أن يتصل به ولكن الهاتف كان متوقفاً عن العمل كما يبدو.

وطبقاً لما قاله وليام بيرجس فإن السيد كلايتون وصل إلى شقة مخدومه في نحو الثامنة إلاّ خمس دقائق، ولم يكن الرائد ريتش موجوداً وقتها لكنه كان على وشك العودة، مما جعل بيرجس يقترح على السيد كلايتون الدخول لانتظاره. وقد قال كلايتون إن وقته ضيق ولكنه سيدخل لكتابة ملاحظة، موضّحاً أنه في طريقه لركوب قطار من محطة كينغز كروس. أدخله الخادم إلى غرفة الجلوس وعاد هو إلى

المطبخ حيث كان مشغولاً بتحضير رقائق الخبز المحمص للحفلة.

ولم يسمع الخادم صوت عودة سيده الرائد ريتش، ولكن ريتش أطلّ على المطبخ بعد نحو عشر دقائق وطلب من بيرجس أن يسرع في الخروج لشراء بعض السجائر التركية التي يفضل السيد سبينس تدخينها. ونفذ الخادم ذلك، وقد اعتقد طبعاً أن كلايتون غادر ليلحق بقطاره.

أما رواية الرائد ريتش للأحداث فقد كانت قصيرة وبسيطة. فالسيد كلايتون لم يكن في الشقة عندما عاد هو إليها، بل هو لم يعرف أن كلايتون حضر إلى الشقة. كما قال إنه لم يترك له أية ملاحظة، وأنه لم يسمع برحلة كلايتون إلى إسكتلندا إلاّ عندما وصلت السيدة كلايتون والآخرون.

كان في صحف المساء معلومتان إضافيتان، فالسيدة كلايتون التي انهارت من هول الصدمة تركت شقتها في كارديغان غاردنز، ويُظَن أنها ذهبت لتقيم مع أصدقاء لها. أما المعلومة الثانية فقد وردت في زاوية آخر الأخبار، ومفادها أن الرائد تشارلز ريتش قد اتُّهم بقتل آرنولد كلايتون وتم اعتقاله.

قال بوارو وقد رفع عينيه إلى الآنسة ليمون: هكذا إذن؟ لقد كان اعتقال الرائد ريتش متوقَّعاً. ولكن يا لها من قضية رائعة، رائعة جداً! ماذا ترين يا آنسة ليمون؟

قالت الآنسة ليمون بغير اهتمام: تحدث أمور كثيرة كهذه يا سيد بوارو.

- بالتأكيد، تحدث يومياً أو تكاد، ولكنها تكون مفهومة تماماً في العادة... رغم ما تثيره من أسى.

- إنها مسألة بغيضة بالتأكيد.

- إنها بغيضة، بل بغيضة جداً بالنسبة للضحية؛ أن يُطعَن حتى الموت ويُحشَر في صندوق إسباني. ولكنني عندما قلت إنها قضية رائعة أردت أن أشير إلى التصرف المثير للرائد ريتش.

قالت الآنسة ليمون بشيء من النفور: لقد ورد تلميح إلى أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون كانا صديقين حميمين... ولكنه كان تلميحاً فقط لا حقيقة ثابتة، ولذلك فإنني لم أضمّنه في التقرير.

قال بوارو: كان هذا تصرفاً صحيحاً منك، ولو أنه استنتاج سرعان ما يقفز إلى الذهن. أهذا كل ما لديك؟

وقفت الآنسة ليمون خالية الذهن، فتنهد بوارو وقد افتقد الخيال الخصب الزاهي الذي كان صديقه هيستنغز يتمتع به. لقد كان بحث القضية مع الآنسة ليمون عملاً عسيراً.

قال بوارو: لنتمعن قليلاً في الرائد ريتش هذا. إنه يحب السيدة كلايتون... حسناً، لنفترض ذلك. وهو يريد أن يتخلص من زوجها... سنفترض ذلك أيضاً. ولكن إذا كانت السيدة كلايتون تبادله العواطف وهما متحابّان كلاهما فلِمَ العجلة؟ ربما كان السيد كلايتون يرفض طلاق زوجته؟ ليس هذا ما أثار اهتمامي بل الرائد ريتش نفسه؛ إنه جندي متقاعد، ويُقال أحياناً إن الجنود ليسوا أذكياء، ولكن حتى إن لم يكن بالغ الذكاء فهل يمكن للرائد ريتش هذا أن يكون معتوهاً تماماً؟

لم تجب الآنسة ليمون عن هذا السؤال، وكأنها اعتبرته مجرد سؤال بلاغي للتعجب، فسألها بوارو: حسناً، ما رأيك أنت في القضية كلها؟

جفلت الآنسة ليمون من السؤال وقالت: رأيي أنا؟!

- نعم؛ أنت.

كيّفت الآنسة ليمون عقلها لمواجهة العبء الذي أُلقي عليه، فهي لم تكن ميّالة إلى أيّ نوع من أنواع التأمل العقلي إلا إذا طُلب منها ذلك. كان عقلها مزدحماً في أوقات فراغها بتفصيلات ابتداع نظام كامل وممتاز لحفظ الملفات؛ فقد كان هذا هو المجال الوحيد لإبداعها وتفوقها العقلي.

بعد ذلك بدأت تحليلها للأمر، قالت: حسناً...

ثم توقفت، فقال بوارو: أخبريني فقط بما تتصورين أنه قد حصل في تلك الأمسية. السيد كلايتون في غرفة الجلوس يكتب ملاحظة، ويعود الرائد ريتش... ماذا حدث بعد ذلك؟

- وجد السيد كلايتون هناك، ثم... لعلهما قد تشاجرا فطعنه الرائد ريتش، ثم أدرك حقيقة ما فعله فوضع الجثة في الصندوق، إذ كان الضيوف على وشك الوصول على ما أظن.

- نعم، نعم؛ وصل الضيوف، الجثة في الصندوق، انتهت الحفلة وغادر الضيوف... وبعدها؟

- حسناً، بعدها: أظن أن الرائد ريتش أوى إلى فراشه... آه!

- آه، هل فهمتِ الآن؟ تقتلين رجلاً وتخفين جثته في صندوق، ثم تذهبين بعد ذلك إلى فراشك باطمئنان دون أي قلق من أنّ خادمك سوف يكتشف الجريمة في الصباح؟

- ربما كان من غير المحتمل أن ينظر الخادم في الصندوق.

- رغم تلك البركة الكبيرة من الدماء على السجادة تحت الصندوق؟

- ربما لم يدرك الرائد ريتش وجود بقعة الدم هناك.

- ألم يكن إهمالاً منه أن لا ينظر ويرى؟

- ربما كان مضطرباً.

رفع بوارو يديه يأساً من هذا الحوار، فاغتنمت الآنسة ليمون الفرصة وأسرعت خارجة من الغرفة.

-٢-

لم يكن لغز الصندوق الإسباني هو قضية بوارو؛ فقد كان مشغولاً حينذاك بمهمة حساسة لإحدى شركات النفط الكبرى يُحتمل أن يكون أحد مسؤوليها الكبار متورطاً في بعض الصفقات المشبوهة. كانت قضية سرية وخطيرة ومربحة تماماً، قضية متشابكة جداً بما يتطلب كل ما لدى بوارو من انتباه، وكانت ميزتها العظيمة أنها لا تتطلب جهداً عضلياً أو جسمياً.

أما لغز الصندوق الإسباني فقد كان مثيراً وعاطفياً، وهما ميزتان طالما قال بوارو إنهما قابلتان للمبالغة، وكان غالباً ما يبالغ فيهما بالفعل. وقد كان بوارو قاسياً على صديقه العزيز هيستنغر في هذه النقطة، ولكن ها هو الآن يتصرف كما كان صديقه سيتصرف، مأخوذاً بالنساء الفاتنات وجرائم الحب والغيرة والكراهية، وكل الأسباب الرومنسية الأخرى التي تدفع إلى القتل!

وجد نفسه راغباً في معرفة كل شيء عن هذا اللغز؛ يريد أن يعرف شكل الرائد ريتش، وشكل خادمه بيرجس، وشكل مارغريتا كلايتون... مع أنه اعتقد أن شخصية الضحية كانت ذات الأهمية الكبرى في قضايا

القتل. كما تمنى أن يعرف أشكال القائد مكلارين الصديق المخلص، والسيد والسيدة سبينس اللذين تعرفت المجموعة بهما مؤخراً.

ولم يعرف بوارو كيف سيرضي فضوله! فكّرَ في القضية في وقت متأخر من ذلك اليوم: لماذا أسرته القضية إلى هذا الحد؟ قرر بعد تفكير أن السبب هو أنها -كما رُويت وقائعها- كانت عَصِيّة على الفهم! نعم، كان فيها نكهة لبناء هندسي محكَم.

ولو ابتدأ المرء بالحقائق التي يمكن قَبولها لافترض حدوث مشاجرة بين رجلين ربما كان سببها امرأة، وربما قتل أحدُ هذين الرجلين الآخرَ في ثورة غضب. نعم، يمكن لهذا أن يحدث... لنقل إن العاشق قتل الزوج بطعنه بالخنجر (مع أن العكس هو الذي يحدث عادة)! لكن الخنجر لا يبدو سلاحاً معقولاً في مثل هذه القضية، فهل كان للرائد ريتش أم إيطالية؟ لا بد من وجود سبب يفسر اختيار الخنجر كسلاح... لعله كان في متناول اليد مثلاً؟ وقد استخدمت بعض الصحف كلمة «مدية إيطالية صغيرة» بدلاً من «خنجر».

أما الجثة فقد أخفيت في الصندوق، وهذا معقول، بل إنه محتَّم. فإذا افترضنا أن الجريمة كانت دون سابق تصور وتصميم، وأن الخادم كان على وشك العودة، وأن أربعة ضيوف كانوا أيضاً على وشك الوصول... إذا افترضنا هذا كله لكان وضعُ الجثة في الصندوق هو الخيار الوحيد الذي فرضته الظروف.

حسناً، انتهت الحفلة وانفضّ المدعوون، وغادر الخادم أيضاً... كيف يأوي الرائد ريتش إلى سريره؟ لا بد من رؤية الرائد ريتش واكتشاف حقيقة الرجل الذي يتصرف بهذه الطريقة إذا ما أراد المرء أن يفهم كيفية حدوث ذلك.

هل يمكن مثلاً أن يكون الرائد ريتش (وقد غلبه الرعب مما فعله وسيطر عليه التوتر طوال الأمسية وهو يحاول أن يُظهر نفسه على طبيعته) قد تناول نوعاً من الحبوب المنوّمة أو المهدئة مما أدخله في سبات عميق جعله ينام أطول من عادته بكثير؟ هذا ممكن. أم كانت تلك مسألة نفسية، حيث يكون الشعور اللاواعي بالذنب لدى الرائد ريتش قد جعله يريد للجريمة أن تُكتَشف؟ حتى يقرر المرء ذلك لا بد له من رؤية الرائد ريتش. كلما أمعن المرء في التحليل عاد ثانية إلى...

رنّ جرس الهاتف، وتركه بوارو يرنّ بضع دقائق حتى أدرك أن الآنسة ليمون قد غادرت منذ مدة بعد أن أعطته الرسائل ليوقعها وأن جورج ربما كان في الخارج.

رفع السماعة فسمع الطرف الآخر يسأل: السيد بوارو؟

- يتكلم.

- يا للروعة! أنا آبي تشاترتون.

لمعَت عينا بوارو لحماسة الصوت الأنثوي الساحر وقال: آه، ليدي تشاترتون. كيف لي أن أخدمك يا سيدتي؟

- بحضورك فوراً وبسرعة إلى الحفلة الفظيعة التي أقيمها هنا في بيتي. ليس من أجل الحفلة تحديداً، بل لأمر مختلف تماماً في الواقع. إنني في أمسّ الحاجة إليك لأمر فائق الأهمية. وأرجوك، أرجوك، أرجوك أن لا تخيب أملي وأن لا تعتذر عن القدوم.

لم يكن في نية بوارو أن يقدم أي اعتذار. كان اللورد تشاترتون واحداً من أمراء المملكة المتحدة، وكان يلقي أحياناً خطباً مملة جداً في مجلس اللوردات، ولكنه لم يكن -باستثناء ذلك- سوى نكرة.

أما الليدي تشاترتون فقد كانت أفعالها وكلماتها تحتل صفحات الصحف، وكانت ذات عقل وجمال وأصالة، وكان فيها من الحيوية ما يكفي لإطلاق صاروخ إلى القمر.

كررت القول: أنا بحاجة إليك، فافتل شاربك الرائع وتعال!

* * *

عندما وصل بوارو إلى بيت الليدي تشاترتون الرائع في شارع تشيريتون كان بابه مفتوحاً جزئياً، وكانت الضجة المنطلقة منه تشبه ضجة حيوانات تقوم باعتصام في حديقة الحيوان.

كانت الليدي تشاترتون تستضيف سفيرين ورياضياً دولياً ودبلوماسياً أمريكياً، وما إن رأت بوارو حتى تملصت منهم بخفة الساحر وبراعته وأسرعت إليه قائلة: السيد بوارو، كم أنا سعيدة برؤيتك!

قادته على الدرج وهو يتبعها، ثم توقفت لتلتفت إليه قائلة: لم أتملص من أولئك الناس بهذه الطريقة إلاّ لأن من الضروري جداً أن لا يعرف أحد منهم أن أمراً معيناً يجري هنا، وقد وعدت الخدم بمكافآت ضخمة إذا لم يسرّبوا النبأ؛ فما من أحد يرغب في رؤية بيته محاصَراً بالصحفيين، وهذه المسكينة الغالية يكفيها ما مرّ بها حتى الآن.

لم تتوقف الليدي تشاترتون في الطابق الأول، بل واصلت صعودها إلى الطابق الثاني، وتبعها بوارو بشيء من الذهول وهو يلهث. وأخيراً توقفت وألقت نظرة سريعة على الطابق السفلي، ثم فتحت باباً وهي تهتف: لقد حصلنا عليه يا مارغريتا؛ لقد أحضرته... ها هو!

ثم وقفت جانباً وعلى وجهها علامات الانتصار لتدع بوارو

يدخل قبل أن تقوم بتعريف سريع: أقدم لك مارغريتا كلايتون. إنها صديقتي العزيزة جداً جداً، وأنت ستساعدها، أليس كذلك؟ ... مارغريتا، أقدم لك هيركيول بوارو الرائع. إنه سيقوم بكل ما تريدينه منه، أليس كذلك يا عزيزي بوارو؟

ثم تابعت بسرعة: "ينبغي أن أعود إلى ضيوفي"، وخرجت دون أن تنتظر جواباً من بوارو على سؤالها معتبِرةً موافقته أمراً مفروغاً منه.

نهضت المرأة التي كانت تجلس على كرسي قرب النافذة وتقدمت منه. وقد كان بوسعه أن يميزها حتى لو لم تذكر الليدي تشاترتون اسمها؛ فها هو ذلك الحاجب العريض، العريض جداً، والشعر الأسود ينفر منه كالأجنحة، وها هما العينان الرماديتان المتباعدتان. كانت ترتدي ثوباً عالي الياقة أسود اللون، وكان وجهها غريباً أكثر منه جميلاً، كان في سيماها نوع من بساطة العصور الوسطى، من البراءة الغريبة التي يمكن أن تكون (كما خطر لبوارو) أكثر قدرة على التدمير من أي شكل متكلِّف مصنوع. وكان في صوتها عندما تكلمت إخلاص طفولي: لقد قالت آبي إنك ستساعدني...

ثم نظرت إليه باهتمام واستفهام. أما هو فقد وقف صامتاً لفترة يمعن النظر إلى المرأة، ولكن دون أن يكون في طريقته أي معنى لسوء التهذيب، فقد كانت نظرته نظرة أخصائي شهير إلى مريض جديد. ثم قال أخيراً: هل أنتِ واثقة من أنني أستطيع مساعدتك يا سيدتي؟

تورّد خداها قليلاً وقالت: لا أعرف ما الذي تعنيه.

- ما الذي تريدين مني أن أفعله يا سيدتي؟

بدت مدهوشة وهي تجيب: آه، ظننت أنك تعرفني.

- نعم، أعرفك؛ لقد قُتِل زوجك طعناً واعُتقِل الرائد ريتش متّهمَاً بقتله.

اشتد تورد الخدين، وقالت: الرائد ريتش لم يقتل زوجي.

قال بوارو بسرعة البرق: ولِمَ لا؟

حدقت إليه مذهولة وقالت: عفواً... لم أفهمك.

- لقد أربكتُكِ لأنني لم أسأل السؤال التقليدي الذي يطرحه الجميع، وهو: لماذا يقتل الرائدُ ريتش آرنولد كلايتون؟ ولكني طرحت السؤال المعاكس. وأنا أسألك يا سيدتي: لماذا أنت واثقة من أن الرائد ريتش لم يقتله؟

- لأنني..

وتوقفت للحظة، فقال: لأنك تعرفين الرائد ريتش حق المعرفة.

سكت قليلاً ثم قال بحدة: إلى أي مدى؟

لم يستطع أن يتبين فيما إذا كانت قد فهمت معنى سؤاله، فقال في نفسه: إما أن تكون هذه المرأة على جانب كبير من السذاجة أو على جانب كبير من الدهاء، ويبدو أن كثيراً من الناس قد وقعوا في هذه الحيرة تجاه مارغريتا كلايتون.

قالت وهي تنظر إليه بريبة: إلى أي مدى؟ خمس سنوات، بل ست سنوات تقريباً.

- ليس هذا ما قصدته بالضبط. ينبغي عليك أن تفهمي يا سيدتي أنني سأضطر إلى توجيه أسئلة خارج الموضوع. وربما قلتِ الحقيقة

وربما كذبتِ، فأحياناً يكون من الضروري للمرأة أن تكذب؛ على النساء أن يحمين أنفسهن، ويمكن للكذبة عندها أن تكون سلاحاً جيداً. ولكن ينبغي أن تخبريني بالحقيقة إذا كنت تثقين بي، فهل تثقين بي يا سيدتي؟

سحبت مارغريتا كلايتون نفساً عميقاً وقالت: "نعم، أثق بك"، ثم أضافت: ليس لي خيار آخر.

- جيد، إذن ما الذي تريدينني أن أفعله؟ أن أعرف قاتل زوجك؟

- نعم.

- ولكن هذا ليس بالأمر الجوهري! أنت تريدين أن أثبت براءة الرائد ريتش، أليس كذلك؟

أومأت فوراً بالإيجاب قائلة: بلى، هذا... وهذا فقط.

لقد كان واضحاً أنه لا حاجة إلى ذلك السؤال، فقد كانت مارغريتا كلايتون امرأة لا ترى أمامها إلا الأمر الذي تريده في وقت معين.

- والآن نبدأ بالأسئلة المحرجة الخارجة عن الموضوع: هل كنتما أنت والرائد ريتش متحابّين؟

- أتعني أنه كان بيننا علاقة غرامية؟ لا.

- ولكنه كان يحبك؟

- نعم.

- وكنت أنت تحبينه؟

- أظن ذلك.

- يبدو أنك غير متأكدة؟

- بل إنني متأكدة... الآن.

- آه! إذن فأنت لم تحبي زوجك؟

- نعم، لم أحبه.

- إنك تجيبين ببساطة تستحق الإعجاب، فمعظم النساء يملن إلى التطويل في شرح حقيقة مشاعرهنّ بتفصيل دقيق. كم مضى على زواجكما؟

- إحدى عشرة سنة.

- هل يمكنك أن تحدثيني قليلاً عن زوجك، من أي نوع من الرجال كان؟

قطبت جبينها ثم قالت: في هذا الأمر بعض الصعوبة؛ فأنا لا أدري بالفعل إلى أي نوع من الرجال كان آرنولد ينتمي. لقد كان هادئاً جداً ومتحفّظاً جداً، فلم يكن بوسع أحد أن يعرف في أي شيء يفكر. كان ذكياً طبعاً وكان... لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك؛ فهو لم يُظهر كوامِنَ نفسه على الإطلاق.

- هل كان يحبك؟

- آه، نعم، لا بد أنه كان يحبني، وإلا لما اهتم كثيراً...

توقفت فجأة، فسألها بوارو: بالرجال الآخرين؟ أهذا ما كنت تريدين قوله؟ هل كان غيوراً؟

قالت: "لا بد أنه كان كذلك". ثم مضت قائلة وكأنها أحسّت بأن عبارتها تحتاج إلى شرح: أحياناً كان يمكث عدة أيام دون أن يتكلم...

أومأ بوارو برأسه متأملاً وقال: هذا العنف... الذي دخل حياتك. هل هو أول حادث عنف تشهدينه؟

- "عنف؟!"... عبست، ثم احمرّت وجنتاها وقالت: هل هو... هل تعني... ذلك الفتى المسكين الذي أطلق النار على نفسه؟

- نعم، هذا ما قصدته.

- لم أعرف أن لديه ذلك الشعور. لقد حزنت من أجله... كان يبدو خجولاً جداً ووحيداً. لا بد أنه كان مضطرباً عصبياً. كما عرفت ذات مرة رجلين إيطاليين وكانت هنالك مبارزة... كان ذلك سخيفاً، ولكن لم يُقتَل أحدٌ والحمد لله... وبصراحة لم أكن أهتمّ بأي منهما، بل إنني لم أتظاهر بالاهتمام بأي منهما أبداً.

- نعم، لكنك كنت -ببساطة- موجودة؛ وحيث توجدين تحدث الأشياء! لقد رأيت ذلك من قبل، فالرجال يصيبهم الجنون لأنك لا تهتمين. ولكنك تهتمين الآن بالرائد ريتش، وبالتالي فعلينا أن نعمل ما بوسعنا.

صمت لدقيقة أو دقيقتين، وجلست هناك تراقبه باهتمام.

- حسناً، لننتقل من الشخصيات (التي غالباً ما تكون أهمّ ما في الأمر) إلى الحقائق المجردة. أنا لا أعرف من تلك الحقائق إلاّ ما نشرته الصحف، فإذا اعتمدنا على ما نُشر نقول إن شخصين اثنين فقط سنحت لهما فرصة قتل زوجك. أحد شخصين يمكن أن يكون قد قتله: الرائد ريتش أو خادمه.

قالت بعناد: أنا أعرف أن تشارلز لم يقتله.

- إذن فينبغي أن يكون الخادم هو القاتل، هل توافقين؟

قالت في شك: أدرك ما تعنيه.

- ولكنك مرتابة تجاهه؟

- إنه يبدو مجرد احتمال خيالي!

- ومع ذلك فإن الإمكانية قائمة، فممّا لا يتطرق الشك إليه أن زوجك قد جاء إلى الشقة لأن جثته وُجِدت هناك. فإذا كانت قصة الخادم صحيحة فإن الرائد ريتش هو الذي قتل زوجك، ولكن ماذا لو كانت قصة الخادم مزيفة؟ إذن يكون الخادم هو الذي قتله وأخفى الجثة في الصندوق قبل عودة سيده، وتكون تلك -من وجهة نظره- طريقة ممتازة للتخلص من الجثة، حيث لا يتبقى عليه إلاّ أن يلاحظ بقعة الدم صباح اليوم التالي ويكتشف الجثة، وسوف تحوم الشبهات فوراً حول ريتش.

- ولكن لماذا يقتل هذا الخادمُ زوجي؟

- آه، لماذا؟ لا يمكن أن يكون الدافع واضحاً، وإلا لكان الشرطة قد حققوا فيه. ربما علم زوجك شيئاً يضرّ بالخادم وأمانته وكان على وشك إخبار الرائد ريتش بالحقيقة. هل سبق لزوجك أن أخبرك بأي شيء عن هذا الرجل بيرجس؟

هزت رأسها بالنفي.

- هل تعتقدين أن زوجك كان سيخبرك لو أنه عرف شيئاً عن الخادم؟

قطبت حاجبيها وقالت: من الصعب أن أعرف. ربما لم يكن ليخبرني؛ فهو لا يتكلم كثيراً عن الناس، وقد أخبرتك أنه كان متحفظاً. إنه لم يكن ثرثاراً أبداً.

- كان رجلاً كَتوماً... نعم، والآن ما رأيك أنت في بيرجس؟

- إنه ليس من الرجال الذين ينتبه إليهم المرء كثيراً. كان خادماً جيداً، كان ملائماً ولكنه غير مصقول.

- وما هو عمره؟

- إنه في نحو السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين، وأظن أنه كان مراسلاً في الجيش خلال الحرب، غير أنه لم يكن جندياً نظامياً.

- متى بدأ عمله عند الرائد ريتش؟

- منذ مدة قصيرة، نحو سنة كما أظن.

- ألم تلاحظي أي أمر غريب في تعامله مع زوجك؟

- لم أذهب كثيراً هناك. أظن أنني لم ألاحظ شيئاً غريباً أبداً.

- أخبريني الآن عمّا حدث في تلك الأمسية: ما هو الوقت الذي كان مقرراً فيه وصولكم؟

- من الثامنة والربع حتى الثامنة والنصف.

- وأي نوع من الحفلات كان مقرراً لها أن تكون؟

- حسناً، كان عشاء فاخراً يضمّ -على الأغلب- أطباقاً شهية مثل الكبد بالدهن وسمك السلمون المدخَّن، وأحياناً يقدَّم فيه طبق

من الرز الحار، يقدمه تشارلز بطريقة تعلمها في الشرق الأدنى، ولكن هذا كان غالباً في الشتاء. ثم نستمع عادة إلى الموسيقى، فلدى تشارلز جهاز أسطوانات ممتاز، وزوجي والسيد جوك مكلارين مغرمان بالموسيقى الكلاسيكية. هذا ما كان يحدث عادة... سهرة بلا رسميات، وقد كان تشارلز مُضيفاً ممتازاً دائماً.

- وفي تلك السهرة ذاتها: هل جرت الأمور كباقي الأمسيات؟ ألم تلاحظي أي شيء غير طبيعي أو في غير مكانه؟

قطبت جبينها للحظة ثم قالت: في غير مكانه؟ عندما قلتَ ذلك... حسناً، لا أدري. لم يكن هناك شيء.

ثم هزّت رأسها ثانية وقالت: "لا؛ الجواب على سؤالك أنه لم يكن أيُّ شيء مخالفاً لطبيعته في تلك الحفلة. لقد تمتعنا بالحفلة وكان الجميع سعداء ومرتاحين". ثم ارتعشت وقالت: ومن غير الممكن أن يفكر المرء بأن الحفلة بطولها...

رفع بوارو يده بسرعة مقاطعاً: لا تفكري، بل أخبريني: ما هي معلوماتك عن ذلك العمل الذي استُدعي زوجك بسببه إلى إسكتلندا؟

- لا أملك معلومات وافية. أظن أن نزاعاً قد وقع بشأن قيود بيع قطعة أرض كان زوجي يملكها، وقد تيسّرت عملية البيع كما يبدو، ثم ظهرت عقبة ما في العملية.

- ما الذي أخبرك به زوجك بالضبط؟

- جاء وفي يده برقية كما أذكر، وقال: "يا له من أمر مزعج! أنا مضطر إلى السفر بقطار المساء إلى إدنبره لرؤية جونستون صباح غد. لقد اعتقدنا أن المعاملة تيسرت أخيراً. هذا أمر مزعج". ثم قال: "هل

أخابر جوك وأطلب منه المرور لاصطحابك إلى الحفلة؟" فقلت: "لا حاجة لذلك، سأستقلّ سيارة أجرة"، فقال إن جوك سيوصلني أو إن الزوجين سبينس سوف يوصلاني إلى البيت بعد الحفلة. ثم سألته إن كان بحاجة إلى أن أحزم له متاعه، فقال إنه وضع بعض الحاجيات في حقيبة وتناول طعاماً خفيفاً في النادي قبل التوجه إلى القطار. ثم ذهب، وكانت تلك آخرَ مرة أراه فيها.

تحشرج صوتها قليلاً وهي تقول كلماتها الأخيرة. نظر بوارو إليها بإمعان وسألها: هل أراك زوجك البرقية؟

- لا.

- مع الأسف!

- لماذا تقول ذلك؟

لم يُجِبْ عن سؤالها، بل قال بسرعة: والآن، إلى العمل. مَن هم محامو الرائد ريتش؟

أخبرته بأسمائهم وعناوينهم فدوّن ذلك في مفكرته، ثم قال: هل لك أن تكتبي لهم بضع كلمات حول تكليفي بالتحري عن القضية؟ ينبغي أن أقوم ببعض الترتيبات لأقابل الرائد ريتش.

- لقد جُدِّد احتجازه احتياطياً لمدة أسبوع.

- هذا طبيعي، وهو الإجراء المتبَع. هل لك أن تكتبي أيضاً إلى القائد مكلارين وأصدقائك الآخرين من عائلة سبينس؟ عليّ أن أراهم جميعاً، ومن الضروري أن لا يضطربوا بمجرد رؤيتي.

وعندما كتبت ما طلبه منها ونهضت عن المكتب قال: بقي

أمر آخر. سأسجل أنا انطباعاتي الخاصة عن القائد مكلارين والسيد والسيدة سبينس، ولكنني أريد انطباعاتك أنت أيضاً عنهم.

- جوك مكلارين واحدٌ من أصدقائنا القدامى، وقد عرفته منذ كنت طفلة. وهو يبدو عنيداً وقاسياً للوهلة الأولى، ولكنه -في الحقيقة- صديق عزيز لم يتغير، ويمكن الاعتماد عليه دائماً. ورغم أنه غير مرح ولا مُسلٍّ إلاّ أنه طود شامخ، وقد كنا أنا وآرنولد نعتمد على تقديراته كثيراً.

سأل بوارو وهو يطرف بعينيه: وهو أيضاً كان يحبك بلا ريب؟

أجابت بسعادة: آه، نعم؛ لقد أحبني دوماً، ولكن ذلك أصبح الآن بحكم العادة.

- وماذا عن الزوجين سبينس؟

- إن رفقتهما ممتعة ومسلية. ليندا سبينس فتاة ذكية حقاً، وقد كان زوجي يستمتع بالحديث معهما، فهي جذابة أيضاً.

- أأنتما صديقتان؟

- أنا وليندا؟ بطريقة ما، فأنا لا أدري إن كنت حقاً أحبها. إنها حقودة جداً.

- وزوجها؟

- آه، جيريمي إنسان مرح مغرم بالموسيقى وله معرفة واسعة بالأفلام السينمائية، وقد كنا نذهب معاً إلى السينما كثيراً.

نهض بوارو قائلاً: حسناً، سأرى بنفسي، وأرجو أن لا تندمي على استعانتك بجهودي يا سيدتي.

اتسعت عيناها وهي تقول: ولماذا أندم؟

قال بوارو بخفة ودلال: من يدري؟

ثم حدّثَ نفسه قائلاً وهو ينزل الدرج: وأنا، أنا أيضاً لا أدري.

* * *

كانت الحفلة في الطابق السفلي مستمرة، ولكنه تجنّب أنظار الحضور وخرج إلى الشارع. كرّرَ مع نفسه: لا أدري.

كانت مارغريتا كلايتون هي التي تشغل تفكيره. هل كان ذلك الصدق الطفولي وتلك البراءة الصريحة اللذان ظهرا عليها، هل كانا بهذه البراءة حقاً أم أنهما يخفيان شيئاً آخر؟ لقد عاشت في العصور الماضية نساء مشابهات، نساء لم تتمكن روايات التاريخ من الاتفاق بشأنهن. وخطرت بباله الملكة الإسكتلندية ماري ستيورات. هل كانت تلك الملكة على علم في تلك الليلة في قصر كيرك أوفيلندا بالفَعلة التي كانت على وشك الحدوث أم كانت بريئة تماماً؟ ألم يخبرها المتآمرون بشيء؟ هل كانت من أولئك النسوة ذوات البساطة الطفولية اللاتي يستطعن أن يقنعن أنفسهن بأنهن لا يدرين شيئاً؟ شعر بتأثير مارغريتا كلايتون السحري، ولكنه لم يكن متأكداً تماماً من حقيقة هذه المرأة!

إن أمثال هؤلاء النساء (رغم براءتهنّ شخصياً) يمكن أن يكنّ سبباً في الجريمة. إن نساء من هذا النوع يمكن أن يكنّ أنفسهن مجرمات بالنوايا والأهداف، إن لم يكن بالتنفيذ المباشر. إن أيديهن ليست أبداً بالأيدي التي تمسك بالسكين.

أما بالنسبة لمارغريتا كلايتون... لا، لم يكن يدري!

-٣-

لم يجد هيركيول بوارو محامي الرائد ريتش متعاونين كثيراً، لكنه لم يكن يتوقع تعاونهم أصلاً. أشاروا، دون أن يقولوا بصراحة، إلى أن من مصلحة موكِّلهم أن لا تُظهِر السيدة كلايتون أي مؤشر للاهتمام أو التحرك لصالحه.

كانت زيارته لهم من قبيل «دخول البيوت من أبوابها»؛ إذ أن له من النفوذ في وزارة الداخلية وقسم المباحث الجنائية ما يمكّنه من ترتيب مقابلة مع الرائد السجين.

لم يكن المفتش ميلر (المسؤول عن قضية كلايتون) من المفتشين الذين يفضلهم بوارو، ولكنه لم يكن -مع ذلك- عدائياً إزاء اشتراك بوارو في التحقيق، بل اتّسمَ موقفه بالازدراء فقط. وقد قال لمساعده الرقيب قبل دخول بوارو: لا يسعني إضاعة الوقت مع هذا العجوز المتطفل، ومع ذلك عليّ أن أكون مهذباً معه.

وعندما دخل بوارو قال ميلر بمرح: عليك -يا سيد بوارو- أن تُخرج الأرانب من القبعة إذا أردت أن تثبت براءة هذا المتهَم؛ فلا أحد غير ريتش كان بإمكانه قتل الرجل.

- باستثناء الخادم؟

- آه، سأقرّ لك بهذا الاحتمال، ولكنك لن تجد شيئاً في هذا الاتجاه. ليست هناك أية دوافع.

- لا يمكنك الجزم بذلك، فالدوافع تكون غريبة جداً أحياناً.

- صحيح، ولكنه لم يكن على صلة بكلايتون بأي شكل،

وتاريخه نظيف تماماً، ويبدو متوازناً عقلياً. ولا أدري ماذا تريد بعد كل ذلك.

- أريد أن أثبت أن ريتش لم يرتكب الجريمة.

كشّر المفتش ميلر تكشيرة كريهة وقال: حتى تُرضي السيدة، أليس كذلك؟ «فتش عن المرأة»! ولا سيما إذا تملّكها حب الانتقام. لو سنحت لها الفرصة لاقترفت ذلك بنفسها.

- لا، ليس إلى هذا الحد!

- ستفاجأ إذا أخبرتك أنني عرفت امرأة مثلها ذات مرة، وقد أزاحت زوجين من طريقها دون أن تطرف عيناها الزرقاوان البريئتان، وكان يتكسر قلبها في كل مرة أيضاً. كانت هيئة المحلفين ستبرّئها لو كانت هناك نصف فرصة لذلك، الأمر الذي لم يكن وارداً إذ كانت الأدلة قاطعة.

- حسناً يا صديقي، لنترك الجدل جانباً. إن ما سأتجرأ وأطلبه منك هو بعض التفصيلات الموثوقة حول حقيقة ما حدث؛ إذ أن ما تطبعه الصحف هو أخبار وليس حقائق!

- لا بد للصحفيين من أن يسلّوا أنفسهم. ما هي التفصيلات التي تريدها؟

- وقت الوفاة، بأدقّ ما يمكن.

- وهو ما لا يمكن أن يكون دقيقاً تماماً لأن الجثة لم تُفحَص إلاّ صباح اليوم التالي. يُقدَّر أن الوفاة قد وقعت قبل موعد الفحص بثلاث عشرة ساعة إلى عشر ساعات؛ أي بين السابعة والعاشرة من الليلة

السابقة... لقد طُعن القتيل في الوريد الوداجي في الرقبة، ولا بد أن الوفاة حدثت خلال لحظات.

- وسلاح الجريمة؟

- نوع من المدى الإيطالية، صغير تماماً وحاد كالموس. لم يرَه أحد من قبل ولم يعلم أحد مصدره، ولكننا سنعرف ذلك في النهاية... إنها مسألة وقت وصبر.

- أليس ممكناً أن تكون هذه المدية قد التُقطت عرَضاً خلال مشاجرة؟

- لا أظن، فقد قال الخادم أنه لا يوجد شيء كهذا في الشقة.

- إن ما يثير اهتمامي هو البرقية، تلك البرقية التي استدعت آرنولد كلايتون إلى إسكتلندا... هل كان ذلك الاستدعاء حقيقياً؟

- لا، لم تقع هناك أية مشكلات أو تعقيدات، وكانت معاملة نقل ملكية الأرض تسير بشكل طبيعي.

- إذن فمَن أرسل تلك البرقية؟ إنني أفترض أنه كانت هناك برقية بالفعل.

- نعم، لا بد من وجودها؛ ليس تصديقاً لكلام السيدة كلايتون بالضرورة، ولكن لأن السيد كلايتون أخبر الخادم أنه استُدعي برقياً إلى هناك، كما أنه أخبر القائد مكلارين أيضاً.

- متى رأى كلايتون القائد مكلارين؟

- تناولا معاً عشاء خفيفاً في ناديهما، نادي الخدمات المشتركة،

وكان ذلك في نحو السابعة والربع. ثم استقلّ كلايتون سيارة أجرة إلى شقة ريتش، ووصل هناك قبل الساعة الثامنة بقليل. وبعد ذلك...

وبسط ميلر يديه مشيراً إلى أن الأمور جرت بعد ذلك كما هو معروف. سأله: بوارو: هل لاحظ أحدٌ أيَّ شيء غريب في سلوك ريتش في تلك الليلة؟

- آه، حسناً، إنك تعلم كيف يتصرف الناس. ما إن يحدث شيء حتى يظن الناس أنهم لاحظوا كثيراً من الأمور التي أراهنُ أنهم لم يروها أبداً. مثلاً قالت السيدة سبينس إن ريتش كان شارداً طوال السهرة وإنه لم يُجِب عن الأسئلة التي وُجِّهت إليه بدقّة، كما لو كان لديه «شيء في ذهنه». ولا شك أنه كان في ذهنه شيء لو كان في صندوقه جثة وهو حائر لا يدري كيف يتخلص منها!

- لماذا لم يتخلص منها؟

- هذا ما يحيّرني كثيراً. هل فقد أعصابه؟ ربما، ولكن تركها حتى اليوم التالي كان جنوناً. كانت لديه أفضل فرصة للتخلص من الجثة في تلك الليلة، فلم يكن للمبنى حارس ليلي؛ كان بإمكانه إحضار سيارته ووضع الجثة في صندوقها (وهو صندوق كبير) والخروج باتجاه الريف ليخفي الجثة في مكان ما هناك. كان ثمة احتمال أن يُرى وهو يُخرج الجثة إلى السيارة، ولكن الشقق حيث مسكنه تقع في شارع جانبي، وهناك ساحة يمكن تقريب السيارة من خلالها. في الساعة الثالثة صباحاً -على سبيل المثال- كانت له فرصة جيدة لإخراج الجثة. فما الذي فعله؟ ذهب إلى فراشه لينام حتى ضحى اليوم التالي، وليصحو على أصوات الشرطة في شقته!

- لقد أوى إلى فراشه ونام بعمق كما كان لرجل بريء أن يفعل.

- انظر إلى الأمر هكذا إن شئت، ولكن هل تعتقد حقاً أنه بريء؟

- ينبغي أن أؤخر الإجابة على هذا السؤال حتى أرى الرجل بنفسي.

- وهل تعتقد أنك تميز البريء عندما تراه؟ إن الأمر ليس بهذه السهولة.

- أعلمُ أن الأمر ليس سهلاً، ولن أدّعي أنني أستطيع تمييز البريء لدى رؤيته. ولكن ما أريد معرفته هو: هل الرجل على هذا القدر من الغباء الذي يبدو عليه؟

-٤-

لم يكن في نية بوارو أن يرى تشارلز ريتش حتى يلتقي بالآخرين جميعاً، وقد بدأ بالقائد مكلارين.

كان مكلارين رجلاً طويلاً داكن اللون لا يحب الكلام، وكان وجهه لطيفاً رغم التجاعيد التي تملؤه. ثابر بوارو رغم خجل الرجل وصعوبة الحديث معه. قال مكلارين وهو يمسك بملاحظة مارغريتا والتردد يغلب عليه: حسناً، إذا كانت مارغريتا تريدني أن أخبرك بكل ما أستطيعه فسأفعل ذلك بالطبع، مع أنني لا أعلم بأي شيء أخبرك. لقد سمعتَ القصة كلها بالتأكيد، ولكني سأفعل ما تريده مارغريتا. لقد فعلت دوماً ما كانت تريده منذ أن كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها، إذ أن لها تأثيرها كما تعلم.

- أعرف ذلك. ولكنني أريد منك أولاً أن تجيبني بصراحة تامة عن هذا السؤال: هل تعتقد بأن الرائد ريتش مذنب؟

- نعم، أعتقد ذلك. لم أكن لأقول ذلك لمارغريتا إن اختارت أن تؤمن ببراءته، ولكنني -ببساطة- لا أستطيع رؤية الأمر بطريقة أخرى. فكّر بالأمر، لا بد أنه مذنب.

- هل كانت بينه وبين السيد كلايتون مشاعر عدائية؟

- أبداً، بل كانا أفضل الأصدقاء، وهذا ما يجعل الأمر كله مستغرَباً جداً.

- ربما كانت صداقة الرائد ريتش مع السيدة كلايتون...

قاطعه مكلارين: تباً لكل تلك الشائعات التي تشير الصحافة إليها بخبث، يا لهذا اللمز اللعين! لقد كانت السيدة كلايتون وريتش مجرد صديقين وحسب! ولمارغريتا العديد من الأصدقاء. أنا صديق لها ولسنوات طويلة، وليس في صداقتنا ما نودّ إخفاءه عن أعين الناس. والشيء نفسه ينطبق على تشارلز ومارغريتا.

- إذن فأنت لا تظن أنهما كانا على علاقة عاطفية؟

- بالتأكيد لم يكونا كذلك.

قالها بغضب وتشديد، وأضاف: لا تُصغِ إلى تلك المشعوذة السيدة سبينس، فهي لا تتحرج عن قول أي شيء.

- ولكن ربما شكّ السيد كلايتون في وجود شيء ما بين زوجته والرائد ريتش؟

- إنه لم يشكّ في أي شيء من هذا القبيل. خذها مني، فقد كنت سأعلم لو كان الأمر كذلك لأننا كنا (آرنولد وأنا) قريبَين جداً بعضنا من بعض.

- من أي نوع من الرجال كان آرنولد؟ أنت تعرفه أكثر من غيرك.

-كان رجلاً هادئاً، ولكنه ذكي ولامع جداً كما أعتقد. كان بالفعل ذا عقل مالي من الدرجة الأولى كما يقولون، وكان مسؤولاً كبيراً في وزارة المالية كما تعلم.

- هكذا سمعت.

- كان يقرأ كثيراً، ويجمع الطوابع، وكان مغرماً جداً بالموسيقى، ولكنه لم يكن يهتم بالخروج من البيت.

- هل كان زواجه سعيداً برأيك؟

لم يأتِ جواب القائد مكلارين سريعاً. بدا أنه يفكر لحل هذا اللغز، وأخيراً قال: تصعب الإجابة عن هذا السؤال تماماً. نعم، أعتقد أنهما كانا سعيدين. كان مغرماً بها بطريقته الهادئة، وأنا متأكد من أنها كانت تحبه. لم يكن انفصالهما وارداً إذا كان هذا ما تفكر فيه، ولكن ربما لم يكونا متشابهين كثيراً.

هزّ بوارو رأسه، فقد حصل على ما اعتقد أنه يمكنه الحصول عليه. قال: أخبرني الآن عن تلك السهرة الأخيرة. لقد تناول السيد كلايتون العشاء معك في النادي، فماذا قال؟

- قال إن عليه الذهاب إلى إسكتلندا، وبدا منزعجاً من ذلك. ولم يتعشَّ، بل قال إنه لا وقت لديه فاكتفى بأن تناول شطائر وشراباً.

أما أنا فقد اكتفيت بالشراب، فقد كنت ذاهباً إلى عشاء كما تذكر.

- هل ذكر شيئاً عن برقية؟

- نعم.

- ولكنه لم يطلعك عليها فعلياً؟

- نعم.

- هل قال إنه سيمر على ريتش؟

- ليس بهذا الشكل المحدد. في الواقع لقد قال إنه يشك فيما إذا كان يملك الوقت للذهاب إليه، وقال: "يمكن لمارغريتا أن تعتذر عني، أو أنت"، ثم قال: "أرجو أن تتأكد من مرافقتها إلى المنزل بعد الحفلة"، ثم مضى. كان ذلك كله طبيعياً وبسيطاً.

- هل كانت لديه أية شكوك حول حقيقة البرقية؟

قال القائد مكلارين وكأنه قد جفل: ألم تكن حقيقية؟

- يبدو أنها لم تكن صحيحة.

- هذا غريب جداً!

سرح القائد مكلارين فيما يشبه الغيبوبة، ثم صحا فجأة ليقول: ولكن هذا غريب فعلاً. أعني: ما هو المقصود من ذلك؟ مَنذا يريد منه أن يذهب إلى إسكتلندا، ولماذا؟

- هذا سؤال يحتاج إلى إجابة بالتأكيد.

غادر هيركيول بوارو تارِكاً مكلارين وهو يفكر في هذه القضية.

-٥-

كانت عائلة سبينس تعيش في بيت صغير في تشيلسي. استقبلت ليندا سبينس بوارو بحفاوة بالغة قائلة: أخبرني كل شيء عن مارغريتا... أين هي؟

- هذا ما لا أستطيع أن أبوح به يا سيدتي.

- لقد اختبَأت جيداً! إنها ذكية جداً في مثل هذه الأمور، ولكنها سوف تُستدعى لتقديم شهادتها في المحكمة كما أظن؟ لن تستطيع التملص من ذلك.

نظر إليها بوارو نظرة تفحص وتخمين، واعترف لنفسه بتردد: إنها جميلة حسب مقاييس الأسلوب الحديث، فهي تشبه طفلاً يتيماً مصاباً بسوء التغذية. لم تكن من النوع الذي يعجبه، بشعرها المنفوش حول رأسها بطريقة فوضوية مقصودة وبعينيها اللاذعتين اللتين تراقبانه. كانت ترتدي بنطالاً أسود وسترة صفراء ضخمة تتدلى إلى ركبتيها تقريباً.

بادرت بالتساؤل: ما هو دورك في كل هذه القصة؟ أن تنقذ العشيق من المشكلة بطريقة ما؟ هذا هو دورك؟ ما أبعده من أمل!

- تعتقدين أنه مذنب إذن؟

- طبعاً، ومَن غيره؟

قال بوارو لنفسه: "هذا هو السؤال"، ولكنه تفاداه بسؤال آخر: كيف بدا لك الرائد ريتش في تلك الأمسية؟ كعادته أم على غير عادته؟

ضيّقت ليندا سبينس عينيها وهي تنطق حكمها: لا، إنه لم يكن كعادته، كان مختلفاً.

- إلى أي مدى؟

- حسناً، إذا طعنتَ رجلاً ببرودة أعصاب...

- لكنك لم تكوني تدركين في ذلك الوقت أنه طعن رجلاً ببرودة أعصاب، أليس كذلك؟

- طبعاً لم أكن أعرف.

- إذن فكيف فسّرتِ عندها كونَه «مختلفاً»؟ بأية طريقة؟

- حسناً، كان شارداً. آه، لا أدري، ولكنني عندما فكّرت بالأمر في وقت لاحق قررت أنه كان هناك شيء ما.

تنهد بوارو وسأل: من وصل أولاً؟

- نحن وصلنا أولاً، أنا وجيريمي، ثم جوك، وأخيراً مارغريتا.

- ومتى ذُكر رحيل السيد كلايتون إلى إسكتلندا لأول مرة؟

- عندما وصلت مارغريتا، إذ قالت لتشارلز: "إن آرنولد يعتذر جداً، فقد اضطر إلى الذهاب بسرعة إلى إدنبرة في قطار المساء". فقال تشارلز: "آه، هذا سيء". ثم قال جوك: "آسف، ظننتك تعلم ذلك".

- ألم يشر ريتش إلى رؤيته للسيد كلايتون في ذلك المساء؟ ألم يقل شيئاً عن مروره بشقته وهو في طريقه إلى المحطة؟

-أنا لم أسمعه يشير إلى ذلك.

-كانت غريبة تلك البرقية، أليس كذلك؟

- ما الغريب فيها؟

- كانت مزيَّفة، لا يعلم أحدٌ في إدنبرة أي شيء عنها.

- هكذا إذن؟ لقد استغربت الأمر في حينه.

- هل كان عندك معلومات عن البرقية؟

- لنقل إن الأمر يجذب الانتباه.

- ماذا تعنين بالضبط؟

- يا عزيزي، لا تمثل دور البريء؛ لقد قام مخادع مجهول بإبعاد الزوج عن الطريق!

- هل تعنين أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون خطّطا لقضاء الوقت معاً؟

- لقد سمعتَ أنت بمثل هذه الأمور، أليس كذلك؟

قالت جملتها وهي تبدو فرحة بالأمر.

- وتعتقدين أن البرقية أرسلها أحدهما؟

- هذا ما لن يدهشني وقوعه.

- إذن أنت تعتقدين أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون كانا على علاقة غرامية؟

- دعني أقل إن هذا ما كان ليدهشني لو كان صحيحاً، ولكنني لا أعرف عنه يقيناً.

- هل شك السيد كلايتون؟

- كان آرنولد شخصاً استثنائياً؛ كان محصور المشاعر إن كنت تدرك ما أعنيه. أظنه كان يعلم، ولكنه كان من النوع الذي لا يشي بأحاسيسه أبداً. وقد يعتقد الجميع أنه كان خشبة يابسة لا مشاعر فيها، ولكنني واثقة تماماً من أنه لم يكن كذلك في أعماقه. الغريب في الأمر هو أن دهشتي كانت أقل بكثير لو أن آرنولد هو الذي طعن تشارلز، لا العكس، فأنا أعتقد أن آرنولد كان غَيوراً إلى حد الجنون.

- هذا أمر مثير.

- مع أنه كان سيقتل مارغريتا على الأرجح؛ كما حصل في قصة «عُطَيل». إن لمارغريتا تأثيراً رهيباً في الرجال كما تعلم.

قال بوارو مقلّلاً من حقيقة سحر تلك المرأة: إنها امرأة حسنة الشكل.

- إنها أكثر من ذلك؛ إن لديها شيئاً يولع بها الرجال، تلتفت هي لتنظر إليهم فاتحَةً عينيها بدهشة تثير جنونهم.

- المرأة القاتلة!

- نعم، ربما كان هذا هو الوصف الأفضل لها.

- هل عرفتها عن كثب؟

- إنها واحدة من أفضل صديقاتي يا عزيزي، ومع ذلك فأنا لا أثق بها لحظة.

- آه!

قالها بوارو ثم حوّل الموضوع بسؤاله عن القائد مكلارين، فقالت: جوك؟ الصديق المخلص القديم؟ إنه صديقهم المدلل الذي وُلد ليكون صديقاً للعائلة. كانت علاقته حميمة مع آرنولد الذي كان يرتاح له أكثر من أي شخص آخر، كما كان قطة مارغريتا الأليفة بالطبع، وهو مغرم بها منذ سنوات طويلة.

- وهل كان السيد كلايتون يغار منه أيضاً؟

- يغار من جوك؟ يا لهذه الفكرة! إن مارغريتا مغرمة بجوك على نحو فريد، ولكنها لم تظهر له أبداً شيئاً من ذلك. لا أعتقد حقاً أن بوسع المرء... لا أدري لماذا، ولكن الأمر يبدو مخجلاً، فهو لطيف جداً.

حوّل بوارو الموضوع إلى الخادم. ولكن ليندا بدت خالية من أية أفكار بشأن الخادم، حتى إنها لم تلاحظ وجوده لولا ملاحظة باهتة مفادها أنه يقدم الطعام بشكل جيد. ولكنها كانت سريعة جداً في فهم الموضوع.

- أعتقد أنك تفكر بأن الخادم كان يستطيع قتل آرنولد بنفس السهولة؟ أظنها فكرة مجنونة!

- إن ملاحظتك تحزنني يا سيدتي. ولكن يبدو لي أيضاً (مع أنك قد لا توافقينني) أن من الجنون أيضاً ليس قتل الرائد ريتش لآرنولد كلايتون ولكن قتله بالطريقة التي قتله بها.

- تقصد تلك المدية الصغيرة؟ نعم، فهي لا تتماشى مع شخصيته مطلقاً. ربما كانت الطرق غير الجارحة أكثر انسجاماً؛ ربما كان بإمكانه أن يخنقه مثلاً.

تنهد بوارو قائلاً: ها قد عدنا إلى مسرحية عطيل. نعم، عُطَيل، لقد أوحيت لي بفكرة صغيرة.

- صحيح؟ ما هي؟

قطع حديثَها صوتُ المفتاح والباب وهو يُفتح، فقالت: آه، ها هو جيريمي. هل تريد التحدث معه أيضاً؟

كان جيريمي رجلاً حسن المظهر في الثلاثينات من عمره، وقد بدا مستعداً للّقاء وحذراً إلى حد يلفت الانتباه. قالت السيدة سبينس إن عليها أن تراقب الطعام في المطبخ وذهبت تاركةً الرجلين معاً.

لم يُبدِ جيريمي سبينس شيئاً من الصراحة والاهتمام الذي أبدته زوجته، فقد كان واضحاً كرهه الشديد للتورط في هذه القضية أساساً، وكانت ملاحظاته حذرة ولا تحتوي أية معلومات. قال إنه وزوجته قد عرفا عائلة كلايتون منذ فترة، ولم يعرفا ريتش بشكل جيد. وصفه بأنه شخص محبب وأنه كان تماماً كعادته في تلك السهرة ولم يلحظ عليه أي تغيير، وأن كلايتون وريتش كانا دائماً متفقَين متحابّين فيما يبدو، وأن القصة كلها يصعب تفسيرها.

وكان واضحاً طوال المقابلة أن جيريمي سبينس يريد من بوارو أن يغادر، مع أنه كان مؤدباً، مؤدباً فحسب.

قال بوارو: أخشى أنك لا تحب هذه الأسئلة؟

- حسناً، لقد خضعنا لجلسات مع الشرطة بشأن هذا الموضوع، وأشعر أن ذلك كان كافياً. لقد قلنا كل ما نعرفه وما رأيناه، والآن أريد أن أنسى الموضوع.

- إن مشاعري القلبية معك؛ فمن المزعج تماماً أن يقع المرء في مثل هذا الأمر وأن يُطلب منه ليس فقط ما يعرف وما يرى، بل ربما ما يظن!

- الأفضل أن لا أظن!

- لا يمكن للمرء أن يتجنب ذلك، هل تظن -مثلاً- أن السيدة كلايتون كانت ضالعة في الجريمة أيضاً؟ هل خططَت لمقتل زوجها مع ريتش؟

- يا إلهي! لا.

بدا سبينس مصعوقاً، وأضاف قائلاً: لم تخطر لي فكرة طرح سؤال من هذا النوع.

- ألم تشر زوجتك إلى مثل هذا الاحتمال؟

- آه! ليندا؟ إنك تعرف طبائع النساء، فهن دائماً يضمرن العداوة بعضهن لبعض. ومارغريتا لم تنل إعجاب بنات جنسها أبداً؛ فهي ذات سحر يحظى بلعناتهن. ولكن نظرية تخطيط مارغريتا وريتش للجريمة معاً نظريةٌ خيالية بالتأكيد!

- لقد حدثت مثل هذه الأشياء، كما أن سلاح الجريمة -على سبيل المثال- من نوع تلك الأسلحة التي يمكن للنساء اقتناؤها أكثر من الرجال.

- هل تعني أن الشرطة قد عرفوا أن المدية لها؟ لا يمكن! أقصد...

- لا أدري.

قالها بوارو بصدق، ثم انصرف بسرعة.

وقد استنتج بوارو -من الرعب الذي ملأ وجه سبينس- أنه قد ترك للرجل شيئاً ليفكر فيه!

-٦-

- اعذرني إذا قلت لك إنني لا أرى طريقة تستطيع أن تساعدني بها يا سيد بوارو.

لم يجب بوارو، فقد كان يتأمل وجه الرجل الذي اتُّهم بقتل صديقه آرنولد كلايتون. كان رجلاً نحيلاً أسمر ذا جسم رياضي قوي ورأس صغير، ولم يكن وجهه ليفصح عن أي شيء، وقد استقبل زائره بأسلوب ينقصه الكثير من الود.

قال: أعرف أن السيدة كلايتون قد أرسلتك لرؤيتي وهي تحمل أفضل النوايا، ولكن أعتقد -بصراحة- أنها لم تكن عاقلة بهذا الشأن، غير عاقلة وغير مقدّرة لمصلحتها الخاصة ولمصلحتي أيضاً.

- ماذا تعني؟

ألقى ريتش نظرة غاضبة ملتفتاً إلى الحارس الحاضر الذي كان يقف جانباً كما تقتضي التعليمات، ثم خفض صوته قائلاً: إنهم مطالَبون بالعثور على دافع لهذا الاتهام السخيف، وسوف يحاولون إثبات أي رابط بيني وبين السيدة كلايتون. وهذا باطل تماماً كما أخبرتك السيدة كلايتون ولا بد، فنحن مجرد صديقين لا أكثر. ولذلك فالأفضل أن لا تقوم بأية خطوة لصالحي.

تجاهل هيركيول بوارو هذه النقطة وآثر أن يلتقط كلمة واحدة:

لقد قلت إنه إتهام سخيف، مع أنه ليس سخيفاً كما تعلم.

- هو كذلك لأنني لم أقتل آرنولد كلايتون.

- سمّه اتهاماً باطلاً إذن، قل إنه غير صحيح، ولكنه ليس سخيفاً. بل إنه اتهام مقبول ظاهرياً، ينبغي عليك أن تدرك ذلك تماماً.

- كل ما أستطيع قوله لك هو أنني أرى هذا الاتهام خيالياً أحمق!

- إن قولك هذا لن يكون ذا فائدة تذكر. ينبغي علينا أن نفكر بشيء أكثر جدوى.

- لي محامون يمثلونني، وقد هيّؤوا هيئة دفاع بارزة للدفاع عني، ولذلك فلن أقبل استعمالك لكلمة «علينا».

ابتسم بوارو فجأة، ثم قال بأسلوبه الأجنبي: آه، هذا هو تحذيرك لي! حسناً، سأذهب. لقد أردت رؤيتك وقد رأيتك. وكنت قد اطلعت على سجلك المهني؛ لقد نجحتَ في الانخراط في كلية ساندهيرست العسكرية ونجحت في الالتحاق بكلية الأركان، وهكذا استمرت نجاحاتك. لقد أصدرتُ حكمي عليك اليوم: أنت لست رجلاً غبياً.

- وما علاقة كل ذلك بالقضية؟

- له كل العلاقة؛ إذ يستحيل على رجل بمؤهلاتك أن يرتكب جريمة بالطريقة التي تمت بها هذه الجريمة. حسناً، أنت بريء. أخبرني الآن عن خادمك بيرجس.

- بيرجس؟

- نعم، فإن لم تكن أنت الذي قتل كلايتون فلا بد أنه بيرجس. لا مفر من هذه الفرضية كما يبدو. ولكن لماذا؟ لا بد من وجود سبب، وأنت الوحيد الذي يعرف بيرجس بشكل جيد يسمح له بالتخمين. لماذا يا رائد ريتش، لماذا يمكن لبيرجس أن يقتل كلايتون؟

- لا أستطيع تصور ذلك. لقد اتبعت -بالمناسبة- الطريقة نفسها في التحليل. صحيح أن بيرجس كانت لديه الفرصة، بل إنه الوحيد سواي الذي كانت له الفرصة للقتل، ولكن المشكلة هي أنني لا أصدق ذلك، فبيرجس ليس من النوع الذي يمكن تخيله يقتل أحداً.

- ما الذي يعتقده مستشاروك القانونيون؟

مطّ ريتش شفتيه مكفهرّاً وقال: إنهم يمضون وقتهم في سؤالي (وربما إقناعي) إن كان صحيحاً أنني عانيت في حياتي من حالات فقدان الوعي حيث لا أعود مدركاً لما أفعله!

- هل وصل بهم العجز إلى هذا الحد؟ حسناً، ربما نحاول أن نثبت أن بيرجس هو الذي كان عرضة لهذه الحالات. إنها مجرد فكرة. والآن سأسألك عن سلاح الجريمة، لقد عرضوه عليك وسألوك إن كان لك؟

- إنه ليس لي، ولم أره أبداً من قبل.

- أنا أعرف أنه لم يكن لك، ولكن هل أنت متأكد تماماً من أنك لم تره من قبل؟

- نعم.

بدا في موقفه تردد بسيط قبل أن يكمل: إنه نوع من ألعاب الزينة. أشياء كهذه ربما رآها المرء ملقاة في بيوت الناس.

- في غرفة استقبال امرأة مثلاً؟ ربما في غرفة استقبال السيدة كلايتون؟

صاح ريتش: بالتأكيد لا!

نظر الحارس عندما سمع صوت ريتش العالي. قال بوارو: حسناً، لا حاجة للصراخ. ولكن ربما رأيت في مكان ما في وقت ما شيئاً يشبه تلك المدية. صحيح؟

- لا أظن ذلك، ربما فقط في بعض محلات التحف النادرة.

- هذا محتمَل جداً.

ثم نهض بوارو وقال: عن إذنك.

-٧-

قال بوارو لنفسه: والآن إلى بيرجس، نعم؛ أخيراً إلى بيرجس.

كان قد عرف شيئاً عن شخصيات هذه القضية، منهم أنفسهم أو مما قاله بعضهم عن بعض. ولكن أحداً لم يعطه أية معلومة عن بيرجس، لا طرف خيط ولا إشارة من أي نوع إلى طبيعة هذا الرجل.

عندما رأى بيرجس أدرك السبب. كان الخادم بانتظاره في شقة الرائد ريتش، إذ كان القائد مكلارين قد أعلمه هاتفياً بزيارة بوارو.

- أنا هيركيول بوارو.

- نعم يا سيدي، كنت بانتظارك.

أمسك بيرجس بالباب مفتوحاً باحترام بينما دخل بوارو إلى فسحة المدخل الصغيرة المربعة، وعلى الجهة اليسرى للفسحة كان هناك باب مفتوح يؤدي إلى غرفة الجلوس، حيث دخل بوارو وتبعه بيرجس بعد أن أخذ منه معطفه وقبعته.

قال بوارو وهو ينظر حوله: آه، هنا حدث الأمر إذن؟

- نعم يا سيدي.

كان بيرجس رجلاً هادئاً شاحب الوجه نحيل الجسم تماماً، ذا كتفين ومرفقين غير متناسبين وصوت منخفض يحمل لهجة ريفية لم يميزها بوارو، وربما كانت لهجة الساحل الشرقي. بدا شخصاً عصبي المزاج، وفيما عدا ذلك لم تكن له خصائص محددة. كان من الصعب ربطه بأي فعل إيجابي من أي نوع، فهل يمكن أن يفترضه قاتلاً سلبياً؟

كانت له تلك العينان الزرقاوان الشاحبتان اللتان ما تنفكّان تتحركان من مكان إلى آخر، تلك الصفة التي غالباً ما يرى فيها الناس غير المتعمقين في الملاحظة دليلاً على عدم الأمانة... مع أن الكاذب يمكن أن ينظر في وجه المرء بعين واثقة قوية.

سأل بوارو: ما الذي يحدث للشقة؟

- ما أزال أعتني بها يا سيدي، فقد قام الرائد ريتش بترتيب مسألة أجري والاستمرار في العناية بالشقة حتى... حتى...

وتحركت العينان بانزعاج، فسأله بوارو: "نعم، حتى..."، ثم أضاف وكأنه يقرر حقيقة واقعة: لا بد أن الرائد ريتش سيُقدَّم

للمحاكمة، ويُحتمَل أن تُعرَض القضية خلال ثلاثة أشهر.

هز بيرجس رأسه بحيرة وقال: إنه أمر غير ممكن.

- هل تعني أن يكون الرائد ريتش قاتلاً؟

- كل ما جرى غير ممكن، ذلك الصندوق...

وذهب نظره عبر الغرفة، فقال بوارو: آه! هذا هو الصندوق الشهير إذن؟

كان الصندوق قطعة من أثاث ضخمة، من الخشب الأسود اللامع المرصَّع بالنحاس، وبه مشبك نحاسي ضخم عليه قفل أثري. مشى بوارو إليه قائلاً: قطعة أثاث فخمة.

كان الصندوق مسنَداً إلى الجدار قرب النافذة، محاذياً لخزانة حديثة لحفظ أشرطة التسجيل، وعلى جانبه الآخر كان هناك باب مفتوح قليلاً، وقد اختفى جزء من الباب خلف قاطع خشبي ضخم متحرك على شكل لوحة زُيّنت بالرسوم.

قال بيرجس: هذا يؤدي إلى غرفة نوم الرائد ريتش.

هز بوارو رأسه فيما سافرت نظراته إلى الجانب الآخر من الغرفة. كان هناك جهازا تسجيل وُضع كل منهما على طاولة منخفضة وقد تدلت منهما كالأفاعي نهايات أشرطة التسجيل. كما كان هناك كراسي مريحة وطاولة كبيرة، وعلى الجدران مجموعة من اللوحات اليابانية. كانت غرفة أنيقة مريحة ولكنها لم تكن مترفة.

نظر ثانية إلى وليام بيرجس، ثم قال بلطف: لا شك أن اكتشاف الجثة كان صدمة قاسية لك.

- نعم يا سيدي، إنني لن أنساها أبداً.

ثم اندفع الخادم بالكلام والكلمات تتدفق من فمه، وكأنه قد أحس أن إعادة سرد القصة مراراً سيمحوها من عقله: كنت أنظف الغرفة يا سيدي وآخذ الكؤوس وسائر مخلفات الحفلة. ثم توقفت لألتقط حبتَي زيتون عن الأرض فرأيت ذلك على السجادة، بقعة داكنة بلون الصدأ. لا، السجادة ليست هنا الآن، فقد أخذت إلى محل التنظيف... تولى الشرطة أمرها. فكرت ثم قلت لنفسي على سبيل الضحك: "إنها تبدو كآثار الدماء! ولكن من أين أتت؟ ما الذي انكسر؟"، ثم أدركت أنها جاءت من الصندوق، من جانبه هنا حيث يوجد شرخ. وقلت لنفسي ثانية وأنا ما أزال خالي الذهن: "حسناً، ليكن ما يكون"، ثم رفعت الغطاء هكذا (وطابَقَ فعلُه كلماته) ورأيتها هناك، جثة رجل مضطجع على جانبه وقد تقوقع جسمه كما لو كان نائماً، وتلك السكين أو الخنجر الغريب الكريه مغروز في رقبته. إنني لن أنسى ذلك، أبداً؛ سأذكره طوال حياتي! كانت صدمة غير متوقعة، هل تفهمني؟

أخذ نفساً عميقاً ثم تابع: تركت غطاء الصندوق يقع وركضت خارج الشقة إلى الشارع لأبحث عن شرطي، ولحسن الحظ وجدت شرطياً عند المنعطف.

تأمله بوارو بإمعان. كان تمثيله رائعاً إن كان حقاً تمثيلاً، ثم بدأ يخشى أن لا تكون الرواية تمثيلاً بل عرضاً للأمور كما جرت بالفعل. سأله بوارو: ألم تفكر في إيقاظ الرائد ريتش أولاً؟

- لم يخطر ذلك ببالي يا سيدي، فبعد الصدمة لم... لم أرغب إلا بمغادرة المكان.

ثم ابتلع ريقه مكمّلاً: و... وطلب النجدة.

هز بوارو رأسه ثم سأله: هل أدركت أن الجثة كانت جثة السيد كلايتون؟

- ضروري أنني أدركت ذلك يا سيدي، ولكن لم أصدق نفسي. وعندما عدت برفقة ضابط الشرطة قلت: "يا إلهي، إنه السيد كلايتون!" فسألني: "مَن السيد كلايتون؟" فقلت له: "كان هنا ليلة أمس".

- آه، ليلة أمس... هل تتذكر متى وصل السيد كلايتون إلى هنا بالضبط؟

- ليس بالدقائق، ولكن قبل الثامنة بأقل من ربع ساعة كما أحسب.

- هل كنت تعرفه جيداً؟

- لقد أتى هو والسيدة كلايتون مراراً إلى هذا البيت خلال السنة التي عملت فيها هنا.

- هل كان يبدو طبيعياً كعادته؟

- أعتقد ذلك. كان يلهث قليلاً، ولكني عزوت ذلك إلى استعجاله، إذ كان يريد اللحاق بالقطار... أو هكذا قال.

- أظن أنه كان يحمل حقيبة باعتباره مسافراً؟

- لا يا سيدي؛ أظنه ترك سيارة أجرة تنتظره في الشارع.

- هل بدت عليه خيبة الأمل وهو يرى أن الرائد ريتش كان خارج البيت؟

- لم ألاحظ خيبة أمل. اكتفى بالقول إنه يريد كتابة ملاحظة، فدخل وتوجه إلى المكتب وعدت أنا إلى المطبخ. كنت متأخراً قليلاً في إعداد الكافيار، ولأن المطبخ يقع في نهاية الممر فإن المرء لا يسمع جيداً من هناك، فلم أسمعه يخرج كما لم أسمع سيدي يدخل، ولكني لم أكن لأتوقع...

- وما الذي حدث بعدها؟

- ناداني الرائد ريتش. كان يقف بالباب هنا وقال إنه نسي شراء سجائر السيد سبينس التركية المفضلة وطلب مني الإسراع بجلبها، وهذا ما فعلته. أحضرتها ووضعتها على الطاولة هنا، واعتقدت طبعاً أن السيد كلايتون قد غادر للحاق بقطاره.

- ولم يأتِ أحدٌ إلى الشقة في أثناء وجود الرائد ريتش خارج المنزل وانشغالك أنت في المطبخ؟

- نعم يا سيدي، لم يأتِ أحد.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- كيف لأي امرئ أن يتأكد يا سيدي؟ كان على القادم أن يقرع الجرس.

هز بوارو رأسه متسائلاً: "كيف لأي امرئ أن يتأكد؟"... كان يدرك أن باستطاعة الزوجين سبينس ومكلارين وأيضاً السيدة كلايتون أن يقدّموا برهاناً على انشغالهم في ذلك الوقت بأمور أخرى، فقد كان مكلارين مع بعض معارفه في النادي، وكان الزوجان سبينس يستقبلان صديقين لهما قبل حضورهما إلى الحفلة، وقد كانت

مارغريتا كلايتون تتحدث هاتفياً مع إحدى صديقاتها في ذلك الوقت بالذات. لم يكن مبعث هذا التفكير شكه في أي منهم كمرشح محتمَل لتنفيذ الجريمة، فقد كانت هناك طرق أفضل لقتل آرنولد كلايتون، أفضل من ملاحقته إلى شقة يعمل فيها خادم ويحتمَل عودة صاحبها في أية دقيقة. لا، كان لبوارو أمل أخير في ظهور «غريب غامض»، شخص يخرج من ماضي كلايتون الذي يبدو نظيفاً، فيراه في الشارع ويتعرف إلى هويته فيتبعه إلى هنا ثم يهاجمه بتلك المدية ويرمي الجثة في الصندوق ويهرب... إنها ميلودراما خالصة لا علاقة لها بالعقل ولا بأية احتمالات، تتناغم مع الروايات الرومنسية التاريخية وتلائم هذا الصندوق الإسباني!

عاد إلى الصندوق ورفع غطاءه فارتفع بيسر ودون ضجة. قال بيرجس بصوت خافت: لقد تم تنظيفه يا سيدي، وقد تأكدتُ من ذلك.

انحنى بوارو فوق الصندوق، ثم انحنى أكثر إلى داخله وهو يطلق صوتاً متعجباً. وتفحص الصندوق بأصابعه وهو يقول: هذه الثقوب في الخلف وفي جانب الصندوق تبدو وكأنها قد حُفرت منذ وقت قريب.

- ثقوب يا سيدي؟

قال ذلك ثم انحنى ليرى، ثم قال: لا يمكنني حقاً أن أجزم؛ لم أنتبه إلى هذه الثقوب من قبل.

- إنها ليست واضحة تماماً، ولكنها موجودة. ما هو سبب وجودها برأيك؟

- لا أعرف يا سيدي، لا أعرف حقاً. ربما كانت من نخر حشرة

ما، أعني خنفساء أو ما شابهها من الحشرات التي تقضم الخشب؟

- حشرة؟ هل هذا ممكن؟

عاد بوارو إلى الجانب الآخر من الغرفة وسأل الخادم: عندما عدت إلى هنا بالسجائر هل كان في هذه الغرفة أي تغيير، أي تغيير مهما كان بسيطاً... تغيير في الكراسي أو الطاولة أو أي شيء؟

- غريب منك أن تسأل هذا السؤال يا سيدي. أما وقد ذكرت ذلك فقد كان هناك تغيير، فقد كان ذلك القاطع الخشبي الذي يحجز الهواء عن غرفة النوم قد تحرك قليلاً إلى الجهة اليسرى.

- هكذا؟

قالها بوارو وقد حرك القاطع.

- بل أكثر قليلاً، نعم، نعم هكذا.

كان القاطع قد أخفى أكثر من نصف الصندوق، بل إنه قد غطى -بوضعه الجديد- كامل الصندوق تقريباً.

- لماذا تمّ تحريك القاطع برأيك؟

- لا رأي لي يا سيدي.

(ها هي آنسة ليمون أخرى!)

أضاف بيرجس متشككاً: أعتقد أن هذا من شأنه أن يُبقي الطريق مفتوحاً إلى غرفة النوم، إذا ما رغب النسوة في ترك معاطفهن هناك مثلاً.

- ربما، وربما كان هناك سبب آخر.

نظر بيرجس متسائلاً، فمضى بوارو قائلاً: إن القاطع يخفي الصندوق الآن ويخفي السجادة تحت الصندوق. ولو افترضنا أن الرائد ريتش قد طعن كلايتون لكان الدم سيبدأ بالانسياب من الشروخ الموجودة في أسفل الصندوق، وربما لاحظ أحدهم ذلك كما لاحظته أنت صباح اليوم التالي. وهكذا فقد تم سحب القاطع.

- لم أفكر بذلك مطلقاً يا سيدي.

- ما هو نوع الإضاءة هنا، قوية أم باهتة؟

- سأريك إياها يا سيدي.

سحب الخادم الستائر بسرعة وأشعل مصباحين كان ضوؤهما خافتاً لا يكاد يسمح حتى بالقراءة. نظر بوارو إلى مصباح معلق بالسقف فقال الخادم: لم يكن هذا المصباح مضاء يا سيدي، إنه لا يُستعمَل إلا نادراً.

نظر بوارو حوله، فقال الخادم: لا أعتقد أنك يمكن أن ترى بقعة الدم يا سيدي، فالضوء خافت جداً.

- أنت محق في ذلك، ولكن لماذا تم سحب القاطع إذن؟

ارتعش بيرجس ثم قال: إن التفكير في أن سيداً لطيفاً كالرائد ريتش يفعل شيئاً كهذا أمر مرعب فعلاً.

- أليست لديك شكوك في أنه فعلها؟ لماذا فعلها يا بيرجس؟

- حسناً، لقد خاض غمار الحرب طبعاً، وربما كان قد أصيب بجرح ما في رأسه. يقولون إن أمراً كهذا قد لا تظهر نتائجه إلا بعد سنوات أحياناً، حيث يبدو المصابون بمثل هذه الحالات فجأة أشخاصاً

غريبين لا يدركون حقيقة أفعالهم. ويقال إنهم غالباً ما يُلحقون الضرر بأقرب وأعز الناس إليهم. هل تظن أن الأمر كان كذلك؟

حدق بوارو إليه ثم تنهد والتفت قائلاً: لا، لم يكن الأمر كذلك.

وبخفّةِ ساحرٍ اندسّت ورقة نقدية في يد بيرجس، فقال: آه، شكراً يا سيدي، ولكنني حقاً لا...

قاطعه بوارو قائلاً: لقد ساعدتني كثيراً إذ أريتني هذه الغرفة ومحتوياتها، وإذ رويت لي ما حدث في تلك الليلة. إن المستحيل ليس مستحيلاً! تذكّر ذلك. لقد قلتُ إنه كان هناك احتمالان فقط، وقد كنتُ مخطئاً، فهناك احتمال ثالث.

ثم نظر حوله إلى الغرفة فارتعش جسمه قليلاً، ومضى يقول: افتح الستائر ودع الضوء والهواء يدخلان، فهذه الغرفة بحاجة إليهما. إنها بحاجة إلى تطهير، وسوف يمضي وقت طويل قبل أن تتطهّر مما أصابها... من ذكرى الكراهية المتبقية.

سلم بيرجس بوارو معطفه وقبعته وهو فاغرٌ فمَه حيرةً وارتباكاً، بينما نزل بوارو (الذي يحبّ إلقاء العبارات الغامضة) إلى الشارع بخطوات رشيقة.

-٨-

عندما وصل بوارو إلى بيته أجرى مكالمة هاتفية مع المفتش ميلر وسأله: ما الذي حدث لحقيبة كلايتون؟ لقد قالت زوجته إنه حزم حقيبة.

- كانت في النادي. تركها لدى البواب، ويبدو أنه نسيها وغادر دون أن يأخذها.

- ما الذي كان بداخلها؟

- الأمتعة المتوقعة: بيجاما وقمصان إضافية ولوازم الاغتسال.

- كل شيء.

- ما الذي توقعت أن يكون فيها؟

تجاهل بوارو هذا السؤال وقال: فيما يخص المدية، أقترحُ عليك الإمساك بأية امرأة كانت تنظف بيت عائلة سبينس والتأكد مما إذا كانت قد رأت مثل هذه المدية في المنزل.

- السيدة سبينس؟ هل يعمل عقلك بهذه الطريقة؟ لقد عرضنا المدية على الزوجين ولم يعرفاها.

- اسألهما ثانية.

- هل تعني أن...

- ثم أخبرني بما يقولان.

- لا أكاد أتخيل حقيقة ما تظن أنك قد كشفته!

- اقرأ مسرحية عُطَيل يا ميلر وفكر في شخصياتها، فقد أغفلنا واحداً منهم!

ثم أقفل بوارو الخط وطلب السيدة تشاترتون، فوجد الخط مشغولاً. حاول ثانية بعد قليل وكان الخط مشغولاً مرة أخرى، فاستدعى خادمه جورج وأمره أن يستمر بطلب الرقم حتى يحقق

الاتصال، فقد كان يعلم أن الليدي تشاترتون مولعة بالتحدث بالهاتف إلى حد لا يمكن الشفاء منه.

جلس على كرسي وخلع حذاءه ومدّد قدميه مسترخياً، ثم أخذ يحدّث نفسه: لقد كبرت وأصبحت أتعب بسرعة.

ثم تهلل وجهه ومضى قائلاً: ولكن الخلايا ما زالت تعمل. صحيح أنها بطيئة ولكنها تعمل. عُطَيل... نعم. مَن الذي لفت انتباهي إلى ذلك؟ آه، نعم، السيدة سبينس. الحقيبة، القاطع، الجثة المضطجعة هناك كرجل نائم... إنها جريمة قتل ذكية جرى تصورها مسبقاً والتخطيط لها... وربما الاستمتاع بها!

أخبره جورج أن الليدي تشاترتون على الخط.

- هيركيول بوارو يتكلم يا سيدتي. هل لي أن أتكلم مع ضيفتك؟

- نعم بالطبع. آه يا سيد بوارو، هل قمت بعمل رائع؟

- ليس بعد، ولكن ربما قريباً.

ثم سمع صوت مارغريتا الهادئ العذب، فقال: سيدتي، عندما سألتك إن كنت قد لاحظت أي شيء غير طبيعي أو في غير مكانه في الحفلة في تلك الأمسية قطبت جبينك كما لو كنت قد تذكرت شيئاً ثم فاتك ذكره، فهل كان ذلك الشيء هو موقع القاطع الخشبي في تلك الليلة؟

- القاطع؟ آه، نعم بالطبع؛ فهو لم يكن في مكانه المعتاد تماماً.

- هل لعبتم الورق في تلك الليلة؟

- نعم، لعبنا البريدج لبعض الوقت.

- مَن شارك في اللعب؟

- لعبت أنا مع جيريمي سبينس ضد ليندا وتشارلز، وكنا نتبادل أحياناً. أما جوك مكلارين فإنه لم يلعب، بل اكتفى بإخراج الأشرطة وترتيبها وتحضير الموسيقى التي نريد سماعها.

- هل استمعتم إلى موسيقى عالمية فيما بعد؟

- نعم.

سادت فترة من الصمت، ثم سألت مارغريتا: سيد بوارو، ما كل هذه الأسئلة؟ هل ثمة أمل؟

- هل علمتِ يوماً يا سيدتي حقيقة مشاعر الناس حولك؟

أجاب صوتها وفيه أثر للدهشة: إنني... أظن ذلك.

- أما أنا فلا أعتقد أنك علمت قط. أظنك خالية الذهن، وأعتقد أن هذه هي مأساة حياتك، ولكنها مأساة للآخرين وليست لك أنت. اليوم ذكر لي أحدهم شخصية عُطيل. وكنت قد سألتك إن كان زوجك غيوراً وقلت إنه لا بد غيور، ولكنك قلت ذلك كما لو كان أمراً هيّناً؛ قلتِه كما كان يمكن لديزدمونة أن تقوله وهي لا تدرك الخطر. لقد أدركَتْ -هي أيضاً- غيرة زوجها ولكنها لم تفهمها لأنها لم تحس بالغيرة، ولم تكن لتحسّ بها. أظن أنها كانت غافلة تماماً عن قوة العواطف الإنسانية الحادة، فقد أحبت زوجها بنوع من الحماسة الرومنسية التي ترافق ظاهرة عبادة البطل، كما أحبت صديقه كاسيو ببراءة تامة كصديق حميم، وأعتقد أنها كانت تقود الرجال إلى

الجنون بسبب مناعتها هي نفسها ضد العواطف... هل تفهمين شيئاً من كلامي يا سيدتي؟

ساد الصمت برهة، ثم أجاب صوت مارغريتا بارداً ومنبهراً قليلاً: أنا... في الحقيقة أنا لا أفهم ما تقوله.

تنهد بوارو وقال بنبرة واقعية: سأزورك هذا المساء.

-٩-

لم يكن المفتش ميلر بالرجل الذي يسهل إقناعه، ولكن هيركيول بوارو لم يكن أيضاً بالرجل الذي يمكن التخلص منه قبل أن يحقق أغراضه. وقد تذمّر المفتش ميلر ولكنه أذعن أخيراً. لكنه قال: ومع ذلك، ما علاقة الليدي تشاترتون بالأمر؟

- لا علاقة لها في الواقع، ولكنها منحت حق اللجوء لإحدى صديقاتها، هذا كل ما في الأمر.

- وفيما يخص عائلة سبينس هذه. كيف عرفتَ...؟

- أن المدية أتت منهم؟ كان ذلك مجرد تخمين. وقد خطرت لي الفكرة من عبارة قالها جيريمي سبينس، فقد أوحيت له بأن المدية تعود إلى مارغريتا كلايتون فأظهر أنه يعلم فعلاً أنها ليست لها.

توقف بوارو قليلاً ثم سأل بفضول: ما الذي قالاه لك؟

- لقد اعترفا بأن المدية تشبه كثيراً خنجر زينة كان عندهما، افتقداه قبل بضعة أسابيع ثم نسياه بالفعل. أظن أن ريتش سرقه من بيتهما.

تمتم بوارو قائلاً لنفسه: قبل بضعة أسابيع... آه، نعم؛ لقد بدأ التخطيط منذ فترة طويلة.

- ماذا، ماذا قلت؟

- لقد وصلنا.

قالها بوارو فيما وصلت سيارة الأجرة إلى بيت الليدي تشاترتون في شارع تشيريتون، ودفع بوارو الأجرة.

كانت مارغريتا كلايتون بانتظارهما في غرفتها في الطابق العلوي، وقد تجهم وجهها عندما رأت ميلر فقالت: لم أكن أعرف...

- لم تعرفي من هو الصديق الذي اقترحتُ إحضاره معي؟

- المفتش ميلر ليس من أصدقائي.

- هذا يعتمد على رغبتك (أو عدم رغبتك) في رؤية العدالة تتحقق يا سيدة كلايتون. لقد قُتل زوجك، وعلينا الآن أن نتحدث عن الشخص الذي قتله. هل يمكن أن نجلس يا سيدتي؟

جلست مارغريتا ببطء على كرسي ذي مسند عال في مواجهة الرجلين.

قال بوارو موجّهاً حديثَه إليهما معاً: أطلب منكما أن تصغيا إليّ بشيء من الصبر، فأنا أعتقد أنني أعلم الآن ما حصل في تلك السهرة المشؤومة في شقة الرائد ريتش. لقد بدأنا جميعاً بافتراض خاطئ، وهو أنه كان هناك شخصان فقط سنحت لهما فرصة وضع الجثة في الصندوق: الرائد ريتش وخادمه ويليام بيرجس. ولكننا كنا مخطئين؛ فقد كان في الشقة في تلك الأمسية شخص ثالث سنحت له فرصة مماثلة ليقوم بذلك.

تساءل ميلر مشككاً: من كان ذلك الشخص؟ صبي المصعد؟

- لا؛ بل آرنولد كلايتون.

- ماذا؟! يقوم بإخفاء جثته؟ لقد جُننت.

- طبعاً هو لم يكن جثة، بل كان حياً يرزق. ببساطة: لقد خبّأ نفسه في الصندوق، وهو أمر حدث مِراراً عبر التاريخ؛ كما حصل للعروس الميتة في كتاب «غصن الهدال» مثلاً. لقد خطر هذا ببالي بمجرد رؤية ثقوب حُفِرت في الصندوق حديثاً. لماذا حُفرت؟ حُفرت حتى تسمح بدخول كمية كافية من الهواء إلى الصندوق. لماذا سُحب القاطع من مكانه المعتاد في تلك الليلة؟ سحب لكي يخفي الصندوق عن أعين الحاضرين في الغرفة، بحيث يمكن للرجل المختبئ أن يرفع غطاء الصندوق من وقت لآخر ليخفف من ضيقه ويستمع إلى الحديث الدائر بشكل أفضل.

تساءلت مارغريتا وقد اتسعت عيناها استغراباً: ولكن لماذا؟ لماذا يريد آرنولد الاختفاء في الصندوق؟

- أأنت التي تسألين يا سيدتي؟ لقد كان زوجك رجلاً غيوراً، وكان أيضاً لا يفصح عما في داخله؛ كان «محصور المشاعر» كما وصفَته صديقتك السيدة سبينس. وقد تفاقمت غيرته وباتت تعذّبه؛ فهو لم يكن متأكداً إن كنت عشيقة لريتش أم لا... وكان عليه أن يتأكد! وهكذا جاءت «برقية من إسكتلندا»... برقية لم يرسلها أحد ولم يرها أحد! ثم تم حزم الحقيبة والتخلص منها بنسيانها في النادي، ثم ذهب إلى الشقة عندما كان متأكداً من أن ريتش غير موجود فيها وأخبر الخادم أنه سيكتب ملاحظة، وحالما أصبح بمفرده حفر الثقوب في الصندوق وسحب القاطع ثم نزل في الصندوق، ففي تلك الليلة كان سيعلم بالحقيقة. ربما بقيت زوجته في الشقة بعد انصراف الآخرين،

وربما ذهبت معهم ثم عادت إلى الشقة... في تلك الليلة كان الرجل اليائس الذي أرهقته الغيرة عازماً على أن يعرف الحقيقة!

قال ميلر بصوت تملؤه الريبة: هذا هراء! هل تعني أنه طعن نفسه؟

- لا، بالطبع لم يفعل؛ فقد طعنه شخص آخر، شخص كان يعلم أنه هناك. لقد كانت جريمةَ قتلٍ بحقّ، جريمةً خُطّط لها بعناية وتم التفكير فيها لفترة طويلة. فلتفكرا في الشخصيات الأخرى في مسرحية عُطيل... وأقصد بذلك شخصية أياغو. التسميم الخبيث لعقل آرنولد كلايتون بالتلميحات والشكوك... أياغو المخلص، الصديق الوفي، الرجل الذي يصدّقه المرء دائماً! لقد صدّقه آرنولد كلايتون وتركه يتلاعب بغيرته ويؤججها إلى مستوى الحمى. هل كانت فكرةُ الاختباء في الصندوق فكرةَ آرنولد؟ ربما كان يعتقد أنها فكرته، وربما كانت كذلك فعلاً! وهكذا فقد تم إعداد المشهد، كما تم إعداد المدية التي سُرقت قبل ذلك بأسابيع. أقبل الليل، والأضواء خافتة والمسجّل يعمل، وأربعة ضيوف يلعبون الورق، والرجل العجوز يقف هناك كأنه مشغول بخزانة التسجيلات قرب الصندوق الإسباني والقاطع الذي يخفيه، ثم ينسلّ خلف القاطع فيرفع الغطاء ويضرب ضربته... حركة جريئة ولكنها سهلة تماماً!

- كان كلايتون سيصرخ!

- إلاّ إذا كان مخدَّراً. فحسب شهادة الخادم كانت الجثة مضطجعة كرجل نائم. كان كلايتون نائماً؛ فقد خدّره الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه تخديره، الرجل الذي تناول معه كأساً في النادي.

- جوك مكلارين؟!

ارتفع صوت مارغريتا عالياً باستغراب طفولي: جوك؟ لا، لا يمكن أن يكون العزيز جوك. لماذا؟ لقد عرفته طوال حياتي! لماذا يفعل ذلك بالله عليك؟

التفت بوارو إليها قائلاً: ولماذا تبارز الإيطاليان؟ ولماذا أطلق شاب النار على نفسه؟ إن جوك مكلارين رجل لا يفصح عن مشاعره. لقد ضغط على مشاعره وأقنع نفسه بأن يكتفي بأن يكون صديقاً مخلصاً لك ولزوجك، ثم ما لبث أن دخل الرائد ريتش في حياتك، وكان ذلك فوق طاقته! وهكذا فقد خطط في ظلمات الكراهية ما يكاد يكون جريمة كاملة... جريمة مزدوجة؛ لأنه كان من المؤكد اعتبار ريتش مذنباً في هذه القضية. لقد فكر بإبعاد ريتش وزوجك كليهما عن الطريق، إذ يمكن لك أخيراً أن تلتفتي إليه. وربما كنت ستفعلين ذلك يا سيدتي... أليس كذلك؟

راحت تحدق إليه وقد اتسعت عيناها وعقد الرعبُ لسانها، وتمتمت بلا وعي: ربما... لا أدري...

ثم تكلم المفتش ميلر بثقة مرجعية مفاجِئة قائلاً: هذا كلام جميل يا بوارو، ولكنه نظرية لا أكثر. ليس لديك أي دليل، وربما لم تكن في هذه النظرية كلمة واحدة صحيحة.

- بل إنها صحيحة كلها.

- ولكن لا يوجد أي دليل، ليس لدينا ما نعتمد عليه.

- أنت مخطئ؛ فأنا أعتقد أن مكلارين سوف يعترف بجريمته

لو وُضِعت أمامه هذه الحقائق، أي إذا أفهمناه بوضوح أن مارغريتا كلايتون تعرف.

سكت بوارو لحظة ثم أضاف: لأنه ما إن يدرك أنه قد خسر حتى تكون الجريمة الكاملة -بنظره- قد ذهبت عَبَثاً.

* * *

المضطهَد

-١-

مسّدَت ليلي مارغريف قفازَيها على ركبتها بحركة عصبية ووجّهت نظرة إلى الشخص الجالس على الكرسي الضخم أمامها. كانت قد سمعت عن المفتش الشهير هيركيول بوارو، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي تراه فيها شخصياً.

لقد أربكت هيئته المضحكة، بل حتى السخيفة، الصورةَ التي كانت في مخيّلتها عنه. فهل يمكن لهذا الرجل الضئيل المضحك برأسه البيضوي وشاربه الضخم أن يقوم فعلاً بتلك الأعمال الرائعة التي تُنسَب إليه؟ كما أن التسلية التي شغل نفسه بها الآن بدت لها طفولية تماماً، إذ كان يكوّم مكعبات خشبية صغيرة ملوَّنة بعضَها فوق بعض، وبدا أنه يهتم بنتيجة هذا البناء أكثر من اهتمامه بالقصة التي كانت ترويها.

ومع ذلك فقد بادر صمتها المفاجئ بنظرة حادة قائلاً: أرجوك أن تستمرّي يا آنسة، ولا تحسبي أنني لا أصغي إليك. تأكدي أنني أصغي إلى ما تقولين بكل انتباه.

ثم عاد ليكوّم مكعباته الخشبية الصغيرة بعضها فوق بعض بينما تابع صوت الفتاة في رواية القصة. كانت قصة مروِّعة من قصص العنف والمآسي، ومع ذلك كان صوت الفتاة هادئاً غير منفعل، وكان سردها للقصة موجزاً إلى الحد الذي بدا معه مفتقداً للمسحة الإنسانية.

توقفت أخيراً وقالت بلهفة: أرجو أن أكون قد وضّحت لك كل شيء؟

هز بوارو رأسه عدة مرات بالإيجاب، ثم طوّحَ بيده المكعبات الخشبية التي تناثرت على الطاولة، واتكأ بظهره على الكرسي وهو يفرك أصابعه ونظره معلق بالسقف، وبدأ يعيد تلخيص القصة: لقد قُتل السير روبن آستويل منذ عشرة أيام، ثم اعتقل الشرطة يوم أمس الأول، الأربعاء، ابن أخته تشارلز ليفيرسن. أما الأدلة التي اجتمعت ضده فهي حسب معلوماتك (وأرجو أن تصحّحي لي يا آنستي إذا أخطأت) أن السير روبن كان ساهراً يكتب في معتزله الخاص المسمى غرفة البرج، ثم أتى السيد ليفيرسن متأخراً ودخل مستعملاً مفتاح مزلاج. وقد سمعه النادل وهو يتشاجر مع خاله إذ كانت غرفته تحت غرفة البرج تماماً، وانتهى الشجار بصوت ارتطام كأنه-صوت رمي كرسي أعقبته صرخة مكتومة. ذُعِرَ النادل وفكرَ بالنهوض ليتبين حقيقة الأمر، ولكنه سمع بعد ثوان صوت السيد ليفيرسن يغادر الغرفة بمرح وهو يصفر بعض الألحان، فأقلع عن التفكير بالمسألة. وفي صباح اليوم التالي وجدت إحدى الخادمات السير روبن ميتاً قرب مكتبه، وكان قد ضُرب على رأسه بأداة ثقيلة. وكما فهمتُ فإن النادل لم يخبر الشرطة فوراً بما سمعه... هذا طبيعي كما أعتقد. ماذا ترين أنت يا آنسة؟

جفلت ليلي مارغريف من السؤال المفاجئ فقالت: عفواً، ماذا قلت؟

- إن المرء يبحث عن الاعتبارات الإنسانية في مثل هذه القضايا، أليس كذلك؟ إن سردك للقصة كان رائعاً ومختصَراً إلى الحد الذي جعلتِ فيه من أبطال هذه الدراما آلات أو دمى، أما أنا فأبحث دوماً عن الطبيعة البشرية. أقول لنفسي مثلاً: إن هذا النادل... ماذا قلتِ اسمه؟

- اسمه بارسونز.

- لا بد أن بارسونز هذا يتمتع بالصفات التي تميز طبقته، لا بد أن يعارض الشرطة بشدة ولا يخبرهم إلاّ بأقل ما يستطيعه. وقبل هذا كله فإنه لن يبوح بشيء يمكن أن يؤدّي إلى تجريم أحد أفراد الأسرة التي يخدمها. سوف يتمسك بكل ما أوتي من قوة وعناد بفكرة أن دخيلاً أو لصاً هو الجاني. نعم، إن ولاء طبقة الخدم يشكّلُ موضوعاً ممتعاً للدراسة.

اتكأ إلى الخلف مبتسماً، ثم تابع: وفي أثناء ذلك أدلى كل مَن في المنزل بشهادته، ومنهم السيد ليفيرسن الذي قال إنه عاد متأخراً وذهب إلى سريره دون رؤية خاله.

- هذا ما قاله.

- وما من أحد رأى سبباً للشك في كلامه، سوى بارسونز طبعاً. ثم أتى محقق من شرطة اسكتلنديارد... قلتِ إن اسم المحقق هو ميلر، أليس كذلك؟ أظن أنني أعرفه، لقد قابلته مرة أو مرتين في الماضي. إنه رجل صارم كما يُقال، دؤوب ومراوغ. نعم، أعرفه.

وبالطبع فقد رأى المحقق ميلر ما لم تره الشرطة المحلية، وهو أن بارسونز قلقٌ ومضطربٌ ويعرف شيئاً لم يَبُحْ به، فقام بالتركيز عليه. كان من الواضح تماماً أن أحداً لم يقتحم المنزل في تلك الليلة، وأن البحث عن القاتل ينبغي أن يتم داخل البيت لا خارجه. وكان بارسونز حزيناً وخائفاً، وأحسّ بأنه سيشعر بالارتياح إذا خرج ذلك السرّ من صدره، فها هو قد بذل كل ما بوسعه لتجنب الفضيحة، ولكنّ لكل شيء حداً. وهكذا استمع المحقق ميلر لقصة بارسونز وسأل سؤالاً أو اثنين، ثم أجرى بعض التحريات الخاصة بحيث ظهرت له القضية التي بناها قوية جداً... نعم، قوية جداً. كانت هناك آثار أصابع ملطّخة بالدماء على زاوية الخزانة في غرفة البرج، وكانت مطابقة لبصمات تشارلز ليفيرسن. كما أخبرت الخادمةُ المحققَ ميلر أنها وجدت في غرفة السيد ليفيرسن في صباح اليوم التالي للجريمة وعاءً فيه ماء اصطبغ بالدم، وأن ليفيرسن فسّرَ ذلك بأنه قد جرح إصبعه. وكان في إصبعه جرح صغير بالفعل، ولكنه صغير جداً! وكان سوار كمّ قميصه قد غُسِل، ولكنهم وجدوا بقع دم على كُمّ معطفه. كما أن ليفيرسن كان بحاجة ماسة إلى المال، وكان سيرثُ مالاً بسبب موت السير روبن. آه، نعم، إنها قضية قوية وواضحة يا آنسة.

صمت قليلاً ثم قال: ومع ذلك فقد أتيتني اليوم؟

هزّت ليلي مارغريف كتفيها النحيلين قائلة: لقد أخبرتك -يا سيد بوارو- أن الليدي آستويل هي التي أرسلتني.

- أي أنك ما كنت لتأتي طواعية، أليس كذلك؟

نظر إليها نظرة قاسية، ولكنها لم تجب عن سؤاله.

- لم تجيبي عن سؤالي.

بدأت ليلي مارغريف بتمسيد قفازَيها ثانية، ثم قالت: إنه لأمر صعب يا سيد بوارو. عليّ أن أراعي ولائي للّيدي آستويل؛ فأنا لا أعدو أن أكون مرافِقة مدفوعاً أجرُها في الواقع، وإن كانت قد عاملتني -دائماً- كما لو كنت ابنتها أو ابنة أخيها. كانت كريمة معي بشكل لا مثيل له، ومهما كانت أخطاؤها فإنني لا أريد الظهور بمظهر من ينتقد أفعالها أو... أو من يريد التأثير فيك لصرفك عن تولي القضية.

- من المستحيل التأثير في هيركيول بوارو؛ هذا ما لا يمكن أن يحدث.

قالها بوارو بنشوة وأضاف: أراكِ تعتقدين أن لدى الليدي آستويل أمراً يدفعها إلى هذا التصرف. هيا... أليس هذا هو الأمر؟

- كيف لي أن أقول؟

- تكلمي يا آنستي.

- أعتقد أن الأمر سخيف برمّته.

- أهذا ما تشعرين به؟

- لا أريد أن أقول شيئاً بحق الليدي آستويل.

تمتم بوارو بلطف: إنني أفهم وضعك تماماً.

ولكن عينيه شجعتاها على الاستمرار، فمضت قائلة: إنها من النوع الطيب جداً بالفعل، وهي لطيفة بدرجة كبيرة ولكنها ليست... كيف أعبّر عن ذلك؟ ليست امرأة متعلمة. لعلك تعرف أنها كانت

ممثلة عندما تزوجها السير روبن، وكانت تحمل كل أنواع الخرافات والتعصّب والأفكار المسبقة، فإذا قالت شيئاً فيجب أن يكون كما قالت، وهي لا تصغي إلى صوت العقل. لم يكن المحقق لبقاً معها، وذلك ما استفزّها وأعادها إلى طبيعتها القديمة، فهي تقول إن من السخافة التشكيك بالسيد ليفيرسن وإن هذا التشكيك من الأخطاء البلهاء الغبية التي يقع الشرطة فيها، وقالت إن عزيزها تشارلز لم يفعلها بالطبع.

- أليست لها أسباب لذلك؟

- أبداً، ولا سبب.

- أكيد! هكذا هو الأمر؟ أخبريني حقاً.

- لقد قلت لها إنه ليس من المناسب أن آتي إليك وليس عندي سوى تصريحها ذاك، ودون أي دليل يمكن الانطلاق منه.

- قلتِ لها ذلك؟ هل قلتِه لها حقاً؟ هذا جيد.

وارتفعت عيناه إلى ليلي مارغريف في نظرة شمولية متفحّصة سريعة، رأى فيها بدلتها السوداء الأنيقة وقبعتها الجميلة، رأى أناقتها ووجهها الجميل ذا الذقن المدبب وعينيها عميقتَي الزرقة برموشهما الطويلة. وبلا وعي منه تغير موقفه، فطغى اهتمامه الآنيّ بالفتاة الجالسة أمامه على اهتمامه بالقضية.

قال أخيراً: تبدو الليدي آستويل-كما أتخيلها يا آنسة- مجرد امرأة تافهة يغلب عليها عدم الاتزان.

- هذا هو وصفها بالضبط. إنها لطيفة جداً كما قلت لك، ولكن

الحوار معها مستحيل، كما أنه يستحيل على المرء أن يحملها على النظر إلى الأشياء بمنطقية.

- ربما كانت تشك في شخص ما، شخص تافه.

صاحت ليلي: هذا هو ما تفعله تماماً؛ فهي تحسّ بكراهية فظيعة تجاه ذلك الرجل المسكين، سكرتير السير روبن، وتقول إنها على يقين من أنه هو الذي ارتكب الجريمة. ومع ذلك فقد ثبت بشكل قاطع أن المسكين أوين تريفوسيس لم يكن بإمكانه أن يرتكب الجريمة.

- وهل لديها أسباب تدفعها إلى هذا اليقين؟

- طبعاً لا، إنه حدسُها ليس غير.

كان صوت ليلي مارغريف مليئاً بالاحتقار. ابتسم بوارو وقال: أفهم من ذلك أنك لا تؤمنين بالحدس يا آنسة؟

- أرى أنه ليس سوى هُراء.

أسند بوارو ظهره إلى مسند كرسيه من جديد متمتماً: يا للنساء! يحلو لهن الاعتقاد بأن الحدس سلاحٌ خاص وهبته لنّ العناية الإلهية، ولكنه يضللهن تسع مرات على الأقل مقابل كل مرة يهديهن فيها إلى الصواب.

- هذا صحيح، ولكنني قلت لك ما هي طبيعة الليدي آستويل. ببساطة: لا يمكنك الحوار معها.

- ولذلك فقد أتيت أنت، العاقلة الحكيمة، أتيت إليّ كما طُلب منك واستطعت أن تضعيني في مجرى القضية.

شيء ما في نبرة صوته جعلها تنظر إليه بحدة. ثم قالت معتذرة: بالطبع أنا أعلم كم هو ثمين وقتك.

- هذا لطف كبير منك يا آنسة. في الحقيقة أنت مصيبة في ذلك، ففي هذا الوقت بالذات توجد بين يديّ قضايا كثيرة ذات أهمية.

قالت وهي تنهض: ظننت ذلك، سأخبر الليدي آستويل...

ولكن بوارو لم ينهض، بل استرخى في مقعده إلى الخلف ونظر بثبات إلى الفتاة، ثم قال: هل تتعجلين الذهاب يا آنستي؟ اجلسي دقيقة بعدُ، أرجوك.

رأى الدماء تندفع إلى وجهها ثم تنقشع، وجلست ثانية ببطء ودون رغبة.

قال بوارو: إن الآنسة سريعة وحاسمة، ولكن كان عليها أن تسامح عجوزاً مثلي يأخذ قراراته ببطء. لقد أسأتِ فهمي يا آنسة، فأنا لم أقل إنني لن أذهب لرؤية الليدي آستويل.

- هل ستأتي إذن؟

كانت نبرتها باهتة، ولم تكن تنظر إليه بل إلى الأرض، ولذلك لم تنتبه إلى التدقيق الحادّ الذي بدا عليه وهو ينظر إليها.

- أخبري الليدي آستويل -يا آنسة- أنني أضع نفسي كلياً في خدمتها، وسأكون بعد ظهر اليوم في مون ريبوز، أليس هذا هو اسم المنزل؟

نهض فنهضت الفتاة قائلة: إنني... حسناً، سأخبرها. كم هو

لطيف منك أن تأتي يا سيد بوارو، مع أنني أخشى أن تكتشف أنك إنما دُعيت إلى مهمة تشبه مطاردة الوزّ البري.

- هذا ممكن، ولكن... من يدري؟

رافقها إلى الباب من قبيل المجاملة، ثم عاد إلى غرفته مقطباً حاجبيه غارقاً في التفكير. هزّ رأسه مرة أو مرتين ثم فتح باب الغرفة ونادى خادمه: عزيزي جورج، أرجوك أن تحضّر لي حقيبة سفر صغيرة، فسوف أذهب إلى الريف اليوم.

- حسناً يا سيدي.

كان جورج شخصاً ذا شكل إنكليزي حقيقي؛ طويلاً وشاحباً وخالياً من العواطف.

قال بوارو وهو يرتمي في كرسيّه ثانية: إن الفتيات يشكّلن ظاهرة مثيرة يا جورج، ولا سيما إذا كانت الواحدة منهن ذات عقل وذكاء. فأن تطلب من شخص أن يفعل أمراً ما في الوقت الذي تنفّره منه... إنه لأمر حساس يتطلب الكثير من الذكاء والدهاء. لقد كانت بارعة جداً، نعم، بارعة جداً... ولكن هيركيول بوارو -يا عزيزي جورج- ذو ذكاء خارق تماماً.

- لقد سمعتُك تقول ذلك يا سيدي.

- إن ما كانت تفكر فيه لم يكن سكرتير روبن، فقد تعاملت باحتقار مع اتهام الليدي آستويل له، وكانت حريصة -في الوقت نفسه- على أن لا يُقدم أحدٌ على إزعاج الكلاب النائمة. ولكنني سأذهب لإزعاج تلك الكلاب يا عزيزي جورج، بل لأحملها على الاقتتال! إن في مون ريبوز قصة مثيرة، هناك دراما إنسانية تثيرني. لقد

كانت هذه الطفلة بارعة، ولكنها لم تكن بارعة بما فيه الكفاية. إني لأتساءل: ما الذي سأكتشفه هناك؟

ساد صمت مثير بعد هذه الكلمات لم يقطعه إلا صوت جورج الذي قال وكأنه يعتذر: هل أضع في حقيبتك ملابس رسمية يا سيدي؟

نظر بوارو إليه بحزن قائلاً: ما أحسن تركيزك وانتباهك لعملك! إنك تناسبني تماماً يا جورج.

-٢-

عندما توقف قطار الخامسة إلاّ خمس دقائق في محطة أبوتز كروس نزل منه هيركيول بوارو بكامل أناقته، وقد شمّعَ شاربيه حتى التيبّس. سلّم تذكرته وعبر الحاجز ليرى سائقاً يبادره بالقول: السيد بوارو؟

ابتسم له بوارو وقال: هذا هو اسمي.

فتح السائق باب سيارة الرولز رويس وقال: تفضل من هنا يا سيدي.

كان البيت على بعد ثلاث دقائق فقط من المحطة، وهناك نزل السائق ثانية وفتح باب السيارة لينزل بوارو ويجد النادل وقد وقف فاتحاً له البوابة الأمامية.

تأمّل بوارو بسرعة واستحسان الواجهة الخارجية للمنزل قبل أن يعبر الباب المفتوح. كان بيتاً ضخماً مبنياً من الآجر الأحمر لا يميل إلى الجمال بقدر ما يُشيع شعوراً بالراحة الحقيقية.

دخل بوارو إلى الصالة حيث تناول النادل قبعته ومعطفه برشاقة وهو يتمتم بتلك النبرة المنخفضة المؤدّبة التي لا يكتسبها إلاّ أفضل الخدم قائلاً: سعادتها بانتظارك يا سيدي.

تبع بوارو النادل على الدرج المفروش بالسجاد الناعم. كان هذا هو بارسونز بلا شك. إنه خادم مُتمرّس تماماً، ذو أسلوب مناسب خالٍ من العاطفة. انعطف في أعلى الدرج يميناً ومشى في ممر حيث دخل من أحد الأبواب إلى غرفة انتظار صغيرة فيها بابان يُفضِيان إلى غرف أخرى، ثم فتح الباب الواقع إلى يساره معلناً: السيد بوارو يا سيدتي.

لم تكن الغرفة بالغة الضخامة ولكنها كانت مزدحمة بالأثاث والتحف، ونهضت امرأة تلبس السواد فتقدّمت من بوارو بسرعة قائلة وقد مدت يدها: سيد بوارو.

وبسرعة سبرت عيناها تلك الهيئة المتأنقة، وتوقفت قليلاً متجاهِلةً انحناءة الرجل الضئيل أمامها وتمتمته قائلاً: "سيدتي"، ثم تركت يده بعد أن ضغطت عليها بقوة وهي تقول: إنني أؤمن بالرجال ذوي الأجسام الضئيلة، فهم الرجال الأذكياء عادة.

- ولكن المحقق ميلر رجل طويل فيما أظن؟

- إنه دعيٌّ أبله. اجلس هنا بجانبي لو سمحت.

أشارت إلى الأريكة، ومضت قائلة: لقد بذلت ليلي كل ما بوسعها لتثنيني عن دعوتك، ولكنني لم أبلغ هذا العمر إلاّ وأعرف ما أريد تماماً.

علّق بوارو هو يتبعها إلى الأريكة قائلاً: وهذا إنجاز نادر.

جلست الليدي آستويل بارتياح بين الوسائد ثم التفتت لتواجهه وقالت: إن ليلي فتاة عزيزة عليّ، ولكنها تعتقد أنها تعلم كل شيء، وخبرتي تقول لي إن أناساً من هذا النوع يكونون غالباً على خطأ. أنا لست ذكية -يا سيد بوارو- ولم أكن ذكية، ولكنني أكون على حق عندما يكون كثير من الأغبياء على خطأ. إنني أؤمن بالحدس. هل تريد مني الآن أن أخبرك مَن القاتل أم لا تريد؟ إن المرأة تعرف يا سيد بوارو.

- وهل تعرف الآنسة مارغريف؟

سألته بنبرة حادة: ماذا قالت لك؟

- لقد أعطتني وقائع القضية.

- الوقائع؟ آه، وكانت تلك الوقائع ضدّ تشارلز تماماً بالطبع؟ ولكنني أقول لك يا سيد بوارو: إنه لم يرتكب الجريمة؛ أنا أعرف أنه لم يرتكبها.

خاطبته بجدية تبعث على القلق.

- أأنتِ واثقة تماماً يا ليدي آستويل؟

- تريفوسيس هو الذي قتل زوجي يا سيد بوارو، أنا واثقة من ذلك.

- لماذا؟

- هل تعني لماذا قتله أم لماذا أكون واثقة؟ لقد قلت لك إنني أعرف ذلك! إنني مضحكة في مثل هذه الأمور، فأنا أبني قناعتي بسرعة ثم أثبتُ عليها.

- وهل يستفيد السيد تريفوسيس من موت السير روبن بأية طريقة؟

أجابت بحزم: لم يترك له قرشاً واحداً، وهذا ما يُظهر لك أن روبن لم يكن ليحبّه أو ليثقَ به.

- فهل عمل لفترة طويلة مع السير روبن إذن؟

- ما يقرب من تسع سنوات.

قال بوارو بهدوء: إنه وقت طويل، وقت طويل جداً في العمل مع شخص واحد. نعم، لقد كان من شأن تريفوسيس أن يعرف رئيسه بشكل جيد.

حدّقت الليدي آستويل إليه ثم سألته: ما الذي ترمي إليه؟ إنني لا أرى علاقة لذلك بالقضية.

- كنت أتابع فكرة بسيطة خاصة بي، فكرة صغيرة ربما لا تكون مثيرة للاهتمام، ولكنها طريقة مبتكرة، وهي تخص تأثير الخدمة في الناس.

قالت الليدي آستويل وهي ما تزال تحدق إليه وفي صوتها نبرة شك: إنك ذكي جداً بالفعل، أليس كذلك؟ الكل يؤكد هذا.

ضحك بوارو قائلاً: ربما أثنيتِ عليّ أنت أيضاً في يوم ما يا سيدتي. ولكن لنعد إلى الدافع؛ أخبريني الآن عن نزلاء بيتك، عن الناس الذين كانوا هنا في البيت يومَ وقعت المأساة.

- كان تشارلز هنا طبعاً...

- تشارلز هو ابن أخت زوجك كما فهمت، وليس ابن أختك أنت.

- نعم، إنه الابن الوحيد لشقيقة روبن، وكانت قد تزوجت رجلاً غنياً نوعاً ما، ولكن وقع حادث اصطدام (كما يحدث في المدينة دوماً) فتوفي وتوفيت زوجته أيضاً، وجاء تشارلز ليعيش معنا، وكان وقتها في الثالثة والعشرين من عمره يدرس ليصبح محامياً، ولكن عندما وقع الحادث أخذه روبن وضمّه إلى مكتبه.

- وهل كان تشارلز مُجِدّاً في عمله؟

- إنني أحب الرجل سريع الفهم. ولكن تشارلز لم يكن مجدّاً، وكانت المشكلة تكمن في هذه النقطة، إذ كثيراً ما كان يتشاجر مع خاله بسبب الفوضى في عمله. ولكن ذلك لم يكن ليعني أن المسكين روبن هو شخص يسهل التعامل معه أيضاً؛ لقد قلت له مراراً إنه نسي ماذا يعني أن يكون المرء شاباً ونسي شبابه نفسه. لقد كان مختلفاً تماماً في تلك الأيام يا سيد بوارو.

تنهدت الليدي آستويل وهي تتابع خيط ذكرياتها، فقال بوارو: التغيير لا بد منه، إنه قانون الحياة.

- ولكنه لم يكن فظاً معي أبداً. حتى في المرات القليلة التي كان فظاً فيها معي كان يعتذر بعدها... عزيزي المسكين روبن!

- لقد كان صعب المراس، أليس كذلك؟

- كان بوسعي أن أتدبر أمره دوماً.

قالت ذلك بلهجةِ مروّضة أسودٍ ناجحة، ثم أضافت: ولكن

الأمر كان مزعجاً أحياناً عندما يفقد أعصابه مع الخدم. توجد طرق ناجحة للتعامل مع الخدم، ولكن طريقته لم تكن صحيحة.

- كيف قُسِّمت الأموال التي تركها السير روبن يا سيدتي؟

- نصف لي ونصف لتشارلز.

قالت ذلك على الفور، ثم أضافت: لا يقدّم المحامون المسألةَ بهذه البساطة، ولكن هذا هو ما حدث للتركة باختصار.

هزّ بوارو رأسه متمتماً: نعم، نعم، والآن أريد منك أن تصفي لي نزلاء البيت يا ليدي آستويل. كان فيه -بالإضافة إليك- ابن أخت السير روبن السيد تشارلز ليفيرسن، وسكرتيره السيد أوين تريفوسيس، والآنسة ليلي مارغريف. هلاّ حدثتِني قليلاً عن تلك الفتاة.

- تريد أن تعرف شيئاً عن ليلي؟

- نعم، هل ترافقك منذ فترة طويلة؟

- منذ نحو سنة. لقد بدّلت كثيراً من المرافِقات لأنهن جميعاً أثرن أعصابي بطريقة أو بأخرى، أما ليلي فقد كانت مختلفة عنهن؛ كانت لبقة وحصيفة الرأي، وفوق ذلك كله ذات مظهر جميل جداً، وأنا أحب أن أرى بقربي وجهاً جميلاً يا سيد بوارو. أنا شخصية عجيبة أحب وأكره فوراً ومباشرة، وقد قلت لنفسي إن تلك الفتاة ستناسبني فور رؤيتي لها.

- هل جاءتك بتوصية من أصدقاء لك يا ليدي آستويل؟

- أظن أنها جاءت استجابة لإعلان... نعم، استجابة لإعلان.

- هل تعلمين شيئاً عن عائلتها، ومن أين هي؟

- أظن أن والدَيها في الهند. لا أعرف كثيراً عنهما في الواقع، ولكن يمكنك أن تُميّز بنظرة واحدة أنها سيدة فعلاً. أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- آه، تماماً، بالطبع.

- طبعاً أنا نفسي لست سيدة، وأنا أعرف ذلك والخدم يعرفون ذلك، ولكن ما من دناءة في طبيعتي وأستطيع تقدير الأشياء الحقيقية عندما أراها. كما أنه ما من شخص كان أكثر لطفاً بي من ليلي، ولذلك فإنني أنظر إلى تلك الفتاة كما لو كانت ابنتي يا سيد بوارو.

امتدت يد بوارو اليمنى فعدّلت من وضع واحد أو اثنين من الأشياء المصفَّفة على الطاولة المجاورة. ثم سألها: وهل كان السير روبن يشاركك الشعور نفسه؟

كانت عيناه مركَّزتين على التحف الصغيرة، ولكنه لاحظ بوضوح الصمت الذي سبق جوابها. قالت: الأمر مختلف مع الرجال. طبعاً كانا... كانا متعايشين بشكل جيد.

- شكراً يا سيدتي.

قالها بوارو وهو يبتسم لنفسه، ثم أضاف: وهل كان أولئك فقط كل مَن كان في المنزل تلك الليلة، باستثناء الخدم طبعاً؟

- آه، كان فكتور موجوداً أيضاً.

- فكتور؟

- نعم، شقيق زوجي وشريكه.

- وهل يعيش معكم؟

- لا؛ لقد جاء مؤخراً في زيارة من غرب إفريقيا، حيث يعيش منذ بضع سنوات.

- غرب إفريقيا؟

تمتم بذلك مدركاً بأن الليدي آستويل يمكن أن تسترسل في الموضوع فيما لو مُنحت الوقت الكافي.

- يقولون إنها بلاد رائعة، ولكنني أحسبها من تلك الأماكن التي تترك أسوأ الأثر في الرجل؛ فالعائدون من هناك يشربون كثيراً حتى يفقدوا سيطرتهم. ما من أحدٍ من عائلة آستويل يمتلك أعصاباً هادئة، وقد بدا سلوك فكتور مستهجَناً منذ عودته من إفريقيا... لقد أفزعني مرة أو مرتين.

- عجباً! هل أفزع الآنسة مارغريف أيضاً يا ترى؟

- ليلي؟ لا أعتقد أنها رأت منه الكثير.

دوّن بوارو ملاحظة أو اثنتين في دفتره الصغير، ثم أعاد القلم إلى مكانه ودفترَ الملاحظات إلى جيبه وقال: أشكرك يا ليدي آستويل، وأريد الآن -لو سمحت- أن أقابل بارسونز.

- هل تريده هنا؟

امتدت يدها نحو الجرس، ولكن بوارو أوقف حركتها قائلاً: لا، لا وألف لا؛ سأذهب أنا إليه.

لا شكّ أن الليدي آستويل قد أصيبت بخيبة أمل لعدم قدرتها على المشاركة في المشهد القادم، فقد كان بوارو يتصنع السرية وهو يقول: إن هذا ضروري جداً.

قالها بأسلوب غامض تاركاً الليدي آستويل لدهشتها.

* * *

وجد النادل بارسونز في حجرة الأواني يلمّع الفضيات، فافتتح بوارو المقابلة بواحدة من انحناءاته الصغيرة المضحكة، ثم قال: ينبغي لي أن أقدم نفسي. أنا رجل تحرٍّ خاص.

- نعم يا سيدي، لقد علمنا بذلك.

كانت نبرته تنمّ عن الاحترام، ولكنها حيادية.

- أرسلت الليدي آستويل في طلبي، إذ أنها غير راضية، بل غير راضية أبداً.

- سمعت سعادتها تقول ذلك في مناسبات عديدة.

- في الحقيقة أستطيع أن أعيد على مسمعك الأشياء التي تعرفها أصلاً. دعنا لا نضيّع وقتنا -إذن- في الأشياء التافهة؛ لو تكرمت خذني إلى غرفة نومك وأخبرني بالضبط ما هو الذي سمعته هناك ليلة الجريمة.

كانت غرفة النادل في الطابق الأرضي ملحَقة بقاعة الخدم، وقد كانت نوافذ تلك القاعة مزوَّدة بمشابك حديدية وغرفته الحصينة في زاويتها.

أشار بارسونز إلى السرير الضيق وقال: كنت قد عدت إلى غرفتي في الساعة الحادية عشرة، وكانت الآنسة مارغريف قد أوت إلى فراشها بينما كانت الليدي آستويل مع السير روبن في غرفة البرج.

- الليدي آستويل كانت مع السير روبن؟ نعم، استمر.

- غرفة البرج تقع فوق هذه الغرفة تماماً يا سيدي، وإذا كان أشخاص يتكلمون فيها فبوسع المرء أن يسمع همهمة الأصوات، ولكن لا يمكن فهمُ أيّ شيء مما يقال بالطبع. استولى عليّ النوم في نحو الحادية عشرة والنصف على الأغلب، وفي تمام الثانية عشرة استيقظت على صوت الباب الأمامي يُصفَق، فعلمت أن السيد ليفيرسن قد عاد. ثم ما لبثت أن سمعت وقع خطوات فوقي، وبعد دقيقة أو اثنتين سمعت صوت السيد ليفيرسن يتحدث مع السير روبن. وقد تخيلت وقتها بأن السيد ليفيرسن كان... لا أريد أن أقول إنه كان ثملاً، ولكنه كان غير متوازن وعالي الصوت وكثير الجلبة. كان يصيح بخاله بأعلى صوته، والتقطت أذناي كلمة أو كلمتين هنا وهناك ولكن ليس بما يكفي لفهم ما يدور بينهما، ثم أعقب ذلك صيحة حادة فارتطام عنيف.

سادت لحظات صمت، ثم كرّر بارسونز الكلمات الأخيرة بشكل مؤثّر قائلاً: ارتطام عنيف.

تدخّلَ بوارو قليلاً في مجرى الحديث ثم أردف باعتذار مصطنَع: أنا آسفٌ جداً لتدخلي.

- لا عليك يا سيدي. بعد الارتطام ساد صمتٌ قطَعَه صوتُ السيد ليفيرسن بوضوح تام يرتفع قائلاً: "يا إلهي"... قالها هكذا يا سيدي: "يا إلهي".

وهكذا تطور بارسونز من تردده السابق في رواية القصة إلى استمتاع حقيقي بذلك، وقد ذهب بعيداً في تخيل نفسه كراو محترف، وشجّعه بوارو على المضي قدماً بقوله: يا إلهي، لقد انتابتك مشاعر فظيعة بالتأكيد!

- بالتأكيد يا سيدي، تماماً كما قلت يا سيدي. ومع أني لم أعِر الأمر اهتماماً كبيراً حينذاك إلا أنه خطر في بالي أن أتساءل إن كان قد حدث شيء. وفكرت بالخروج للتأكد، فذهبت لأشعل الضوء ولكني تعثرت بكرسي لسوء حظي، وبعد ذلك فتحت باب غرفتي وعبرت صالة الخدم وفتحت باباً آخر يطلّ على الممر حيث الدرج الخلفي. وهناك وقفت أسفل الدرج متردداً حتى سمعت صوت السيد ليفيرسن يتكلم من الأعلى بشكل ودي ومرح. قال: "لم يقع أي أذى لحسن الحظ، ليلة سعيدة". ثم سمعته يقطع الممر إلى غرفته وهو يصفّر. وقد عدت بعدها إلى سريري وأنا أحسب أن شيئاً ما قد وقع. بالله عليك يا سيدي، هل كان عليّ أن أشك في أن السير روبن قد قُتل وأنا أسمع السيد ليفيرسن يقول «ليلة سعيدة » ويتصرف بشكل طبيعي؟

- هل أنت متأكد أن ما سمعتَهُ كان صوت السيد ليفيرسن؟

نظر بارسونز إلى البلجيكي الضئيل بإشفاق، فتأكد لبوارو بوضوح أن بارسونز قد قرّ قراره بهذا الشأن، سواء أكان ذلك صحيحاً أم خاطئاً.

- هل تريد أن تسألني عن أي شيء آخر يا سيدي؟

- سؤال واحد، هل تحب السيد ليفيرسن؟

- عفواً، لم... لم أسمعك يا سيدي.

- إنه سؤال بسيط؛ هل تحب السيد ليفيرسن؟

تحول بارسونز من رجل مذعور في البداية إلى رجل مُحرَج، ثم قال: إن الرأي العام في صالة الخدم يا سيدي...

ثم سكت، فقال له بوارو: مهما يكن الأمر، قل رأيك بهذه الطريقة إذا أحببت.

- إن الرأي العام يا سيدي هو أن السيد ليفيرسن شاب كريم، ولكنه ليس ذكياً بشكل خاص... إن كان لي أن أقول ذلك.

- آه، هل تعلم يا بارسونز بأن ذلك هو رأيي بالسيد ليفيرسن تماماً؟ ولو أنني لم أرَه.

- حقاً يا سيدي؟

- نعم. حسناً، وما هو رأيك، عفواً، أعني ما هو رأي صالة الخدم بالسكرتير؟

- إنه رجل هادئ جداً وصبور وحريص على عدم إثارة المشكلات.

- حقاً؟

سعل النادل ثم تمتم قائلاً: إن سعادتها تميل إلى التسرع في أحكامها أحياناً يا سيدي.

- إذن فإن صالة الخدم تظن أن السيد ليفيرسن هو الذي ارتكب الجريمة؟

- ليس فينا من يتمنى أن يكون له هذا الرأي، ونحن... بصراحة

نحن لا نعتقد أن طبيعته تميل إلى الجريمة يا سيدي.

- ولكنه ذو مزاج عنيف بعض الشيء، أليس كذلك؟

اقترب منه بارسونز وهمس قائلاً: إن كنت تسألني عن صاحب أعنف مزاج في هذا المنزل...

أوقفه بوارو بإشارة من يده قائلاً: آه، ليس هذا هو السؤال الذي أودّ أن أسأله. سؤالي هو: مَن هو صاحب ألطف مزاج؟

حدق به بارسونز وقد فغر فاه!

-٣-

لم يُضِع بوارو مزيداً من الوقت مع بارسونز، بل ودّعه بانحناءة ودية (فقد كان وَدوداً دائماً) وغادر الغرفة إلى الصالة المربعة الكبرى لمنزل مون ريبوز، حيث وقف برهة يفكر ومال برأسه كما يفعل عصفور الحنّاء الجَذِل، وأخيراً عبر بخطوات خفيفة أحد الأبواب المُفضية إلى خارج الصالة.

وقف بالباب متأملاً الغرفة الصغيرة التي جُعلت مكتبة. كان يجلس في طرفها الآخر على مكتب ضخم شاب شاحب نحيل ضامر الذقن يضع على أنفه نظّارة قديمة الطراز. راقبه بوارو بضع دقائق وهو منخرط بالكتابة، ثم أعلن عن نفسه بسعلة مسرحية مفتعَلة.

توقف الشاب المنكَبّ على المكتب عن الكتابة والتفت ليرى بوارو الذي تقدم بانحناءته المعهودة قائلاً: أعتقد أنني أتشرف بالحديث مع السيد تريفوسيس، أليس كذلك؟ آه، اسمي هيركيول بوارو... ربما تكون قد سمعت بي؟

- نعم، بالتأكيد.

راقبه بوارو بعناية. كان أوين تريفوسيس في نحو الثالثة والثلاثين من عمره، وقد أدرك بوارو فوراً لماذا لم يتعامل أحد بجِدّ مع اتهام الليدي آستويل؛ فقد كان السيد تريفوسيس شاباً أنيقاً وسيماً وخَنوعاً إلى حد يزيل النقمة، من ذلك النوع من الرجال الذين يضطهدهم الآخرون ويعتدون عليهم وهم واثقون من أنهم لن يُبدوا استياءهم أبداً.

قال السكرتير: الليدي آستويل هي التي أرسلت في طلبك طبعاً، لقد ذكرت أنها ستدعوك. هل من طريقة أساعدك بها؟

كان أسلوبه مؤدباً بلا إسراف. تناول بوارو كرسياً وقال برفق: هل أخبرتك الليدي آستويل بشيء حول آرائها وشكوكها؟

ابتسم أوين تريفوسيس قليلاً وقال: بخصوص شكّها فيّ فيما أظن؟ إنه أمر سخيف، ولكن هذا هو الواقع. إنها لم تتكلم معي كلمة مهذبة واحدة منذ وفاة السير روبن، وهي تلتفت إلى الجدار كلما مررت بها!

كان سلوكه طبيعياً تماماً، وكان في صوته من التسلية أكثر مما فيه من الاستياء. هزّ بوارو رأسه بأسلوب يوحي بالمصارحة وقال: فيما بيننا، لقد قالت لي الشيء ذاته. ولم أناقشها، إذ أنني جعلتها قاعدة في حياتي أن لا أناقش السيدات اللائي يتمسكنَ بآرائهن. هل تفهمني؟ إنها مَضيَعة للوقت.

- نعم، تماماً.

- كنت أقول: "نعم يا سيدتي"، "بالتأكيد يا سيدتي"، "بالضبط يا سيدتي"... وهي كلمات لا تعني شيئاً ولكنها تهدئ الخواطر. وأنا أقوم بتحرياتي، فرغم ما يبدو من استحالة ارتكاب أحد للجريمة سوى السيد ليفيرسن، رغم ذلك يقول المرء: إن كل شيء ممكن. وقد حدثت مستحيلاتٌ من قبل.

- إنني أفهم موقفك تماماً، وأرجو أن تعتبرني في خدمتك.

- حسناً، نحن متفاهمان إذن. والآن، اذكر لي أحداث تلك الليلة، والأفضل أن تبدأ من العشاء.

- لم يشارك ليفيرسن في العشاء، كما تعلم بلا شك؛ فقد كان على خلاف كبير مع خاله. وبسبب ذلك ذهب لتناول العشاء في نادي الغولف، و هذا ما جعل السير روبن في حالة مزاجية سيئة جداً.

لمّح بوارو لمحدِّثه ببراعة قائلاً: لم يكن ذاك السيد وَدوداً جداً، أليس كذلك؟

ضحك تريفوسيس قائلاً: آه، لقد كان تَتارياً في سرعة غضبه! لم أعمل معه مدة تسع سنوات دون أن أعرف عاداته، فقد كان صعب المراس بشكل غير عادي يا سيد بوارو. كانت تنتابه نوبات من الغضب الطفولي العارم بحيث يسيء إلى كل مَن يقترب منه، وقد عرفت ذلك منه فعوّدت نفسي أن أتجاهل تماماً كل ما كان يتفوه به. ومع أنه لم يكن سيّئ الطوية حقاً إلاّ أن سلوكه كان يتطور أحياناً إلى حد الحماقة وإغضاب الآخرين، وكان خير علاج لذلك هو أن تتجاهل شتائمه ولا تحاولْ ردّها.

- وهل كان الآخرون بمثل حكمتك في التعامل معه بهذا الشأن؟

هزّ تريفوسيس كتفيه وقال: كانت الليدي آستويل تستمتع بالشجار معه. لم تكن لتخشاه أبداً، وقد وقفت دوماً في وجهه وردّت له الصاع صاعين، ولكنهما كانا يتصالحان بعدها دوماً، إذ كان السير روبن يحبها كثيراً.

- وهل تشاجرا في تلك الليلة؟

نظر السكرتير إليه شزراً، وتردد دقيقة ثم قال: أظن ذلك، ما الذي دفعك إلى هذا السؤال؟

- فكرة ما، هذا كل ما في الأمر.

- لست متيقناً بالطبع، ولكن بدا أنهما على غير ما يرام.

لم يتابع بوارو هذا الموضوع، بل سأله: ومَن كان موجوداً على العشاء أيضاً؟

- الآنسة مارغريف، والسيد فكتور آستويل، وأنا.

- وبعد ذلك؟

- ذهبنا إلى غرفة الاستقبال، ولم يذهب السير روبن معنا، إلا أنه عاد بعد عشر دقائق ليصبّ عليّ جام غضبه بسبب خطأ تافه في إحدى الرسائل. ذهبت معه إلى غرفة البرج فأصلحت الخطأ، ثم جاء السيد فكتور آستويل وقال إنه يريد التحدث مع أخيه في أمر ما، فنزلت لأنضمّ إلى السيدتين. وبعد نحو ربع ساعة سمعت جرس السير روبن يدق بعنف، وجاء بارسونز ليطلب مني الصعود إلى السير روبن فوراً، وعندما كنت أهمّ بدخول الغرفة كان السيد فكتور آستويل خارجاً منها فارتطم بي وكاد يوقعني. كان واضحاً أن شيئاً قد أزعجه.

لقد كان ذا مزاج عنيف جداً، وأعتقد فعلاً أنه لم يرني وهو خارج.

- وهل أدلى السير روبن بأي تعليق حول خروجه؟

- قال: إن فكتور مجنون. سوف يرتكب جريمة ذات يوم وهو في إحدى حالات الغضب التي تنتابه!

- وهل عندك أية فكرة عن موضوع المشكلة؟

- لا، أبداً.

أدار بوارو رأسه ببطء ونظر إلى السكرتير، فهو قد نطق تلك الكلمات الأخيرة بسرعة كبيرة. وتشكلت قناعة لدى بوارو بأنه كان بوسع تريفوسيس أن يدلي بأكثر من ذلك لو أراد. ولكن، مرة أخرى، لم يتابع بوارو القضية.

- وبعد ذلك؟ أكمل من فضلك.

- عملت مع السير روبن لمدة ساعة ونصف ساعة تقريباً، وفي الحادية عشرة دخلت الليدي آستويل فقال لي السير روبن إن بإمكاني الانصراف إلى النوم.

- وهل انصرفت؟

- نعم.

- وهل تعرف كم بقيَت الليدي آستويل معه؟

- لا، أبداً؛ إن غرفتها في الطابق الأول وغرفتي في الطابق الثاني، فلم أكن لأسمعها وهي تنصرف.

- فهمت.

هز بوارو رأسه مرة أو مرتين، ثم نهض واقفاً وهو يقول: والآن خذني إلى غرفة البرج لو تكرمت.

تبع بوارو السكرتير صاعداً الدرج العريض، وفي أعلاه قاده تريفوسيس عبر الممر إلى نهايته حيث يوجد بابٌ يطلّ على سلالم الخدم من جهة وعلى ممر قصير من جهة أخرى ينتهي بباب، وعندما عبرا ذلك الباب وجدا نفسَيهما في مسرح الجريمة.

كانت الغرفة واسعة ذات جدران عالية زُيّنت بالسيوف والحِراب، وفيها طاولات صُفَّت عليها الكثير من التحف. وفي الجهة المقابلة، أمام الفتحة الواسعة للنافذة، كان يوجد مكتب ضخم توجّه بوارو إليه مباشرة.

- أهذا هو المكان الذي عُثر فيه على السير روبن؟

هز السكرتير رأسه موافقاً.

- لقد ضُرب من الخلف كما فهمت؟

هزّ السكرتير رأسه مرة أخرى موافِقاً، ثم قال: لقد ارتُكبت الجريمة بهِراوة من هذه الهراوات المعلّقة، هراوة ثقيلة تماماً، ولا بد أن الوفاة قد حصلت على الفور.

- وهذا يعزّز الفكرة القائلة بأن الجريمة لم يكن مخطَّطاً لها من قبل وأنها حدثت إثر شجار حاد حيث تم اللجوء -بلا وعي تقريباً- إلى السلاح القريب؟

- نعم، ويبدو أن ذلك ليس من صالح ليفيرسن المسكين.

سأل بوارو: وهل تم العثور على الجثة منكبّة على الطاولة؟

- لا، لقد وقعت جانباً على الأرض.

- هذا الأمر غريب.

- لماذا؟

- بسبب هذه.

وأشار بوارو إلى بقعة دائرية على السطح المصقول للطاولة قائلاً: إنها بقعة دم يا صديقي.

- ربما يكون الدم قد انتثر هنا، أو تكون البقعة قد حدثت لاحقاً عندما أزاحوا الجثة.

- هذا محتمَل جداً، محتمل جداً. ألا يوجد لهذه الغرفة سوى باب واحد؟

- يوجد درَج هنا.

وأزاح تريفوسيس ستارة مخملية في زاوية الغرفة قرب الباب، وكان خلفها دَرَج لولبي صغير يقود إلى الأعلى. قال: لقد بُني هذا البيت أصلاً بواسطة أحد الفلكيين، وهذا الدرج يقود إلى البرج العلوي حيث كان المرصد. وقد أمر السير روبن بتحضير هذا المكان كغرفة نوم كان ينام فيها أحياناً عندما يتأخر في عمله.

صعد بوارو الدرج بخفة. كانت الغرفة الدائرية العليا قد فُرِشَت -على نحو بسيط- بسرير من النوع الذي يُطوى وكرسي وطاولة. وأقنع بوارو نفسه بأنه ليس هناك مَخرَج آخر، ثم عاد إلى حيث انتظره تريفوسيس وسأله: هل سمعت السيد ليفيرسن وهو يدخل المنزل؟

هز السكرتير رأسه بالنفي قائلاً: لقد كنت نائماً في ذلك الوقت.

هز بوارو رأسه ونظر بإمعان في أرجاء الغرفة، ثم قال أخيراً: حسناً، لا أظن أن لدينا أي شيء هنا أكثر من ذلك، إلا إذا... هلاّ تكرمت بإسدال الستائر؟

سحب تريفوسيس الستائر السوداء الثقيلة مغطّياً النافذة في الجانب الآخر من الغرفة، فأشعل بوارو مصباحاً متدلياً من سقف الغرفة تحيط به آنية مرمرية ضخمة وسأل: هل يوجد مصباح طاولة هنا؟

ردّاً على السؤال أشعل السكرتير مصباحاً يدوياً ذا غطاء أخضر كان ينتصب على الطاولة، فأطفأ بوارو مصباح السقف ثم أشعله ثم أطفأه ثانية وقال: جيد. لقد انتهيت من هذه الغرفة.

- سيكون العشاء جاهزاً في السابعة والنصف.

- شكراً لك على كل أفضالك يا سيد تريفوسيس.

- عفواً.

* * *

مضى بوارو عبر الممر إلى الغرفة التي خُصّصت له وهو يفكر. كان جورج الغامض هناك يرتب حاجيات سيده، وقال له بوارو على الفور: يا عزيزي الطيب جورج، آمل أن أقابل على العشاء رجلاً بدأ يثير اهتمامي بشدة، رجلاً عاد إلى الوطن من المنطقة الاستوائية حاملاً -كما قيل- مزاجه الاستوائي، رجلاً حاول بارسونز أن يحدّثني عنه بينما أغفلت ليلي مارغريف ذكره. لقد كان الراحل السير روبن

عصبي المزاج يا جورج، فلو افترضنا أن رجلاً مثله قابل رجلاً ذا مزاج أكثر عصبية فما الذي سيحدث برأيك؟ هل سيُنَتفُ الريش؟

- «سيتطاير الريش»... هذا هو التعبير الإنكليزي الصحيح يا سيدي. ولكن الأمور لا تجري هكذا دائماً يا سيدي، ولا سيما إذا طالت العِشرة.

- لا تجري هكذا؟

- نعم يا سيدي. لقد كان لي عمة اسمها جيميما ذات لسان حاد كالمبرد، وكانت تضطهد أختاً لها مسكينة كانت تعيش معها؛ كانت تفعل لها الأفاعيل حتى كادت أن تبغّض إليها الحياة. ولكن لو تعرضت لأي مكروه فمَن كان سيدافع عنها؟ هنا كانت علاقتهما تختلف، فالخنوع هو ما لم تكن عمتي لتطيقه.

- آه، إنها لفتة موحية منك.

سعل جورج وكأنه يعتذر ثم سأل سيده بلطف: هل من خدمة يمكن أن أقوم بها لمساعدتك يا سيدي؟

- بالتأكيد، أريد أن تعرف لي ما لون الثوب الذي ارتدته الآنسة ليلي مارغريف ليلة الجريمة، ومَن كان يقوم على خدمتها؟

استقبل جورج هذه الأوامر ببروده المعتاد قائلاً: حسناً يا سيدي، سآتيك بهذه المعلومات صباح غد.

نهض بوارو عن مقعده ووقف يحدّق إلى النار وهو يتمتم: أنت مفيد لي جداً يا جورج. أتعلم، سوف لن أنسى عمتك جيميما هذه!

لم يتسنَّ لبوارو أن يرى فكتور آستويل في تلك الليلة، فقد اتصل هاتفياً قائلاً إنه سيتأخر في لندن.

سأل بوارو الليدي آستويل: هل يتابع فكتور أعمال زوجك الراحل؟

- إنه شريك، وقد ذهب إلى إفريقيا ليدرس بعض امتيازات حفر المناجم لصالح الشركة. كانت امتيازات مناجم يا ليلي، أليس كذلك؟

- بلى يا ليدي آستويل.

- هل كانت مناجمَ ذهب أم نحاس أم قصدير؟ لا بدّ أنك تعرفين يا ليلي؛ فقد كنت دوماً تسألين روبن عن ذلك كله. آه، انتبهي يا عزيزتي، ستوقعين المزهرية!

قالت الفتاة: إن المكان هنا حار جداً بسبب الموقد. هل لي... هل لي أن أفتح النافذة قليلاً؟

قالت الليدي آستويل بهدوء: افعلي ما تريدين يا عزيزتي.

راقب بوارو الفتاة وهي تتجه إلى النافذة وتفتحها، حيث وقفت هناك دقيقة أو دقيقتين تستنشق هواء الليل البارد. وعندما عادت وجلست في مكانها سألها بوارو بتهذيب: الآنسة مهتمة بالمناجم إذن؟

أجابت الفتاة دون اهتمام: آه، لست مهتمة فعلاً. كنت أصغي

إلى السير روبن، ولكنني لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع.

قالت الليدي آستويل موجِّهة حديثها إليها: إذن فقد مثّلت دور المهتمّة ببراعة، حتى لقد أوشك المسكين روبن أن يشك أن لديك دوافع خفية لطرح كل تلك الأسئلة.

لم تتحرك عينا بوارو عن النار التي كان يحدق إليها بثبات، ولكن لم تَفُتْه -مع ذلك- رؤية وجه ليلي مارغريف وهو يتورد بسرعة من الغيظ، فقام بتغيير الموضوع ببراعة.

وعندما حان وقت النوم قال لمضيفته: هل لي بكلمتين معك يا سيدتي؟

اختفت ليلي مارغريف بحذر بينما نظرت الليدي آستويل مستفهِمة إلى المحقق الذي سألها: هل كنتِ آخر من رأى السير روبن على قيد الحياة في تلك الليلة؟

أومأت بالإيجاب والدموع تنساب من عينيها، ثم أسرعت لتجفيفها بمنديل أسود الحاشية.

- آه، لا تُحزِني نفسك... أرجوك، لا تُحزني نفسك.

- أنا بخير يا سيد بوارو، ولكنني لا أستطيع حبس دموعي.

- يا لي من أبله كبير إذ هيجت أحزانك على هذا النحو!

- لا، لا، استمر. ما الذي كنت تريد قوله؟

- أعتقد أن الساعة كانت قريبة من الحادية عشرة عندما ذهبتِ إلى غرفة البرج وقام السير روبن بصرف السيد تريفوسيس، هل هذا صحيح؟

- لا شك أن الوقت كان كما قلت تقريباً.

- وكم بقيت معه؟

- كانت الساعة تمام الثانية عشرة إلا ربعاً عندما نهضت لأذهب إلى غرفتي، أتذكّر أنني نظرت إلى الساعة وقتها.

- ليدي آستويل، هل لك أن تخبريني عن موضوع حوارك مع زوجك؟

غرقت الليدي آستويل في الأريكة وانهارت تماماً. كان نشيجها عنيفاً وهي تقول: لقد تشا... تشاجرنا.

- بخصوص ماذا؟

كان صوت بوارو ملاطفاً رقيقاً.

- بخصوص العديد من المسائل. بدأ الأمر بليلي، فقد كان روبن يكرهها... بلا سبب، وقال إنه ضبطها تعبث بأوراقه. أراد أن يطردها فقلت له إنها عزيزة عليّ وإنني لن أسمح بطردها، ثم بدأ بالصياح في وجهي وفي شتمي، ولم أكن لأقبل بذلك فرددت عليه وأخبرته برأيي فيه. لم أكن أقصد ذلك فعلاً يا سيد بوارو. لقد صرخ قائلاً إنه انتشلني من الوحل وتزوجني فقلت له... آه، ما نفع كل ذلك الآن؟ إنني لن أغفر لنفسي أبداً. هل فهمتني يا سيد بوارو؟ لقد قلت دوماً إن المشاجرات تصفي الأجواء، فكيف كان لي أن أعرف أن أحداً سيقتله في تلك الليلة ذاتها؟ يا لروبن العجوز المسكين!

قال بوارو بعد أن أصغى بتعاطف إلى كل ذلك الحديث العاطفي: أعتذر لأنني سببت لك الألم. ولكن لنكن الآن عمليين جداً

ودقيقين جداً، أما تزالين متمسكة بفكرتك القائلة إن السيد تريفوسيس هو مَن قتل زوجك؟

اعتدلت الليدي آستويل في جلستها وقالت بوقار: إن حدس المرأة لا يخطئ يا سيد بوارو.

- بالضبط، بالضبط، ولكن متى قام بذلك؟

- متى؟ بعد أن تركته أنا بالطبع.

- لقد تركتِ السير روبن في الثانية عشرة إلا ربعاً، وفي الثانية عشرة إلا خمس دقائق دخل السيد ليفيرسن البيت، فهل تقولين إن السكرتير جاء من غرفة نومه فقتله في تلك الدقائق العشر؟

- هذا ممكن تماماً.

- أشياء كثيرة ممكنة أيضاً. صحيح أنه يمكن ارتكاب الجريمة في عشر دقائق، ولكن هل ارتُكبت الجريمة هكذا؟

- بالطبع هو يقول إنه كان نائماً في فراشه، ولكن من يدري إن كان حقاً نائماً أم لا؟

- ولكن أحداً لم يره مستيقظاً.

- بالطبع لم يره أحد، فقد كان الجميع في أسرّتهم نائمين.

- ما زلت أشك.

قالها بوارو لنفسه، وساد بعدها صمت قصير قطعه بوارو بقوله: حسناً يا ليدي آستويل، أتمنى لك ليلة سعيدة.

-٥-

وضع جورج قهوة الصباح الباكر قرب سرير سيده وقال: لقد ارتدت الآنسة مارغريف -يا سيدي- ثوباً من الشيفون الأخضر الفاتح في تلك الليلة.

- شكراً يا جورج، فعلاً يمكن الاعتماد عليك.

- كما قام على خدمة الآنسة مارغريف ليلتها الخادمة الثالثة، واسمها غلاديس.

- شكراً يا جورج، إنك لا تقدَّر بثمن.

- عفواً يا سيدي.

قال بوارو وهو ينظر من النافذة: إنه صباح جميل، وما أظن أن أحداً يمكن أن يكون خارج فراشه في هذا الوقت المبكر. أعتقد -يا عزيزي الطيب- أن علينا أن ننفرد بغرفة البرج بنفسَينا لنُجري تجربة صغيرة.

- هل تحتاجني يا سيدي؟

- لن تكون التجربة مؤلمة.

عندما وصلا إلى غرفة البرج ألفيا الستائر ما تزال مسدلة، وعندما هم جورج بفتحها أوقفه بوارو قائلاً: سنترك الغرفة كما هي. أشعل فقط مصباح الطاولة.

أشعل الخادم المصباح، فقال له بوارو: والآن يا عزيزي جورج، اجلس على ذلك الكرسي وتصرف كما لو كنت تكتب. هذا جيد، أما

أنا فسأمسك بهراوة وأتسلل خلفك هكذا، وأضربك على قفا رأسك.

- نعم يا سيدي.

- آه! ولكن عندما أضربك توقَّفْ عن الكتابة. هل تفهمني؟ لا يمكن أن أطبق ذلك، لا يمكنني ضربك بنفس القوة التي ضرب بها القاتل السير روبن، ولذلك فعندما نصل إلى هذه النقطة ينبغي لنا أن نؤديها كما لو كانت حقيقية. أضربك على رأسك فتنهار هكذا: الذراعان مرتخيتان والجسم مترهل. اسمح لي أن أرتب جسمك. لا، لا تشدد عضلاتك.

تنهد عميقاً بغضب ثم قال: أنت تكوي السراويل بشكل ممتاز يا جورج، أما الخيال فإنك لا تملكه. انهض ودعني آخذ مكانك.

جلس بوارو على طاولة الكتابة وبدأ يعطي تعليماته: أنا أكتب، أكتب بهمّة، وأنت تتسلل خلفي وتضربني على رأسي بالهراوة. طاخ! يسقط القلم من أصابعي وأسقط إلى الأمام، ولكن ليس إلى الأمام كثيراً لأن الكرسي منخفض والطاولة مرتفعة، والأهم هو أن ذراعيّ تسندانني. اعمل معروفاً يا جورج وارجع إلى الباب، قف هناك وقل لي: ماذا ترى؟

- إحم!

- نعم يا جورج، هيا.

- أراك جالساً على المكتب يا سيدي.

- جالساً على المكتب؟

- من الصعب قليلاً أن ترى بوضوح من هذا البعد يا سيدي،

فالمصباح مظلَّل بشكل كثيف. هل لي أن أشعل هذا الضوء يا سيدي؟

وامتدت يده إلى مفتاح الضوء فقال بوارو بحدة: لا تفعل؛ الأفضل أن نبقى هكذا. ها أنذا منكبٌّ على المكتب وها أنت ذا تقف بالباب. تقدم الآن يا جورج، تقدم وضع يدك على كتفي.

نفذّ جورج ما أُمِر به فقال بوارو: استند عليّ قليلاً يا جورج كما لو كنتَ تعتمد عليّ لتقف على قدميك. آه، هكذا.

انزلق جسم هيركيول بوارو المترهل إلى الجانب.

- إنني أسقط... هكذا، نعم؛ كما تخيلتها تماماً. ولكن بقي شيء أكثر أهمية ينبغي القيام به.

- حقاً يا سيدي؟

- نعم، من الضروري أن أتناول إفطاراً دسماً.

قالها الرجل الضئيل وهو يضحك مرحاً من نكتته، ثم أردف قائلاً: ينبغي أن لا يتجاهل أحدٌ معدته يا جورج.

احتفظ جورج بصمت مستهجن فيما نزل بوارو السلم وهو يضحك بسعادة مع نفسه، كان سعيداً بالطريقة التي تتجمع بها خيوط القضية.

بعد الإفطار تعرف إلى الخادمة الثالثة غلاديس التي كان مهتماً كثيراً بما يمكنها أن تخبره به عن الجريمة. كانت متعاطفة مع تشارلز رغم أنها لم تشكّ أنه هو الذي ارتكب الجريمة، وقالت: إنه شاب مسكين يا سيدي، وكم هو صعب أن يتصرف على غير طبيعته وقتها.

اقترح بوارو ملمّحاً: كان ينبغي لعلاقته مع الآنسة مارغريف أن تكون على ما يرام باعتبارهما الشابين الوحيدين في المنزل.

هزت غلاديس رأسها بالنفي قائلة: كانت علاقتها معه تتسم بالصدود، فلم تكن تريد أعمالاً طائشة، وقد أوضحت ذلك.

- كان مغرماً بها، أليس كذلك؟

- آه، كان إعجابا طارئاً إذا صح التعبير، لا ضرر فيه. أما المغرم حقاً بالآنسة ليلي فهو السيد فكتور آستويل.

قالت ذلك وقهقهت.

- آه، حقاً؟!

قهقهت غلاديس ثانية وقالت: لقد شُغِفَ بها فوراً. إن الآنسة ليلي كزهرة الليل، أليست كذلك يا سيدي، بطولها الفارع وشعرها الذهبي الجميل؟

قال بوارو وهو يفكر بصوت عال: لو أنها فقط لبست ثوباً أخضر، فهناك ظل اخضرار...

- لديها ثوب أخضر يا سيدي. إنها لا تستطيع طبعاً أن تلبسه الآن كونها في الحداد، ولكنها كانت ترتديه في نفس الليلة التي مات فيها السير روبن.

- لا بد أنه أخضر فاتح وليس غامقاً.

- إنه أخضر فاتح بالفعل يا سيدي. سأريك إياه إذا انتظرتني دقيقة، فالآنسة ليلي خرجت مع الكلاب قبل قليل.

هزّ بوارو رأسه، فقد كان يعلم بخروج ليلي كما تعلم غلاديس، بل إنه لم يخرج بحثاً عن الخادمة إلا بعد أن رأى ليلي تبتعد عن البيت وعن الأراضي التابعة له. أسرعت غلاديس وعادت بعد بضع دقائق حاملة ثوب السهرة الأخضر معلّقاً على مِشجب. تمتم بوارو: رائع!

وفتح ذراعيه إعجاباً، ثم قال: اسمحي لي أن أراه دقيقة قرب الضوء.

أخذ الثوب من غلاديس وأدار لها ظهره وأسرع نحو النافذة حيث انحنى فوق الثوب، ثم مد يده به متأملاً وهو يقول: إنه بديع يفتن الألباب. ألف شكر لك على السماح لي برؤيته.

- عفواً يا سيدي، نحن نعرف جميعاً أن الفرنسيين يهتمون بالملابس.

- أنت لطيفة جداً.

راقبها بوارو وهي تبتعد بالثوب، ثم نظر إلى يديه وابتسم. كان في اليد اليمنى مقص صغير للأظافر وفي اليسرى قصاصة من الشيفون الأخضر تمّ قصها بعناية.

تمتم قائلاً لنفسه: والآن إلى العمل الذي يحتاج إلى بطولة.

* * *

عاد إلى غرفته واستدعى خادمه جورج فقال له: ستجد - يا عزيزي جورج- دبوسَ وشاح ذهبياً على طاولة الزينة هناك.

- نعم يا سيدي.

- وعلى المغسلة محلول معقّم. أرجوك أن تغمر رأس الدبوس في ذلك المعقم.

قام جورج بما طُلب منه، فقد توقف منذ أمد بعيد عن العجب من تقلبات أهواء سيده. قال: لقد فعلت ذلك يا سيدي.

- ممتاز، والآن تقدم. سأمدّ لك إبهامي، فأدخل فيه رأس الدبوس.

- اعذرني يا سيدي، هل تريدني أن أخِزَك بالدبوس؟

- نعم، لقد فهمت قصدي. عليك أن تُخرج بعض الدم، هل فهمت؟ ولكن ليس كثيراً.

أمسك جورج بإصبع سيده الذي أغمض عينيه واتكأ إلى الخلف، ثم وخزه بالدبوس فأطلق بوارو صرخة حادة وقال: أشكرك يا جورج، لقد قمت بما هو مطلوب.

ثم أخذ من جيبه قطعة صغيرة من الشيفون الأخضر وربّت بها بحذر على إصبعه قائلاً وهو يحدق إلى النتيجة على قصاصة القماش: لقد نجحت العملية نجاحا باهراً.

ثم التفت إلى جورج وقال: أليس عندك فضول يا جورج؟ إن أمرك لعجيب!

كان الخادم قد ألقى لتوه نظرة حذرة من النافذة، ثم تمتم: عفوك يا سيدي، فقد وصل رجل بسيارة ضخمة.

نهض بوارو واقفاً وهو يقول: آه، السيد فكتور آستويل المتمنّع. سأنزل لأتعرف عليه.

وقد قُدِّر لبوارو أن يسمع السيد فكتور آستويل لبعض الوقت قبل أن يراه، حيث دوّى صوته عالياً من الصالة وهو يصيح: انتبه لما تفعله أيها الأبله اللعين! إن في هذه الحقيبة زجاجاً... عليك اللعنة يا بارسونز، اغرب عن وجهي... أنزلها أيها الأحمق!

قفز بوارو برشاقة وهو ينزل الدرج إلى الصالة. كان فكتور آستويل رجلاً ضخماً انحنى له بوارو بأدب فزمجر قائلاً: ومن تكون أنت؟

انحنى بوارو ثانية وهو يقول: اسمي هيركيول بوارو.

- يا إلهي! إذن فقد أرسلت نانسي في طلبك رغم كل شيء؟

وضع يده على كتف بوارو وسحبه نحو المكتبة، وهناك صعّد بصره إلى بوارو قائلاً: أنت إذن ذلك الشخص الذي يثيرون حوله كل تلك الضجة. اعذرني على مفرداتي الآن، فسائقي ذاك حمار ملعون، وبارسونز يثير أعصابي دوماً، ذاك الأبله العجوز.

ثم أضاف وكأنه يعتذر: لا أستطيع تحمل الحمقى، ولكنك لست أحمق بكل المقاييس يا سيد بوارو، أليس كذلك؟

ضحك بابتهاج، فأجابه بوارو بهدوء: أولئك الذين حسبوني أحمق ندموا على خطئهم.

- هكذا إذن؟ حسناً، لقد أتت بك نانسي إلى هنا، فهي مصّرة على الشك في ذلك السكرتير. وأظنه شك غير مبرَّر، فتريفوسيس طري كالحليب، وهو يشرب الحليب أيضاً كما أعتقد! إنها مَضيعة لوقتك، أليس كذلك؟

أجاب بوارو بهدوء: إذا أتيحت للمرء فرصة مراقبة الطبيعة البشرية فذلك لا يعتبر مضيعة للوقت.

- الطبيعة البشرية... آه!

حدق فكتور آستويل إليه ثم رمى نفسه على كرسي وقال: هل من خدمة أؤديها لك؟

- نعم، بأن تخبرني عن سبب شجارك مع أخيك في تلك الليلة.

هزّ فكتور آستويل رأسه بالرفض قائلاً بحسم: ليس لهذا علاقة بالقضية.

- لا يمكن الجزم بذلك.

- لا علاقة لذلك بتشارلز ليفيرسن.

- تعتقد الليدي آستويل أنه ليس لتشارلز علاقة بالجريمة.

- آه، نانسي!

- كما أن بارسونز يزعم بأن تشارلز ليفيرسن هو الذي أتى في تلك الليلة، ولكنه لم يره. تذكّر أن أحداً لم يره.

- الأمر في غاية البساطة. فقد كان روبن يهاجم الشاب تشارلز، وله في ذلك أسبابه. ثم حاول بعد ذلك أن يتطاول عليّ أنا فأخبرته ببعض الحقائق المُرّة عن نفسه وقررت أن أساند الشاب لمجرد إزعاج روبن، وأحببت أن أرى الشاب في تلك الليلة لأخبره بما استقر عليه رأيي. وعندما ذهبت إلى غرفتي لم أخلد إلى السرير بل جلست أدخن وتركت الباب نصف مفتوح، وغرفتي -يا سيد بوارو- في الطابق الثاني وغرفة تشارلز بجانبها.

- اعذرني على المقاطعة، ألا ينام السيد تريفوسيس أيضاً في ذلك الطابق؟

- بلى، وغرفته بعد غرفتي تماماً.

- أهي الأقرب إلى الدرج؟

- لا، بل في الاتجاه الآخر.

علا وجهَ بوارو ضياءٌ غريب، ولكن محدثه لم ينتبه إلى ذلك ومضى في حديثه: كما قلت لك، انتظرت تشارلز فسمعتُ صوت الباب الأمامي ينطبق في الثانية عشرة إلا خمس دقائق كما أظن، ولكن لم يظهر تشارلز لمدة تقرب من عشر دقائق، وعندما ظهر في أعلى الدرج رأيت أن من غير المناسب أن أحدثه في تلك الليلة.

ثم رفع فكتور مرفقه بإشارة ذات معنى، فقال بوارو: نعم، إنني أفهمك.

- لم يكن ذلك الشيطان المسكين يستطيع المشي بشكل مستقيم، وبدا شاحباً تماماً أيضاً. وقد عزوت ذلك إلى حالته في ذلك الوقت، ولكنني أدركت الآن -بالطبع- أنه كان قد عاد لتوّه من ارتكاب جريمة قتل.

قاطعه بوارو بسؤال سريع: ألم تسمع شيئاً من غرفة البرج؟

- لا، ولكن عليك أن تتذكر أنني كنت في الجانب الآخر للمبنى تماماً. كما أن الجدران سميكة ولا أعتقد أن بوسعك أن تسمع حتى طلقات مسدس من هناك.

هز بوارو رأسه فيما تابع آستويل: سألته إن كان يريد مساعدة

للوصول إلى سريره ولكنه قال إنه على ما يرام، ومضى إلى غرفته صافقاً الباب خلفه، فبدّلتُ ثيابي وأويت إلى فراشي.

كان بوارو يحدق إلى السجادة بتركيز، وأخيراً قال: هل تدرك أن شهادتك مهمة جداً يا سيد آستويل؟

- أظنها كذلك، على الأقل... ما الذي تعنيه؟

- شهادتك بأن عشر دقائق مرّت بين صفق الباب الأمامي وظهور ليفيرسن في الطابق العلوي، فهو نفسه يقول -كما فهمت- بأنه أتى إلى البيت ومضى مباشرة إلى سريره. ولكن ثمة أمر آخر؛ صحيح أن اتهام الليدي آستويل للسكرتير أمر خيالي، ولكن لم يثبت أنه مستحيل حتى الآن. إلا أن شهادتك تشكّل دفعاً بالغيبة عن مكان الجريمة.

- كيف؟

- تقول الليدي آستويل إنها تركت زوجها في الثانية عشرة إلا ربعاً، بينما ذهب السكرتير إلى سريره في الحادية عشرة. والوقت الوحيد الذي كان بإمكانه ارتكاب الجريمة فيه هو ما بين الثانية عشرة إلاّ ربعاً ولحظة عودة تشارلز ليفيرسن. والآن، إذا كنت تجلس -كما تقول- أمام باب غرفتك المفتوح فلن يسعه أن يخرج من غرفته دون أن تراه.

- نعم، هذا صحيح.

- ألا يوجد درج آخر؟

- لا، كان عليه أن يمر ببابي لو أراد النزول إلى غرفة البرج،

وهو لم يفعل، أنا متأكد من هذا تماماً. ومع ذلك فإن الرجل -كما قلت لك يا سيد بوارو- شديد الخنوع، أؤكد لك هذا.

هتف بوارو مهدئاً: نعم، نعم، لقد فهمت هذا كله.

وصمت قليلاً ثم قال: وأنت، ألن تخبرني بموضوع شجارك مع أخيك السير روبن؟

أصبح وجه الرجل الآخر أحمر قانياً وصاح: لن تحصل مني على أي شيء.

نظر بوارو إلى سقف الغرفة وتمتم: بوسعي دوماً أن أكون كتوماً عندما يتعلق الأمر بامرأة.

قفز فكتور آستويل واقفاً على قدميه وهو يصيح: عليك اللعنة، كيف استطعت... ما الذي تعنيه؟

- كنت أفكر بالآنسة ليلي مارغريف.

وقف فكتور آستويل دقيقة أو اثنتين حائراً لا يدري ما يقول، ثم تلاشى اللون الأحمر من وجهه فجلس ثانية وقال: أنت ذكي جداً في نظري يا سيد بوارو. نعم، كانت ليلي هي موضوع مشاجرتنا. كان روبن يعاملها بشكل سيّئ، وكان قد نقّب في ماضيها فوجد أمراً ما، شيئاً من قبيل رسائل توصية مزورة... وأنا -شخصياً- لا أصدق كلمة من ذلك. ثم تمادى إلى حد ليس من حقه أن يبلغه زاعماً أنها تتسلل ليلاً خارج البيت لتقابل رجلاً ما. يا إلهي! لقد وبخته وقلت له إن اتهامات أقل من هذه قد تسببت في سفك دماء، وقد أسكته ذلك إذ كان يخشاني قليلاً عندما أثور.

تمتم بوارو بأدب: هذا أمر لا أستغربه.

غّير فكتور من نبرته وقال: إنني أفكر كثيراً في ليلي مارغريف، فهي لطيفة غاية اللطف.

لم يجب بوارو، فقد كان يحدّق أمامه غارقاً -كما يبدو- في نظرياته، ثم خرج من استغراقه العميق برعشة وقال: عليّ أن أتنزه قليلاً. إن في هذه المنطقة فندقاً، أليس كذلك؟

- بل اثنان: «فندق الغولف» قرب ملعب الغولف و«فندق ميتر» قرب المحطة.

- شكراً لك. نعم، ينبغي عليّ أن أتنزه قليلاً.

-٦-

يقع فندق الغولف (كما يدلّ اسمه) على ملاعب الغولف بمحاذاة مبنى النادي، وقد ذهب بوارو إلى هذا الفندق أولاً في إطار «نزهته» التي أشاع أنه يعتزم القيام بها. لقد كانت لهذا الرجل الضئيل طريقته في أداء عمله، فلم تكد تمرّ ثلاث دقائق على دخوله إلى فندق الغولف حتى كان يعقد جلسة مشاورات خاصة مع الآنسة لانغدون، مديرة الفندق.

- أنا آسف على إزعاجك يا آنستي، ولكن ذلك من طبيعة عملي، فأنا رجل تحرٍّ كما ترين.

كانت البساطة تروق له دائماً، وفي هذه الحالة أثبتت البساطة فعاليتها على الفور؛ إذ هتفت الآنسة لانغدون وهي تنظر إليه بارتياب: رجل تحرّ؟

- لست من شرطة اسكتلنديارد، بل ربما لاحظتِ أنني لست إنكليزياً. لا، إنني أقوم بتحرياتي الخاصة بخصوص مقتل السير روبن آستويل.

- أتعني أنك تقوم بذلك الآن؟

قالت ذلك وهي تحملق إليه منتظِرة جوابه.

- بالضبط، ولم أكن لأبوح بهذه الحقيقة إلاّ لشخص كتوم مثلك، وأطن أن بإمكانك مساعدتي يا آنسة. هل يسعك أن تخبريني عن أي شخص كان نزيلاً عندكم ليلة الحادثة، وغاب عن الفندق في تلك الليلة ثم عاد إليه في نحو الثانية عشرة أو الثانية عشرة والنصف؟

ازدادت حملقة الآنسة لانغدون وقالت بأنفاس متقطعة: هل تظن أن...؟

- أنكم كنتم تستضيفون القاتل؟ لا، ولكن لديّ ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن شخصاً من ضيوفكم قد تنزّه باتجاه قصر مون ريبوز في تلك الليلة، فإن كان الأمر كذلك فربما يكون قد رأى شيئاً غير ذي أهمية بالنسبة له ولكنه مفيد جداً بالنسبة لي.

هزّت المديرة رأسها بتعقل بأسلوب متآلف تماماً مع مقتضيات المنطق البوليسي، ثم قالت: أفهم ذلك تماماً. والآن دعني أرى، من كان نزيلاً لدينا هنا؟

تجهمت وهي تستعرض في ذهنها -كما يبدو- أسماء النزلاء، وتستعين أحياناً بعدّهم على أصابعها.

- الكابتن سوان، والسيد إيلكنز، والرائد بلابونت، والسيد بنسن العجوز... لا، لا أعتقد أن أحداً خرج في تلك الليلة يا سيدي.

- وهل كنت ستلاحظين خروج أحد لو خرج؟

- نعم يا سيدي، فهذا نادراً ما يحدث. ربما خرج بعض الرجال لتناول العشاء خارج الفندق، ولكنهم لا يخرجون بعد العشاء، إذ -ببساطة- لا يوجد مكان يمكن للمرء أن يرتاده. كانت لعبة الغولف هي ما يميز منطقة أبوتز كروس، ولا شيء غير الغولف.

- هذا صحيح، فأنت إذن لا تتذكرين أن أحداً خرج من هنا في تلك الليلة؟

- فقط خرج الكابتن إنغلاند وزوجته لتناول العشاء.

هز بوارو رأسه قائلاً: ليس هذا ما أعنيه. سأحاول في الفندق الآخر، فندق الميتر، أليس هذا هو اسمه؟

- آه، فندق الميتر. بالطبع، من هناك يمكن لأي فرد أن يخرج.

كانت نبرة الاستخفاف ظاهرة في كلماتها، فانسحب بوارو بلباقة.

* * *

بعد عشر دقائق كان بوارو يعيد نفس المشهد، لكن مع الآنسة كول هذه المرة، المديرة الفظة لفندق الميتر، وهو فندق أكثر تواضعاً وأقل أسعاراً يقع قرب المحطة.

- لقد خرج رجل واحد في وقت متأخر من تلك الليلة ثم عاد في نحو الثانية عشرة والنصف كما أذكر، وكان من عادته أن يخرج ليتمشى في مثل ذلك الوقت من الليل، وقد خرج قبل ذلك مرة أو مرتين. دعني أراجع اسمه، فقد غاب الآن عن ذاكرتي.

سحبت سجلاً ضخماً وبدأت بتقليب صفحاته: تسعة عشر، عشرون، واحد وعشرون، اثنان وعشرون... آه، ها هو. اسمه نيلر، الكابتن همفري نيلر.

- هل سبق له أن أقام عندكم؟ هل تعرفينه جيداً؟

- أقام هنا مرة واحدة من قبل، قبل نحو أسبوعين من إقامته الأخيرة. وأذكر أنه خرج في الليل أيضاً آنذاك.

- وهل جاء إلى هنا ليلعب الغولف؟

- نعم، أظن ذلك، فهذا ما يأتي الجميع من أجله.

- هذا صحيح. حسناً يا آنسة، أشكرك جداً وأتمنى لك يوماً سعيداً.

عاد إلى قصر مون ريبوز وعلامات التفكير بادية على وجهه، وأخرج مرة أو مرتين شيئاً من جيبه لينظر إليه متمتماً لنفسه: لا بد من فعل ذلك سريعاً، حالما تسنح لي الفرصة.

* * *

بادر فور دخوله المنزل إلى سؤال بارسونز عن مكان الآنسة مارغريف، فأخبره أنها في الغرفة الصغيرة تعمل بمراسلات الليدي آستويل، وبدا أن هذه المعلومة قد أرضت بوارو.

وجد الغرفة الصغيرة بسرعة وبلا عناء. كانت ليلي مارغريف جالسة على مكتب قرب النافذة وهي تكتب غير شاعرة بوجوده، وأغلق بوارو الباب خلفه وتقدم من الفتاة قائلاً: هل لي بدقائق قليلة من وقتك يا آنسة؟ سيكون ذلك لطفاً كبيراً منك.

- بالتأكيد.

وضعت ليلي مارغريف الأوراق جانباً والتفتت نحوه قائلة: ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

- في ليلة المأساة يا آنسة، فهمت أنك ذهبتِ مباشرة إلى فراشك عندما ذهبَت الليدي آستويل إلى زوجها. هل هذا صحيح؟

هزت ليل مارغريف رأسها بالإيجاب، فسأل بوارو: ألم تنزلي ثانية تحت أي ظرف؟

هزت الفتاة رأسها بالنفي، فقال بوارو: أظنك قلت -يا آنسة- إنك لم تدخلي في أي وقت من تلك الليلة إلى غرفة البرج؟

- لا أذكر أنني قلت ذلك، ولكن هذا صحيح تماماً في الحقيقة؛ فأنا لم أدخل غرفة البرج في تلك الليلة.

رفع بوارو حاجبيه وتمتم: هذا غريب.

- ماذا تعني؟

تمتم بوارو ثانية: غريب جداً، كيف تفسرين هذا إذن؟

أخرج من جيبه قصاصة صغيرة من الشيفون الأخضر ملطخة بالدم ورفعها لتتفحصها الفتاة.

لم تتغير تعابير وجهها، ولكنه شعر بشهيقها الحاد أكثر مما كان. قالت: لا أفهم يا سيد بوارو.

- لقد كنت ترتدين ثوباً من الشيفون الأخضر في تلك الليلة كما علمت، وهذه مزقة منه.

قال ذلك وهو يمسك القصاصة بين أصابعه، فسألته الفتاة بحدة: وهل وجدت هذه في غرفة البرج؟ أين؟

نظر بوارو إلى السقف قائلاً: سنكتفي الآن بالقول إنها كانت في غرفة البرج.

قفزت نظرة خوف لأول مرة إلى وجه الفتاة فبدأت بالكلام، ثم ضبطت نفسها فيما كان بوارو يراقب يديها الصغيرتين البيضاوين تطبقان على حافة المكتب. قالت متأملة: أتساءل إن كنت قد ذهبت إلى غرفة البرج في تلك الليلة... أعني قبل العشاء. ولكني لا أعتقد ذلك، بل أنا شبه متأكدة من أنني لم أدخلها. ويبدو أمراً غريباً أن تبقى هذه المزقة في الغرفة طوال الوقت ولا يجدها الشرطة مباشرة.

- إن الشرطة لا يفكرون في الأشياء التي يفكر فيها هيركيول بوارو.

- ربما أكون قد مررت هناك للحظات قبل العشاء، أو ربما كان ذلك في الليلة التي سبقت تلك الليلة، فقد كنت أرتدي يومها الثوب نفسه. نعم، أكاد أجزم أن ذلك كان في الليلة السابقة.

قال بوارو بهدوء: لا أعتقد ذلك.

- لماذا؟

اكتفى بهزّ رأسه ببطء يمنة ويسرة، فهمست: ما الذي تعنيه؟

كانت منحنية إلى الأمام تحدق إليه وقد اندفعت الدماء إلى وجهها. قال: ألم تنتبهي إلى أن هذه المزقة ملطخة يا آنسة؟ ومما لا شك فيه أن ما يلطخها هو دم بشري؟

- هل تعني...؟

- أعني أنك كنت في غرفة البرج -يا آنسة- بعد ارتكاب الجريمة لا قبلها، وأظن أن من الأفضل لك أن تخبريني بالحقيقة كاملة لئلا يقع لك ما هو أسوأ.

نهض واقفاً في تلك اللحظة، وبدا رجلاً ذا هيئة صارمة وهو يوجّه إصبع اتهام إلى الفتاة. قالت ليلي لاهثة: كيف عرفت ذلك؟

- ليس المهم كيف عرفت يا آنسة، فأنا هيركيول بوارو الذي يعرف كل شيء. وأعرف أيضاً كل شيء عن الكابتن همفري نيلر، وأعرف أنك ذهبت لمقابلته في تلك الليلة.

فجأة وضعت ليلي رأسها بين ذراعيها وانفجرت بالبكاء، فتخلى بوارو مباشرة عن موقفه الاتهامي وأخذ يربّت على كتفها مواسياً: هيا، هيا يا صغيرتي، لا تتألمي. يستحيل على أحد أن يخدع هيركيول بوارو، ما إن تدركي ذلك حتى تنتهي كل مشكلاتك. ستقصّين الحكاية كلها عليّ الآن، أليس كذلك؟ ستخبرين بابا بوارو العجوز؟

- ليس الأمر كما تظن، ليس كذلك بالفعل؛ فأخي همفري لم يلمس شعرة من رأس السير روبن.

- أخوك؟ آه، هذه هي حقيقة الوضع إذن؟ حسناً، إذا أردت أن

تدفعي عنه الشبهات فعليك أن تخبريني بالقصة كلها الآن، ودون تحفظ.

اعتدلت ليلي في جلستها ثانية ورفعت شعرها عن جبينها، وبعد دقيقة أو اثنتين بدأت تتكلم بصوت خفيض وواضح: سأخبرك بالحقيقة يا سيد بوارو، فأنا أدرك الآن أن من السخف أن أفعل شيئاً غير ذلك. إن اسمي الحقيقي هو ليلي نيلر، وهمفري هو أخي الوحيد. قبل بضع سنوات، عندما كان أخي في إفريقيا، اهتدى إلى منجم ذهب، أو بالأحرى اكتشف وجود ذهب. لن أستطيع أن أخبرك هذا المقطع من القصة كما يجب لأنني لا أفهم التفصيلات الفنية ولكن ملخص القصة هو التالي:

لقد بدا ذلك الاكتشاف ذا احتمالات كبرى، فعاد همفري إلى الوطن حاملاً رسائل إلى السير روبن آستويل على أمل إثارة اهتمامه بالموضوع. أنا لم أفهم حتى الآن مسألة الحقوق التي تترتب على ذلك، ولكن ما فهمته هو أن السير روبن أرسل خبيراً ليوافيه برأيه وأخبر أخي بعد ذلك بأن تقرير الخبير كان سلبياً وأن همفري ارتكب خطأً كبيراً. وبعد ذلك عاد أخي إلى إفريقيا في بعثة داخل مجاهلها وضاعت آثاره، حتى ساد الاعتقاد بأن البعثة قد هلكت.

بعد ذلك بوقت قصير أُسِّست شركة لاستغلال «حقول ذهب مَبالا»، وعندما عاد أخي إلى إنكلترا استنتج مباشرة بأن حقول الذهب تلك كانت هي نفسها الحقول التي كشفها. ولم تكن للسير روبن آستويل -ظاهرياً- أية علاقة بتلك الشركة، وبدا أن هذه الشركة قد كشفت الحقول بنفسها، ولكن أخي لم يقتنع بذلك بل كان مقتنعاً بأن السير روبن قد خدعه عن عمد، وأصبح -تدريجياً- أكثر تعاسة وعدوانية بسبب هذه القضية.

نحن الاثنان وحيدان في هذا العالم يا سيد بوارو، وبما أنه كان من الضروري بالنسبة لي آنذاك أن أخرج وأكسب لقمة عيشي، فقد خطرت لي فكرة العمل في هذا البيت ومحاولة كشف أية علاقة محتمَلة بين السير روبن وشركة «حقول ذهب مبالا». ولأسباب واضحة قمت بإخفاء اسمي الحقيقي، وأعترف -بصراحة- بأنني استخدمت رسالة تزكية مزورة.

كان هناك عدة متقدمات لشغل هذه الوظيفة وأغلبهن يتمتعن بمؤهلات أفضل من مؤهلاتي، وهكذا كتبت رسالة تزكية جميلة من دوقة بيرثشاير التي كنت أعرف أنها سافرت إلى أمريكا. قلت في نفسي: إن دوقة سيكون لها تأثير كبير في الليدي آستويل. وكنت على حق تماماً، فقد قبلت تعييني على الفور. ومنذ ذلك الحين قمت بذلك العمل الكريه، التجسس، ودون أي نجاح حتى عهد قريب. لم يكن السير روبن بالرجل الذي يكشف أسرار عمله، ولكن عندما عاد فكتور آستويل من إفريقيا كان أقل حذراً في كلامه، وبدأت أصدق بأن أخي لم يكن مخطئاً رغم كل شيء. جاء أخي إلى هنا قبل الجريمة بنحو أسبوعين، وتسللت من المنزل لمقابلته سراً في الليل وأخبرته بالأشياء التي قالها فكتور آستويل، فتحمس كثيراً وأكّد لي أنني أسير في المسار الصحيح حتماً.

ولكن بعد ذلك بدأت الرياح تجري بما لا تشتهيه سفننا، إذ أن أحداً رآني -على الأغلب- وأنا أتسلل من المنزل فأخبرَ السير روبن بذلك، فثارت شكوكه وبدأ بالبحث عن الأشخاص الذين زكّوني، وسرعان ما عرف أنهم كانوا وهميّين. وقد بلغت الأزمة ذروتها يوم مقتله. أظنه كان يعتقد أنني أسعى خلف جواهر زوجته، وبغضّ النظر عن شكوكه فقد كان عازماً على إخراجي من مون ريبوز، مع

أنه وافق على عدم مقاضاتي بسبب مسألة رسائل التزكية المزورة. وقد وقفت الليدي آستويل بجانبي طول الوقت وواجهت السير روبن بشجاعة.

توقفت قليلاً، وكان وجه بوارو جدياً تماماً. قال لها: والآن نأتي إلى ليلة الجريمة يا آنسة.

ابتلعت ليلي ريقها بصعوبة وهزت رأسها ومضت تقول: عليّ أن أخبرك -بادئ ذي بدء- أن أخي حضر ثانية وأنني خطّطت للتسلل ومقابلته من جديد. ذهبت إلى غرفتي كما قلت، ولكنني لم أذهب إلى فراشي بل انتظرت حتى خُيِّل إليّ أن الجميع قد ناموا، فنزلت الدرج ثانية وتسللت إلى الخارج من الباب الجانبي حيث قابلت همفري وأخبرته بكلمات سريعة بما حصل. أخبرته أنني أعتقد أن الأوراق التي يريدها موجودة في خزنة السير روبن في غرفة البرج، واتفقنا أن نقوم بمغامرة يائسة أخيرة نحاول فيها الحصول على تلك الأوراق في تلك الليلة.

كانت خطتنا تقتضي أن أذهب أنا أولاً لأستكشف الطريق إلى الغرفة. وعند دخولي من الباب الجانبي سمعت ساعة الكنيسة تدق معلنة تمام الثانية عشرة، وبينما أنا في منتصف الطريق على الدرج المؤدّي إلى غرفة البرج سمعت صوت ارتطام شيء يقع وصاح صوتٌ قائلاً: «يا إلهي!». بعد دقيقة أو دقيقتين فُتح باب غرفة البرج وخرج منه تشارلز ليفيرسن، واستطعت أن أرى وجهه واضحاً تماماً في ضوء القمر، ولكنني كنت أجثم على مسافة منه أسفل الدرج في الظلام فلم يرني بتاتاً.

وقف هناك يترنح دقيقة على قدميه والشحوب باد عليه. بدا وكأنه

يصغي، ثم بذل جهداً لكي يتمالك نفسه ومضى ليفتح باب غرفة البرج وينادي بعبارة فحواها أنه لم يحصل هناك مكروه. كان صوته مرحاً ومبتهجاً تماماً، ولكن وجهه كان يكذّب ذلك. وانتظر دقيقة أخرى ثم صعد الدرج ببطء واختفى. عندما ذهب انتظرت قليلاً ثم تسللت إلى باب غرفة البرج. كان لديّ شعور بأن أمراً مأساوياً قد حدث، وكان المصباح الرئيسي مطفأ ولكن كان مصباح الطاولة مشتعلاً، وقد رأيت على ضوئه السير روبن ممدداً على الأرض قرب المكتب. تمالكت أعصابي أخيراً دون أن أدري كيف استطعت ذلك، فذهبت نحوه ثم جثوت قربه، وأدركت مباشرة أنه ميت نتيجة ضربة من الخلف وأن موته لم يحدث منذ فترة طويلة، فقد لمستُ يده فوجدتها ما تزال دافئة تماماً. كان ذلك فظيعاً يا سيد بوارو، فظيعاً جداً!

ارتعشت من تلك الذكرى، فنظر بوارو إليها بحدة وقال: وبعد ذلك؟

هزت ليلي مارغريف رأسها وقالت: نعم يا سيد بوارو، إنني أعرف بماذا تفكر. لماذا لم أصرخ وأوقظ مَن في البيت؟ أعرف أنه كان عليّ أن أفعل ذلك، ولكن سرعان ما خطرت لي الفكرة وأنا أجثو هناك... إن مشاجرتي مع السير روبن، وتسللي للقاء همفري، وحقيقة أنني كنت سأُصرف من المنزل في صباح اليوم التالي، كل ذلك كانت له عواقب قاتلة. سوف يقول الجميع إنني أدخلت همفري إلى المنزل وإن همفري قتل السير روبن بدافع الانتقام، ولو قلت عندها إنني رأيت تشارلز ليفيرسن يغادر الغرفة لما صدقني أحد.

كان ذلك فظيعاً يا سيد بوارو! كنت جاثية هناك أفكر وأفكر، وكلما زاد تفكيري خانتني أعصابي أكثر فأكثر. ثم لاحظت مفاتيح

السير روبن وقد سقطت منه عندما سقط، وكان بينها مفتاح الخزنة، أما تسلسل أرقامها فقد كنت أعرفه من قبل إذ كانت الليدي آستويل ذكرته أمامي مرة. قمت إلى تلك الخزنة وفتحتها وفتّشت في الأوراق التي وجدتها داخلها، وفي النهاية عثرت على ما كنت أبحث عنه. كان همفري مُحقاً تماماً؛ كان السير روبن يقف خلف شركة «حقول ذهب مبالا» وقد خدع همفري متعمّداً. ولكن هذا الاكتشاف كان من شأنه أن يزيد الأوضاع سوءاً؛ إذ أنه يمنح همفري دافعاً قوياً وقاطعاً يبرر اتهامه بارتكاب الجريمة؛ ولذلك فقد أعدت الأوراق إلى الخزنة وتركت المفاتيح فيها، وذهبت مباشرة إلى غرفتي في الطابق العلوي. وفي الصباح تظاهرت بالمفاجأة والرعب مما حصل كأي شخص آخر عندما كشفت الخادمة الجثة.

توقفت ونظرت إلى بوارو مستعطفة وهي تقول: أنت لا تصدقني يا سيد بوارو. آه، قل إنك تصدقني، أرجوك!

- أنا أصدّقك يا آنسة؛ فقد شرحت لي كثيراً من الأمور التي حيرتني، مثل قناعتك المطلقة بأن تشارلز ليفيرسن هو الذي ارتكب الجريمة، وأيضاً جهودك الدؤوبة لتثنيني عن القدوم إلى هنا.

هزت ليلي رأسها واعترفت بصراحة: لقد كنت خائفة منك، إذ لم تكن الليدي آستويل لتعلم (كما أعلم أنا) بأن تشارلز هو المذنب، ولم يكن بمقدوري أن أقول شيئاً. وهكذا تعلقت بأمل رفضك تولي القضية.

- ربما كان ذلك الحرص الواضح من طرفك هو الذي دفعني لتولي القضية.

نظرت ليلي إليه بسرعة وشفتاها ترتجفان قليلاً، ثم قالت: والآن يا سيد بوارو، ما الذي ستفعله؟

- فيما يخصك أنت يا آنسة لن أفعل شيئاً، فأنا أصدق قصتك وأقبلها. أما خطوتي التالية فهي الذهاب إلى لندن لرؤية المحقق ميلر.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سنرى.

خارج باب الغرفة نظر بوارو ثانية إلى مزقة الشيفون الخضراء الملطخة بالدم التي كان يمسكها بيده، ثم تمتم وهو راض عن نفسه: مدهشة عبقرية هيركيول بوارو!

-٧-

لم يكن المحقق ميلر من الذين يحبون السيد هيركيول بوارو، ولم ينتمِ إلى تلك العصبة القليلة من محقّقي اسكتلنديارد الذين رحبوا بتعاون ذَلك البلجيكي الضئيل، وقد اعتاد أن يقول إن هيركيول بوارو قد أُعطي أكثر من حجمه. وفي هذه القضية بالذات شعر أنه واثق تماماً من نفسه، ولذلك فقد رحب ببوارو بروح ومعنويات عالية قائلاً: أنت تعمل لحساب الليدي آستويل، أليس كذلك؟ حسناً، لقد اخترتَ ملاحقة السراب في هذه القضية.

- أما من شكوك محتمَلة في هذا الشأن إذن؟

- ليس من قضية أكثر وضوحاً من هذه، لقد كاد القاتل أن يُمسَك ملطَّخ اليدين بالجرم المشهود.

- لقد أدلى السيد ليفيرسن بشهادة كما فهمت.

- كان من الأفضل له أن يلتزم الصمت، إذ أنه يكرر مرة بعد مرة أنه صعد إلى غرفته مباشرة ولم يقترب من عمه أبداً، وهذه رواية رجل معتوه.

- إنها لا تثبت أمام الأدلة بالتأكيد. ولكن كيف بدا لك هذا الشاب ليفيرسن؟

- شاب لعين أبله.

- إنه ذو شخصية ضعيفة، أليس كذلك؟

هزّ المحقق ميلر رأسه بالإيجاب، فأضاف بوارو: من الصعوبة بمكان أن يظن المرء أن شاباً من هذا النوع يمكن أن تكون لديه... ماذا تسمي ذلك؟ قوة القلب لارتكاب جريمة كهذه.

- ظاهرياً هذا صحيح، ولكننا شهدنا مراراً أشياء كهذه. بإمكانك أن تحشر شاباً ضعيفاً في زاوية وأن تعطيه جرعة شراب أكبر من طاقته لتجعله (لمدة قصيرة من الوقت) شريراً أشِراً. إن رجلاً ضعيفاً يُحشَر في زاوية يكون أخطر من رجل قوي.

- هذا صحيح؛ نعم، ما تقوله صحيح.

استرخى ميلر قليلاً ثم قال: ولكن الأمر سيان بالنسبة لك يا سيد بوارو، فأنت ستتقاضى أجورك على أية حال، ومن الطبيعي أن عليك أن تتظاهر بدراسة الأدلة لتقنع سعادة الليدي. إنني أفهم ذلك كله.

* * *

كانت زيارته التالية إلى المحامي الذي يمثل تشارلز ليفيرسن.

كان السيد مايهيو رجلاً نحيلاً جافاً حذراً، وقد استقبل بوارو بتحفظ، ولكن لبوارو طرقه الخاصة في إشاعة الثقة على أي حال، ففي غضون عشر دقائق كان الاثنان يتحادثان بشكل ودي.

قال بوارو: أحيطك علماً بأنني أعمل في هذه القضية لمصلحة السيد ليفيرسن كلياً. هذه هي رغبة الليدي آستويل، فهي مقتنعة بأنه بريء.

- نعم، نعم، هذا صحيح.

قال السيد مايهيو جملته هذه بلا حماسة، فطرفت عينا بوارو وقال: أنت لا تعطي أهمية كبيرة لآراء الليدي آستويل كما يبدو، أليس كذلك؟

أجابه المحامي بجفاء: إنها متأكدة من براءته اليوم، لكن ربما تكون متأكدة من كونه مذنباً غداً.

- إن حدسها لا يشكّل دليلاً بالتأكيد، وتبدو القضية -في ظاهرها- محسومة تماماً ضد هذا الشاب المسكين.

- من المؤسف أنه أدلى بتلك الشهادة للشرطة، ولن يكن من المفيد أن يستمر بالتمسك بها.

- وهل استمر بالتمسك بها معك؟

هز مايهيو رأسه بالإيجاب وقال: لم تتغير ذرة واحدة، إنه يكررها كببغاء!

قال بوارو متأملاً: وهذا ما يضعضع ثقتك به. آه، لا تنكر ذلك.

ثم أضاف بسرعة وهو يرفع يده: إنني أرى ذلك واضحاً تماماً؛ فأنت تعتقد في قرارة نفسك أنه مذنب. ولكن أصغِ الآن إليّ، إليّ أنا هيركيول بوارو، فإنني سأقدم لك قضية فعلية: لقد عاد هذا الشاب إلى البيت بعد أن شرب حتى الثمالة، وبهذه الحالة دخل إلى المنزل وصعد بخطى مترنّحة إلى غرفة البرج حيث نظر من الباب فرأى في الضوء الخافت خاله منكبّاً -ظاهرياً- على مكتبه. وكما قلنا كان السيد ليفيرسن ثملاً فأطلق العنان لنفسه وأفضى لخاله بحقيقة مشاعره نحوه. تحدّاه وأهانه، وكلما أمعن خاله في عدم الإجابة ازدادت جرأته على المضي في تكرار شتائمه مرة بعد أخرى وصوتُه يعلو في كل مرة أكثر فأكثر. ولكن الصمت المستمر لخاله أيقظ إدراكه أخيراً، فمضى إليه ووضع يده على كتفه فتداعى جسم خاله تحت ضغط لمسته وسقط مكوَّماً على الأرض. عندئذ صحا الشاب ليفيرسن، وتحرك فأوقع الكرسي مُصدراً صوت ارتطام بالأرض، وحين انحنى فوق السير روبن أدرك ما حدث. نظر إلى يده المغطّاة بسائل أحمر دافئ فأصابه الذعر وصرخ، ولكن سرعان ما تمنى لو يبذل كل ما على الأرض لاسترداد تلك الصرخة التي أفلتت من بين شفتيه وتردّدَ صداها في المنزل. وبشكل لاإرادي أسرع خارج الغرفة ثم أصغى، إذ كان يتوهم أنه سمع صوتاً فشرع فوراً ولاإرادياً بالتظاهر بالحديث مع خاله عبر باب الغرفة المفتوح. ولكن الصوت الذي توهمه لم يتكرر، فاقتنع بأنه قد أخطأ في توهمه سماع ذلك الصوت. ثم ساد الصمت المكان فتسلل إلى غرفته، وخطر له فوراً أنه سيكون من الأفضل أن يدّعي أنه لم يقترب من خاله في تلك الليلة أبداً، فأدلى بتلك الرواية. ولعلك تذكر أن بارسونز لم يتحدث في ذلك الوقت بأي شيء مما سمعه، وعندما أدلى بارسونز بما سمعه كان الوقت متأخراً بالنسبة إلى ليفيرسن لتغيير إفادته. إنه غبي وعنيد إذ يتمسك

بإفادته تلك. والآن أخبرني يا سيدي، أليس هذا ممكناً؟

- بلى، أظن أن هذا ممكن وفقاً للتسلسل الذي وضعتَه للأحداث.

نهض بوارو وقال: أنت تستطيع رؤية السيد ليفيرسن. اذكر أمامه القصة التي رويتها لك ثم اسأله إن كانت صحيحة أم لا.

خارج مكتب المحامي أوقف بوارو سيارة أجرة وقال للسائق: خذني إلى المنزل رقم ٣٤٨ في شارع هارلي.

-٨-

كانت مغادرة بوارو إلى لندن مفاجأة للّيدي آستويل، لأن الرجل الضئيل لم يذكر شيئاً عما يعتزم فعله. وقد أخبره بارسونز لدى عودته بعد غياب استمر أربعاً وعشرين ساعة بأن الليدي آستويل تريد رؤيته بأسرع ما يمكن.

وجدها بوارو في غرفتها مسترخية في أريكة ومُستِندة برأسها إلى الوسائد. بدت مريضة منهكة إلى حد كبير بشكل يفوق حالتها يوم وصول بوارو، واستقبلته بقولها: ها قد عدت يا سيد بوارو؟

- نعم، عدت يا سيدتي.

- هل ذهبت إلى لندن؟

هزّ بوارو رأسه بالإيجاب، فقال بحدة: لم تخبرني أنك ذاهب.

- ألف اعتذار لك يا سيدتي؛ فأنا مخطئ في هذا. سوف أبلغك في المرة القادمة...

قاطعته الليدي آستويل بلمسة دعابة قاسية قائلة: في المرة القادمة ستكرر الأمر ذاته تماماً؛ تقوم بالشيء أولاً ثم تخبر الناس بعد ذلك. هذا هو أسلوبك، أليس كذلك؟

طرفت عينا بوارو وهو يقول: ربما كان هذا أسلوب سيدتي أيضاً.

- أحياناً... ربما كان كذلك. ولكن لماذا ذهبت إلى لندن يا سيد بوارو؟ هل تستطيع أن تخبرني الآن؟

- قابلت المفتش الطيب ميلر، والمحامي الرائع مايهيو أيضاً.

بحثت عينا الليدي آستويل في وجهه وهي تقول ببطء: والآن... ماذا تعتقد؟

تركزت عينا بوارو عليها وهو يجيبها بجدية: أعتقد أن لدينا فرصة لإثبات براءة تشارلز ليفيرسن.

قفزت الليدي آستويل نصف قائمة مُوقِعةً وسادتين مما حولها على الأرض وهي تقول: آه، لقد كنت على حق إذن، كنت على حق!

- لقد قلت «فرصة» يا سيدتي، ليس أكثر.

بدا أن شيئاً في نبرته قد أثارها، فاعتدلت على مرفقها ونظرت إليه نظرة ثاقبة، ثم سألته: أأستطيع أن أفعل شيئاً؟

- نعم، تستطيعين أن تخبريني يا ليدي آستويل: لماذا تشكّين في أوين تريفوسيس؟

- لقد أخبرتك أنني أعرف بحدسي، هذا كل ما هنالك.

قال بوارو بجفاء: ولكن هذا غير كاف لسوء الحظ. عودي بذاكرتك إلى تلك الليلة المشؤومة يا سيدتي، تذكّري كل تفاصيلها، كل حدث صغير تافه. ما الذي رأيته أو لاحظتِه في السكرتير؟ إنني -أنا هيركيول بوارو- أقول لك: لا بد أنك رأيت شيئاً.

هزت الليدي آستويل رأسها بالنفي وقالت: لم أكد أنتبه إلى وجوده أصلاً في تلك الليلة، ولم أكن أفكر فيه بالتأكيد.

- هل كان عقلك مشغولاً بأمر آخر؟

- نعم.

- بعداء زوجك للآنسة ليلي مارغريف؟

- هذا صحيح؛ يبدو أنك تعرف كل شيء عن ذلك الأمر يا سيد بوارو.

صرح الرجل الضئيل بعظمة فارغة قائلاً: أنا أعرف كل شيء.

- إنني أحب ليلي يا سيد بوارو، وقد شهدتَ ذلك بنفسك. كان روبن قد بدأ يثير ضجة حول بعض الجهات التي زكّتها، ولعلمك: أنا لا أدّعي أنها لم تخدعنا؛ لقد خدعتنا بالفعل. ولكن يا صديقي، لقد قمت أنا نفسي بأشياء أسوأ من هذه في أيامي الخالية، إذ كان على المرء أن يتقن كل أنواع الحيل ليكسب مديري المسارح، ولم أكن لأتورّع عن كتابة أو قول أي شيء يومها في سبيل ذلك. لقد رغبت ليلي في الفوز بهذه الوظيفة وتقدمت بكثير من الرسائل المنمَّقة التي لم تكن... حسناً، لم تكن حقيقية. إن الرجال يتصرفون بحماقة تجاه مثل هذه الأمور، إذ كانت الضجة التي أثارها كفيلة بأن تجعل ليلي تتصرف فعلاً كموظف بنك يفر بالملايين التي تقع في متناول يده! كنت قلقة

جداً طوال تلك الليلة، فرغم أنني كنت قادرة -في أكثر الحالات- على أن أقنع روبن في النهاية إلاّ أنه كان يتصرف أحياناً بعناد رهيب... ذلك المسكين العزيز. وبالتالي فلم يكن لديّ من الوقت ما أراقب به أي سكرتير بالطبع، والسيد تريفوسيس شخصٌ لا يجذب الانتباه أصلاً على أي حال؛ إنه يكون موجوداً وحَسْب، مجرد الوجود.

- لقد لاحظت هذه الحقيقة في السيد تريفوسيس؛ إنه ليس بالشخصية التي تلفت النظر أو تشعّ أو تؤثر.

- نعم، إنه ليس مثل فكتور.

- أستطيع القول إن السيد فكتور آستويل ذو شخصية متفجرة.

- هذا وصف رائع له، فهو يتفجر في كل أرجاء البيت كتلك الألعاب النارية.

- وأتخيل أنه ذو مزاج سريع التأثر والتغير، أليس كذلك؟

- آه، إنه عفريت كامل عندما يغضب، ولكنني لا أخاف منه يا صديقي؛ إذ يُقال إن الكلاب التي تنبح لا تعضّ.

نظر بوارو إلى السقف وتمتم برقة: ألن تتمكّني من تذكّر أي شيء عن السكرتير في تلك الليلة؟

- لقد قلت لك إنني أعرف ذلك يا سيد بوارو. إنه الحدس، حدس المرأة.

- حدس المرأة لا يشنق رجلاً، والأهم من ذلك أنه لا ينقذ رجلاً من حبل المشنقة. يا سيدة آستويل، إن كنت تعتقدين -بصدق- ببراءة

السيد ليفيرسن وأن شكوكك بالسكرتير تستند إلى أسس صحيحة، فهل توافقين على إجراء تجربة صغيرة؟

تساءلت الليدي آستويل بريبة: من أي نوع؟

- هل تسمحين بأن توضَعي في حالة من التنويم المغنطيسي؟

- ولماذا كل ذلك؟

تقدم بوارو بجسمه إلى الأمام وقال: لعلك تشكين في قولي إذا أخبرتك -يا سيدتي- أن حدسك مستند إلى بعض الحقائق المسجَّلة في عقلك الباطن، ولذلك سأكتفي بالقول إن هذه التجربة التي أقترحها ستكون ذات أهمية فائقة لذلك الشاب البائس تشارلز ليفيرسن. هل سترفضين؟

تساءلت الليدي آستويل بارتياب: ومَن الذي سينوّمني؟ أنت؟

- بل صديق لي يا سيدة آستويل، وقد وصل في هذه الدقيقة إن لم أكن مخطئاً. إنني أسمع صوت سيارته في الخارج.

- من هو؟

- إنه الدكتور كازاليت من شارع هارلي.

تساءلت الليدي آستويل بقلق: وهل هو... جيد؟

إنه ليس مشعوِذاً يا سيدتي إن كان هذا ما تعنينه. تستطيعين أن تضعي نفسك بين يديه بكل أمان.

تنهدت الليدي آستويل وقالت: حسناً، أعتقد أن هذا كله كلام

فارغ، ولكن يمكن لك أن تجرب إن أردت. لن أرضى أن يقول أحدٌ إنني قد عَرقلتُ عملك.

- ألف شكر لك يا سيدتي.

هرع بوارو من الغرفة وعاد بعد دقائق وهو يقود رجلاً ضئيلاً ذا وجه مرح مدوّر يضع نظارات. كان شكله مناقضاً لصورة رجل التنويم المغنطيسي كما تخيلته الليدي آستويل، وبعد أن قدمه بوارو قالت الليدي آستويل مداعِبةً: حسناً، كيف سنبدأ هذا الجنون؟

قال الدكتور: بكل بساطة يا ليدي آستويل، بكل بساطة. استلقي قليلاً هكذا... نعم، هذا جيد، لا داعي للقلق.

- لست قلقة أبداً، ولكنني أتساءل كيف لأحد أن ينوّمني ضد إرادتي.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الدكتور كازاليت وقال: نعم، ولكن إذا وافقت فلن يكون هذا ضد إرادتك، أليس كذلك؟ هذا جيد، هل لك أن تطفئ ذلك الضوء يا سيد بوارو؟ استرخي يا ليدي آستويل.

عدّل من جلسته قليلاً وبدأ يخاطبها: أصبح الوقت متأخراً، وأنت نعسانة، نعسانة جداً، جفناك ثقيلان، وهما يغمضان، يغمضان، يغمضان... ستنامين الآن...

ومضى صوته رتيباً خافتاً هادئاً في نسق واحد، ثم انحنى فرفع جفن الليدي آستويل الأيمن برقّة، ثم التفت إلى بوارو وهو يهزّ رأسه بعلامة الرضا وقال بصوت خافت: هذا جيد، هل أبدأ إذا سمحت؟

رفع الدكتور صوته متكلماً بحدة وبلجة آمرة: أنت نائمة يا ليدي آستويل، ولكنك تسمعينني وتستطيعين الإجابة عن أسئلتي.

أجاب الجسد الممدَّد على الأريكة بصوت منخفض رتيب ودون أن يرفّ له جفن: أنا أسمعك وأستطيع الإجابة عن أسئلتك.

- أريدك أن تعودي إلى الليلة التي قُتِل فيها زوجك. هل تذكرين تلك الليلة؟

- نعم.

- كنتِ على طاولة العشاء. صفي لي الذي رأيتِه وأحسستِ به.

تحرك الجسد الممدد قليلاً بشيء من القلق. قالت: إنني في كرب عظيم، أنا قلقة على ليلي.

- نعرف ذلك، أخبرينا ماذا رأيت.

- فكتور يلتهم كل اللوز المملَّح، إنه نَهِم. سأقول لبارسونز غداً أن لا يضع الطبق في ذلك الطرف من المائدة.

- استمري يا ليدي آستويل.

- روبن ذو مزاج سيئ هذه الليلة. لا أظن أن ذلك كله بسبب ليلي، بل إن للأمر علاقة بعمله، وفكتور ينظر إليه بطريقة غريبة.

أخبرينا عن السيد تريفوسيس يا ليدي آستويل.

- إن سِوار قميصه الأيسر مهترئ من الاحتكاك، وهو يضع دهوناً على شعره. أتمنى أن لا يضع الرجال دهوناً على شعرهم لأن هذا يفسد أغطية المساند في غرفة الجلوس.

نظر كازاليت إلى بوارو فأومأ الأخير برأسه.

- لننتقل إلى ما بعد العشاء يا ليدي آستويل. أنتم تشربون القهوة، صفي لي المشهد.

- القهوة لذيذة هذه الليلة، وهي تختلف من يوم إلى يوم إذ لا يمكن الاعتماد عل هذه الطباخة في إعدادها. ليلي تنظر من النافذة طوال الوقت، لا أدري لماذا. الآن دخل روبن الغرفة، إنه في واحدة من أسوأ حالاته المزاجية هذه الليلة، وقد انفجر بسيل حقيقي من الإهانات يكيلها للسيد تريفوسيس المسكين. السيد تريفوسيس تلتفّ يده حول سكين فتح الرسائل، تلك السكين الكبيرة ذات الحد المرهَف كحدّ السكين العادي. لكَمْ يمسكها بقوة! إن مفاصل أصابعه شديدة البياض. انظر، إنه يُدخلها بقوة في الطاولة بحيث انقصف رأسها، إنه يمسكها كما يمسك المرء بخنجر يريد طعن أحد به. ها هما قد ذهبا الآن. ليلي ترتدي ثوب السهرة الأخضر، إنها تبدو رائعة باللون الأخضر، مثل ملكة تماماً. عليّ أن أنظف أغطية المساند في الأسبوع المقبل.

- لحظة من فضلك يا ليدي آستويل.

دار الطبيب إلى بوارو وتمتم قائلاً: أعتقد أننا قد حصلنا على ما نريده، فذلك التصرف بسكين فتح الرسائل هو ما أقنعها بأن السكرتير هو الذي ارتكب الجريمة.

أجابه بوارو: دعنا نذهب الآن إلى غرفة البرج.

هز الطبيب رأسه، وبدأ مرة أخرى بتوجيه الأسئلة إلى الليدي آستويل بصوت حاسم قوي: نحن الآن في ساعة متأخرة من تلك

الليلة، أنت في غرفة البرج مع زوجك وقد جرى بينكما مشهد فظيع، أليس كذلك؟

تحرك الجسد ثانية بقلق: نعم، فظيع... فظيع. لقد تفوهنا بكلام مخيف، كلانا.

- لا تهتمي بذلك الآن. تستطيعين رؤية الغرفة بوضوح، كانت الستائر مسدلة والأضواء مشتعلة.

- لم يكن ضوء السقف مشتعلاً، بل المصباح المنضدي فقط.

- أنت تتركين زوجك الآن، إنك تتمنين له ليلة سعيدة.

- لا، لقد كنت غاضبة جداً.

- إنها المرة الأخيرة التي سترينه فيها، فعمّا قليل سوف يُقتَل. هل تعلمين مَن قتله يا ليدي آستويل؟

- نعم، السيد تريفوسيس.

- لماذا تقولين ذلك؟

- بسبب الانتفاخ... الانتفاخ في الستارة.

- هل كان هناك انتفاخ في الستارة؟

- نعم.

- وهل رأيت ذلك؟

- نعم، وكدت ألمسه.

- هل كان هناك رجل مختبئ... السيد تريفوسيس؟

- نعم.

- كيف عرفت؟

لأول مرة تردد الصوت الرتيب وفقد ثقته: أنا... أنا... بسبب سكين فتح الرسائل.

تبادل بوارو والطبيب نظرة سريعة مرة أخرى.

- لا أفهمك يا ليدي آستويل، تقولين إنه كان في الستارة انتفاخ وإن أحداً اختبأ هناك. هل رأيت ذلك الشخص؟

- لا.

- وهل اعتقدت أنه تريفوسيس بسبب طريقة مسكه لسكين فتح الرسائل في وقت سابق؟

- نعم.

- ولكن السيد تريفوسيس كان قد ذهب إلى فراشه، أليس كذلك؟

- بلى، بلى، هذا صحيح؛ كان قد ذهب إلى غرفته.

- إذن فمن غير الممكن أن يكون خلف ستارة النافذة.

- نعم، طبعاً، لم يكن هناك.

- كان قد تمنى لزوجك ليلة هانئة قبل ذلك، أليس كذلك؟

- بلى.

- وأنت لم تشاهديه مرة أخرى؟

- نعم، لم أشاهده.

كانت قد بدأت تتحرك وتتقلب وتئنّ بصوت خافت. قال الطبيب: إنها تصحو. حسناً، أظن أننا حصلنا على كل ما نستطيعه، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه موافقاً، وانحنى الطبيب على الليدي آستويل وبدأ يتمتم بلطف: إنك تصحين، أنت تصحين الآن، وبعد دقيقة ستفتحين عينيك.

انتظر الرجلان لحظة فاعتدلت الليدي آستويل في جلستها وحدقت إليهما قائلة: هل كنت في إغفاءة؟

أجابها الطبيب قائلاً: تماماً يا ليدي آستويل، مجرد إغفاءة قصيرة.

نظرت إليه وقالت: أهذه إحدى خدعك؟

- أرجو أنك لم تشعري بسوء؟

تثاءبت الليدي آستويل وقالت: أشعر أنني متعبة ومنهكة.

نهض الطبيب قائلاً: سأطلب أن يرسلوا لك بعض القهوة، وسوف نتركك الآن.

عندما وصلا إلى الباب نادتهما الليدي آستويل قائلة: هل قلت أي شيء؟

ابتسم بوارو وقال: لم تذكري شيئاً ذا أهمية كبرى يا سيدتي. لقد أخبرتِنا أن أغطية المساند في غرفة الجلوس بحاجة إلى تنظيف.

- إنها فعلاً كذلك، ولكنك لا تحتاج إلى تنويمي مغنطيسياً لكي أخبرك بهذا!

ضحكت بسعادة وتساءلت: هل قلت شيئاً آخر؟

- هل تتذكرين أن السيد تريفوسيس أخذ سكين فتح الرسائل في غرفة الجلوس تلك الليلة؟

- لا أدري، ربما فعل ذلك.

- هل يعني لك الانتفاخ في الستارة شيئاً؟

قطبت جبينها ثم قالت ببطء: يبدو أنني أتذكر... لا، لقد ذهبت. ومع ذلك...

قاطعها بوارو بسرعة قائلاً: لا تزعجي نفسك فليس للأمر أهمية، لا أهمية له أبداً.

* * *

ذهب الطبيب مع بوارو إلى غرفته، وهناك قال: حسناً، أظن أن ذلك يوضح الأمور بجلاء. ما من شك في أن السكرتير قد أمسك بسكين فتح الرسائل عندما كان السير روبن يوبخه وأنه مارس كثيراً من ضبط النفس ليمنع نفسه من الرد على السير روبن. لقد كان العقل الواعي للّيدي آستويل مشغولاً تماماً بمشكلة ليلي مارغريف، ولكن عقلها الباطن لاحظ تصرف تريفوسيس وأساء تفسيره. لقد زرع هذا التصرف في نفسها قناعة ثابتة بأن تريفوسيس هو الذي قتل روبن. ثم نأتي إلى الانتفاخ خلف الستارة... إنه أمر مثير. لقد فهمت من وصفك لغرفة البرج أن المكتب كان أمام النافذة تماماً، وكانت

توجد -طبعاً- ستارة على تلك النافذة، أليس كذلك؟

- بلى يا صديقي، ستارة مخملية سوداء.

- وهل في عتبة النافذة متسع يسمح لشخص بأن يبقى مختبئاً وراء الستارة؟

- هناك مكان يكفي كما أعتقد.

- إذن يوجد احتمال على الأقل بأن أحداً ما كان مختبئاً في الغرفة، فإن كان هذا صحيحاً فلا يمكن لهذا الشخص أن يكون السكرتير ما داما شاهداه كلاهما وهو يغادر الغرفة، ولا يمكن أن يكون فكتور آستويل لأن تريفوسيس قابله عندما كان فكتور يغادر الغرفة، ولا يمكن لهذا الشخص أن يكون ليلي مارغريف... إذن كان ينبغي على ذلك الشخص(كائناً مَن كان) أن يكون مختبئاً في الغرفة قبل دخول السير روبن لها في تلك الليلة. لقد أوضحت لي بشكل جيد حقيقة الوضع. والآن ماذا عن الكابتن نيلر؟ أيمكن أن يكون هو الذي اختبأ هناك؟

قال بوارو: كل شيء ممكن، فمن المؤكد أنه تناول عشاءه في الفندق، ولكن من الصعوبة تحديد وقت مغادرته بعد ذلك. وقد عاد في نحو الثانية عشرة والنصف.

- إذن يمكن أن يكون هو الذي اختبأ في الغرفة، وبالتالي فهو القاتل. إن لديه الدافع لذلك وكان هناك سلاح قريب في متناول يده، مع أنك لا تبدو مقتنعاً بالفكرة!

- بالنسبة لي لديّ أفكار أخرى. أخبرني الآن يا سيدي الطبيب:

إذا افترضنا للحظة واحدة أن الليدي آستويل نفسها هي التي ارتكبت هذه الجريمة، فهل كانت بالضرورة ستكشف هذه الحقيقة وهي نائمة مغنطيسياً؟

صفر الطبيب وقال: هذا إذن ما تفكر فيه؟ الليدي آستويل هي المجرمة، إيه؟ طبعاً هذا ممكن. لم يخطر لي هذا إلاّ الآن، فقد كانت آخر مَن قابله ولم يره أحدٌ بعدها على قيد الحياة. أما فيما يخص سؤالك فإنني أميل إلى قول: لا. في هذه الحالة كانت الليدي آستويل ستدخل في عملية التنويم مسلَّحة بتحفّظ عقلي قوي ضد قول أي شيء عن دورها في الجريمة؛ كانت ستجيب بصدق عن أسئلتي، ولكنها كانت ستصمت بخصوص تلك النقطة. ومع ذلك ما كنت لأتوقع -لو كانت هي القاتلة- أن تكون مصرّة على اتهام السيد تريفوسيس إلى هذه الدرجة.

- فهمت، ولكني لم أقل إنني أعتقد أنها القاتلة... إنه مجرد اقتراح.

قال الطبيب بعد فترة من الصمت: إنها قضية مثيرة، فلو سلّمنا بأن تشارلز ليفيرسن بريء لبقيت احتمالات كثيرة: همفري نيلر، والليدي آستويل، وحتى ليلي مارغريف.

قال بوارو بهدوء: يوجد احتمال آخر لم تذكره: فكتور آستويل. فهو قد جلس -بحسب إفادته- في غرفته وبابها مفتوح منتظراً عودة تشارلز ليفيرسن، ولكن ما من دليل على ذلك سوى أقواله نفسها. هل تفهمني؟

- إنه الشخص ذو المزاج السيء الذي أخبرتني عنه، أليس كذلك؟

- نعم، إنه هو.

وقف الطبيب وقال: حسناً، ينبغي عليّ أن أعود إلى المدينة. أخبرني لاحقاً كيف ستتطور القضية.

* * *

بعد مغادرة الطبيب قرع بوارو الجرس طالباً خادمه جورج، وقال: أريد كوباً من شراب الزهورات يا جورج، إن أعصابي مضطربة جداً.

- حاضر يا سيدي، سأعدّه على الفور.

بعد عشر دقائق أحضر لسيده فنجاناً يتصاعد منه البخار، فجعل يستنشق الأبخرة المتصاعدة بسعادة، ثم أخذ يتأمل بصوت عال وهو يرشف فنجانه: تختلف أنواع الصيد في كل أنحاء العالم؛ فالإمساك بالثعلب يقتضي منك أن تركب حصانك وتصطحب كلاب الصيد وتصيح وتركض، إنها مسألة سرعة. أما صيد الغزلان فقد فهمت من صديقي هيستنغر (رغم أنني لم أمارسه شخصياً) أنه يتطلب منك الزحف على بطنك لساعات وساعات. أما طريقتنا هنا -يا عزيزي الطيب جورج- فينبغي أن لا تكون وفق أي من هاتين الطريقتين. دعنا نتأمل ما تفعله قطة البيت؛ إنها تتربص لساعات طويلة مملّة أمام جحر الفأر، إنها لا تأتي بأية حركة ولا تضيع أي جهد، ولكنها تبقى متربصة لا تمل ولا تغادر!

تنهد ووضع الكوب الفارغ في طبقه وقال لخادمه: لقد طلبت منك أن تحزم أمتعة تكفي لبضعة أيام، لكنك ستذهب غداً إلى لندن -يا عزيزي جورج- وتحضر ما يكفي لإقامة أسبوعين آخرين.

- حسناً يا سيدي.

كالعادة، لم يكن في صوت جورج ما يشي بأي شعور.

-٩-

أزعجت إقامة هيركيول بوارو التي بدت دائمة في مون ريبوز كثيراً من المقيمين فيه؛ فقد احتجّ فكتور آستويل لزوجة أخيه متسائلاً: حسناً يا نانسي، إنك لا تعرفين طبيعة الرجال من نوع بوارو. لقد وجد هنا مستقراً رائعاً مريحاً، ويبدو أنه يريد حطّ رحاله باطمئنان لمدة شهر متقاضياً مبلغاً ذا شأن مقابل كل يوم من أيام إقامته.

وكان فحوى رد الليدي آستويل أن بوسعها أن تتدبر شؤونها بنفسها دون تدخل من أحد. أما ليلي مارغريف فقد حاولت جاهدة إخفاء قلقها؛ لقد كانت واثقة -في البداية- من أن بوارو قد صدق قصتها، أما الآن فلم تعد متأكدة من ذلك.

لم تكن لعبة بوارو هادئة تماماً، ففي اليوم الخامس من إقامته أحضر معه إلى العشاء ألبوماً صغيراً مخصَّصاً لأخذ البصمات، وقد بدا هذا الألبوم وسيلة بدائية لأخذ بصمات المقيمين في المنزل. ولكنه كان مفيداً على أية حال، فما من أحد يستطيع أن يرفض إعطاء بصماته. لذلك فإن فكتور آستويل لم يطرح وجهات نظره إلا بعدما غادر بوارو لينام: هل أدركتِ خطورة ذلك يا نانسي؟ إنه يسعى خلف واحد منا.

- لا تكن سخيفاً يا فكتور.

- حسناً، فما معنى ذلك الدفتر الصغير إذن؟

- إن السيد بوارو يعرف ما يقوم به.

قالت الليدي آستويل ذلك راضية وهي تلقي نظرة ذات معنى إلى أوين تريفوسيس.

وفي مناسبة أخرى ابتدع بوارو لعبة نسخ آثار الأقدام على الورق. وفي الصباح التالي دخل بوارو المكتبة بخطوات خفيفة كخطوات القطة مما جعل تريفوسيس يجفل ويقفز من كرسيه وكأنه أصيب بطلق ناري، ثم يقول متكلفاً الجدية: عليك أن تعذرني يا سيد بوارو، فقد أثرت فينا ما كان ساكناً.

تساءل بوارو ببراءة: حقاً! كيف؟

- سأعترف بأنني اعتقدت أن القضية المثارة ضد تشارلز ليفيرسن شديدة الإحكام ومحسومة، ولكنك لا تعتبرها كذلك كما يبدو.

كان بوارو واقفاً ينظر من النافذة، وفجأة التفت إلى محدثه وقال: سأخبرك شيئاً يا سيد تريفوسيس، واجعله سرّاً بيني وبينك.

- نعم؟

لم يبدُ على بوارو أنه يستعجل البدء بحديثه، فقد انتظر لحظة متردداً، وعندما تكلم تزامنت كلماته الافتتاحية مع صوت فتح وغلق الباب الأمامي للبيت. كان صوته وهو يتكلم عالياً بالنسبة إلى شخص يُفترض أنه يبوح بسر، بحيث طغى على صوت الخطوات الخارجية في الصالة. قال: سأطلعك على هذا السر يا سيد تريفوسيس؛ لقد توفر دليل جديد يؤكد أن السير روبن كان ميتاً فعلاً عندما دخل تشارلز ليفيرسن غرفة البرج.

حدق السكرتير إليه قائلاً: أي دليل هذا؟ ولماذا لم نسمع به؟

- سوف تسمع به، ولكن حتى يحدث ذلك فسوف نحتفظ أنا وأنت وحدنا بهذا السر.

ثم انسلّ من الغرفة بخفة، وكاد يصطدم في أثناء خروجه إلى الصالة بفكتور آستويل، فقال له: هل دخلت لتوّك يا سيدي؟

هزّ فكتور رأسه بالإيجاب وقال وهو يتنفس بصعوبة: يا له من يوم كريه في الخارج! يوم عاصف بارد.

- آه، إذن لن أتنزه اليوم، فأنا كالقطة أجلس قرب النار في نعيم الدفء.

* * *

في تلك الليلة قال لخادمه المخلص وهو يفرك راحتيه فرحاً: إن الخطة تعمل يا جورج، إنهم متوترون جداً. ثم تأتي الوثبة! من الصعوبة أن يلعب المرء لعبة القطة، لعبة الانتظار، ولكنها تثمر. نعم، تثمر بشكل رائع. وغداً سنقوم باستفزاز آخر.

في اليوم التالي اضطر تريفوسيس إلى السفر إلى المدينة، مستقلاً القطار نفسه الذي استقله فكتور آستويل. وما إن غادرا المنزل حتى تحرك بوارو في نشاط محموم.

- هيا يا جورج، لنسرع إلى العمل. إذا اقتربت الخادمة من هذه الغرف فعليك تأخيرها؛ قل لها أي كلام تافه عذب وأبقها في الممر.

دخل أولاً إلى غرفة السكرتير وبدأ فيها تفتيشاً دقيقاً لم يترك خلاله درجاً أو رفاً لم يفتشه، ثم أعاد كل شيء إلى مكانه بسرعة وأعلن الانتهاء من عمله. أطلق جورج الذي كان واقفاً بالباب يراقب الممر سعلة احترام وقال: لو سمحت لي يا سيدي.

- نعم يا عزيزي جورج؟

- الأحذية يا سيدي. لقد كان زوج الأحذية البني على الرف الثاني وكان الزوج ذو الجلد اللمّاع على الرف الأسفل، وقد قلبت ترتيبهما عندما أعدت وضعهما!

صاح بوارو وهو يرفع يديه: هذا رائع! ولكن دعنا لا نزعج أنفسنا بذلك، فهي مسألة غير مهمة يا جورج. لن يلاحظ السيد تريفوسيس أبداً أمراً تافهاً كهذا.

- كما ترى يا سيدي.

قال بوارو مشجّعاً وهو يربت على كتف خادمه: إن من واجبك ملاحظة أمور كهذه، لأن هذا يعطيك مزيداً من الفضل.

لم يجب الخادم بشيء، وعندما تكرر المشهد في وقت لاحق من ذلك اليوم في غرفة فكتور آستويل لم يعلّق جورج على عدم إعادة ملابس آستويل الداخلية إلى أدراجها الفعلية كما يقتضي التفتيش.

ولكن الأحداث أثبتت -في المرة الثانية على الأقل- أن الخادم كان مُحِقاً وأن بوارو كان مخطئاً؛ فقد اندفع فكتور آستويل إلى غرفة الاستقبال في تلك الليلة غاضباً يصيح: والآن اسمع أيها البلجيكي

المغرور اللعين، ما الذي تريده من تفتيش غرفتي؟ وماذا تعتقد أنك ملاقٍ هناك؟ لن أسمح بذلك، هل تسمعني؟ هذا ما كسبناه من إيواء جاسوس فضولي تافه في بيتنا.

امتدّت يدا بوارو فيما تدافعت الكلمات من فمه واحدة بعد أخرى. قدّمَ مئة اعتذار، ثم ألفاً، ومليوناً، مؤكداً أنه كان طائشاً ومتطفلاً ومضطرباً، وأنه تصرف بحرية لم يمنحها إياه أحد. وفي النهاية اضطر الرجل الحانق إلى أن يخمد مدمدماً.

ومرة أخرى تمتم بوارو في تلك الليلة وهو يرتشف فنجان الزهورات قائلاً لجورج: إن الخطة تتقدم يا عزيزي جورج... نعم، إنها تتقدم.

-١٠-

قال بوارو وهو يتأمل: إن الجمعة هو يوم سعدي.

- حقاً يا سيدي؟

- يبدو أنك لا تؤمن بهذه الخرافات يا عزيزي جورج، أليس كذلك؟

- أفضّل يا سيدي أن لا أكون الثالث عشر على المائدة، كما أنني أعارض المرور من تحت السلالم، ولكن ليس عندي خرافات فيما يخصّ يوم الجمعة.

- هذا جيد، لأننا سنحقق انتصارنا اليوم.

- فعلاً يا سيدي؟

- ما هذه الحماسة التي تتأجج فيك يا عزيزي جورج؟ إنك لم تكلف نفسك عناء سؤالي عمّا أعتزم فعله.

- وما الذي تعتزمه يا سيدي؟

- سأقوم اليوم بتفتيش شامل نهائي لغرفة البرج.

وبالفعل ذهب بوارو بعد الإفطار (وبعد موافقة الليدي آستويل) إلى مسرح الجريمة، وهناك رآه الساكنون في البيت في أوقات مختلفة من ذلك الصباح يزحف على يديه وركبتيه ويتفحص الستائر المخملية السوداء بدقّة، ويقف على كراسيّ عالية لفحص أُطُر اللوحات المعلقة على الجدار.

وللمرة الأولى أعربت الليدي آستويل عن عدم ارتياحها، إذ قالت: عليّ أن أعترف بأنه بدأ يثير أعصابي أخيراً. إنه يُضمر شيئاً لا أدري ما هو، كما أن منظره وهو يزحف على الأرض هناك كالكلب يجعلني أرتجف تماماً. ليتني أعرف عمّ يبحث؟ هل لكِ -يا عزيزتي ليلي- أن تصعدي لتري ما الذي يريده. ولكن لا، الأفضل أن تبقي معي.

نهض السكرتير عن مقعده سائلاً: هل أذهب أنا يا ليدي آستويل؟

- نعم، لو سمحت يا سيد تريفوسيس.

غادر تريفوسيس الغرفة وصعد الدرج إلى غرفة البرج، وعندما نظر داخلها اعتقد للحظة أنها فارغة، فلم يكن لهيركيول بوارو فيها أي أثر. وأوشك السكرتير أن يدور لينزل ثانية عندما سمع صوتاً، ثم ما لبث أن رأى بوارو في منتصف الدرَج اللولبي المؤدّي إلى غرفة النوم في الأعلى. كان جاثياً على يديه وركبتيه وفي يده اليسرى عدسة

جيب صغيرة يتفحص بها عن كثب شيئاً ما على الأرضية الخشبية قرب سجادة الدرج.

وفيما كان السكرتير يراقبه أصدر بوارو شخيراً مفاجئاً ودسّ العدسة في جيبه، ثم نهض على قدميه ممسكاً شيئاً بين إبهامه وسبابته. وفي تلك اللحظة انتبه إلى وجود السكرتير فقال: آه! السيد تريفوسيس، لم أسمعك تدخل.

في تلك اللحظة كان بوارو رجلاً مختلفاً؛ تشع من وجهه ومضات النصر والابتهاج، بينما راح تريفوسيس يحدق إليه بدهشة: ما الأمر يا سيد بوارو؟ تبدو مسروراً جداً.

تنهد الرجل الضئيل وقال: نعم، هذا صحيح. فكما ترى، وجدتُ أخيراً ما كنت أبحث عنه منذ البداية. إن معي الآن بين إصبعيّ هاتين الشيء الضروري لإدانة المجرم.

رفع السكرتير حاجبيه وقال: إذن فالقاتل لم يكن تشارلز ليفيرسن؟

- إنه لم يكن تشارلز ليفيرسن. كل شيء أصبح واضحاً أخيراً.

نزل عن الدرج وربّت على كتف السكرتير قائلاً: أنا مضطر إلى الذهاب إلى لندن فوراً، وأرجو أن تكلم الليدي آستويل نيابةً عني وتطلب منها أن يجتمع الكل في غرفة البرج في الساعة التاسعة من هذه الليلة. سأكون هنا في ذلك الوقت وسوف أكشف الحقيقة، إنني مطمئن إلى ذلك تماماً.

ثم انسلّ من غرفة البرج بحركة راقصة بديعة تاركاً تريفوسيس يحدق خلفه.

بعد دقائق ظهر بوارو في المكتبة متسائلاً فيما إذا كان بمقدور أحد أن يعطيه علبة كرتون صغيرة، قائلاً: للأسف لم أحمل معي شيئاً كهذا، وثمّة شيء بالغ القيمة يجب أن أضعه في علبة الكرتون هذه.

أخرج تريفوسيس من أحد أدراج المكتب علبة صغيرة فتظاهر بوارو بأنه فرح بها كثيراً. ثم أسرع في صعود الدرَج حاملاً اكتشافه الثمين، والتقى بجورج في منتصف الدرج فسلّمه العلبة وهو يقول: في هذه العلبة شيء فائق الأهمية. ضعها -يا عزيزي جورج- في الدُرج الثاني في طاولة الزينة في غرفتي، قرب صندوق الجواهر.

- حسناً يا سيدي.

- ولا تفتحها. كن حذراً، ففي هذه العلبة ما سيؤدي إلى شنق مجرم.

- اطمئن يا سيدي، لا حاجة إلى التوصية.

أسرع بوارو في نزول الدرج ثانية، حيث أخذ قبعته وغادر المنزل بركضة رشيقة.

-١١-

كانت عودته أقل مظهرية، وقد استقبله جورج -بناء على أوامره- عند الباب الجانبي، فسأله بوارو: هل اجتمعوا جميعاً في غرفة البرج؟

- نعم يا سيدي.

تبادل الاثنان كلمات قليلة، ثم صعد بوارو بخطوة المنتصر الواثقة إلى الغرفة التي كانت مسرحاً لجريمة القتل قبل أقل من شهر.

تجولت عيناه في أرجاء الغرفة فوجدهم جميعاً هناك: الليدي آستويل وفكتور آستويل وليلي مارغريف والسكرتير، وحتى النادل بارسونز الذي كان متردداً على باب الغرفة والذي خاطب بوارو عندما حضر قائلاً: لقد قال جورج إنك ربما احتجتني هنا، ولا أدري إن كان هذا صحيحاً يا سيدي؟

- إنه صحيح تماماً. فلتبقَ، أرجوك.

ثم تقدم إلى وسط الغرفة وقال بصوت بطيء تأملي: لقد كانت هذه القضية في غاية الإثارة، وسبب إثارتها أن أياً منكم كان بوسعه أن يقتل السير روبن آستويل. مَن الذي يرث ثروته؟ تشارلز ليفيرسن والليدي آستويل. مَن هو آخر من كان معه في تلك الليلة؟ الليدي آستويل. مَن الذي تشاجر معه بعنف؟ أيضاً الليدي آستويل.

صرخت الليدي آستويل: ما الذي تقوله؟ إنني لا أفهم شيئاً، فأنا...

قاطعها بوارو مكملاً حديثه بصوت كئيب: ولكن شخصاً آخر تشاجر مع السير روبن وتركه في تلك الليلة يفور غضباً. فإذا افترضنا أن الليدي آستويل تركت زوجها حياً في الثانية عشرة إلاّ ربعاً من تلك الليلة لكان لدينا عشر دقائق قبل عودة السيد تشارلز ليفيرسن، عشر دقائق يمكن خلالها لشخصٍ من الطابق الثاني أن ينزل متسللاً ويفعل فعلته ثم يعود إلى غرفته ثانية.

قفز فكتور آستويل صارخاً: ماذا تقول...؟

وغصّ بغضبه.

- لقد قتلت رجلاً مرة في إفريقيا في ثورة غضب يا سيد آستويل.

صاحت ليلي مارغريف: لا أصدق ذلك.

ثم تقدمت وقد أطبقت يديها وتوردت وجنتاها، وكررت كلامها وهي تقترب أكثر إلى جانب فكتور آستويل: لا أصدق ذلك.

قال فكتور آستويل: هذا صحيح يا ليلي، ولكن هناك أموراً لا يعرفها هذا الرجل، فقد اعتقدت أن لقتله ما يبرره.

اقتربت ليلي من بوارو وقالت بجدية: أنت مخطئ يا سيد بوارو، فكون المرء ذا مزاج حاد وكونه يتفجر غاضباً ويطلق لسانه بكل الكلمات الغاضبة لا يعني أنه يمكن أن يرتكب جريمة قتل. إنني أقول لك بأنني أعرف، بل أنا متأكدة من أن السيد آستويل غير قادر على القيام بشيء كهذا.

نظر بوارو إليها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة تماماً، ثم نظر إليها بلطف قائلاً: أترين يا آنستي؟ ها أنت أيضاً تملكين حدسك الخاص. إنك تؤمنين ببراءة السيد آستويل، أليس كذلك؟

أجابت ليلي بهدوء: إنه رجل طيب وشريف، ولم تكن له علاقة بالجانب الخفي من عمل شركة «حقول ذهب مبالا». إنه طيب تماماً، وقد وعدته بالزواج.

تقدم فكتور آستويل منها وأخذ يدها بيده وقال: يشهد الله أنني لم أقتل أخي يا سيد بوارو.

أجابه بوارو: أنا أعلم أنك لم تقتله.

دارت عيناه في أرجاء الغرفة، ثم قال: اسمعوا يا أصدقائي.

لقد ذكرت الليدي آستويل وهي منوَّمة مغنطيسياً أنها رأت انتفاخاً في الستارة في تلك الليلة.

اتجهت عيون الجميع إلى النافذة، وقال فكتور آستويل متعجباً: أتعني أنه كان هناك لصّ خلف الستارة؟ يا للحل الرائع!

- ولكنها لم تكن ستارة النافذة.

ثم دار وأشار إلى الستارة التي تغطي فتحة الدرَج الصغيرة قائلاً: لقد استعمل السير روبن غرفة النوم البديلة في أعلى هذا الدرج في الليلة السابقة للجريمة، وتناول إفطاره في السرير هناك، ثم استدعى السيد تريفوسيس إليه ليعطيه تعليماته. ولا أدري ما هو الشيء الذي نسيه السيد تريفوسيس في غرفة النوم، ولكنه نسي شيئاً ما. وعندما قال للسير روبن والليدي آستويل: «تصبحان على خير» تذكر ذلك الشيء، فصعد الدرج لإحضاره. ولا أعتقد أن أياً من الزوج أو الزوجة قد لاحظه، لأنهما كانا قد شرعا في نقاش عنيف، وكانا في أوج مشاجرتهما عندما نزل السيد تريفوسيس الدرَج ثانية. وقد كان ما يتبادله الزوجان من كلمات ذا طبيعة شخصية وخاصة، مما جعل تريفوسيس في موقف حرج لا يُحسَد عليه، فقد أدرك -بوضوح- أنهما تخيلاه قد ترك الغرفة منذ فترة، فدفعه الخوف من إثارة غضب السير روبن إلى البقاء حيث هو على أمل التسلل لاحقاً. فلبث هناك خلف الستارة، وعندما غادرت الليدي آستويل الغرفة لاحظت في اللاشعور تقاسيم شكله هناك.

وبعد أن غادرت الليدي آستويل الغرفة حاول تريفوسيس أن يتسلل إلى الخارج دون أن يلحظه السير روين، ولكن حدث أن أدار السير روبن رأسه فانتبه إلى وجود السكرتير. وبما أنه كان غاضباً أصلاً

فقد بدأ يكيل الشتائم لسكرتيره واتهمه بأنه يتلصص ويتجسس عن عمد وتصميم.

سيداتي وسادتي، إنني شغوف بعلم النفس، وقد كنت أبحث طوال هذه القضية عن طبيعة غير طبيعة الرجل أو المرأة من ذوي المزاج السريع الغضب. فالمزاج الغاضب هو نفسه صمام أمان لنفسه، والكلاب التي تنبح لا تعضّ كما يُقال. لقد بحثت عن الرجل ذي المزاج الهادئ، عن الرجل الصبور الذي يتحلى بضبط النفس، عن الرجل الذي لعب دور المُضطَهَد طوال تسع سنوات... إذ ليس من توتر أعظم من ذلك التوتر الذي استمر لسنوات طويلة، وما من استياء كذلك الاستياء الذي يتراكم ببطء.

لقد اضطهد السير روبن سكرتيره وأرهبه تسع سنوات، وطوال السنين التسع تحمّل الرجل ذلك بصمت. ولكن لا بد أن يأتي يومٌ يصل فيه التوتر أخيراً إلى نقطة الانفجار؛ شيء ما يتكسر، وهذا ما حصل في تلك الليلة. لقد عاد السير روبن إلى الجلوس على مكتبه بعد توبيخ سكرتيره، ولكن الأخير بدلاً من أن يستدير ويمضي إلى الباب بتواضع وخنوع التقط الهراوة الخشبية الثقيلة وهوى بها على رأس الرجل الذي طالما اضطهده.

ثم التفت بوارو إلى تريفوسيس الذي كان يحدق إليه وكأنه قد تحول إلى تمثال حجري، وقال له: لقد كان ادعاؤك الغيابَ عن مكان الجريمة بسيطاً تماماً؛ فقد اعتقد السير آستويل أنك كنت في غرفتك ولكنّ أحداً لم يرك تذهب إليها، وقد كنت على وشك التسلل إلى خارج الغرفة بعد أن ضربت السير روبن عندما سمعت صوتاً، فأسرعت في العودة إلى مخبئك خلف الستارة، وكنت هناك

عندما دخل تشارلز ليفيرسن الغرفة، وكنت هناك عندما أتت ليلي مارغريف، ولم تتسلل إلى غرفتك إلاّ بعد وقت طويل من ذلك بعد أن ساد الصمت في المنزل. هل تنكر ذلك؟

بدأ تريفوسيس يتلعثم: أنا... أنا لم...

- آه، دعنا نكمل القصة. لقد لعبتُ دوراً مضحكاً لمدة أسبوعين، إذ جعلتُكَ ترى الشبكة تطبق عليك ببطء. أخذت بصمات الأصابع وآثار الأقدام، وفتشت غرفتك وتركت بعض الأشياء في غير محلها عامداً، وكنتُ في كل ذلك أبث فيك الرعب. وقد كنت تجلس في الليل يقظان خائفاً متسائلاً إن كنتَ قد تركتَ بصماتك في الغرفة أو آثار أقدامك في مكان ما. وقد استعدتَ مراراً وتكراراً أحداث تلك الليلة، وتساءلت عمّا يمكن أن تكون قد فعلته أو لم تفعله. وهكذا وضعتُك في حالة زلّت معها قدمك. لقد رأيتُ الخوف يقفز إلى عينيك اليوم عندما التقطتُ شيئاً عن الدرج الذي وقفتَ عليه مختبئاً تلك الليلة، ثم قمتُ باستعراض كبير بطلبي تلك العلبة الصغيرة وإيداعها لدى جورج.

ثم التفت بوارو نحو الباب وصاح: جورج.

- إنني هنا يا سيدي.

- هل لك أن تخبر هؤلاء السادة والسيدات عن الأوامر التي أعطيتُك إياها؟

- أمرتني أن أبقى مختفياً في خزانة الملابس في غرفتك -يا سيدي- بعد وضع علبة الكرتون حيث أمرتني أن أضعها. وفي الساعة الثالثة

والنصف من بعد ظهر اليوم دخل السيد تريفوسيس الغرفة ومضى إلى الدرج حيث أخرج العلبة الذكورة.

مضى بوارو مكمّلاً: وقد كان في تلك العلبة دبوس عادي. إنني أقول الحقيقة دائماً. لقد التقطت بالفعل شيئاً عن الدرَج صباح اليوم، وأعتقد أن مَثَلكم الإنكليزي يقول: «اعثر على دبوس والتقِطْه يَكُنْ حظك جيداً اليوم». وأنا كان حظي جيداً، إذ أنني وجدت القاتل.

ثم التفت إلى السكرتير قائلاً: هل ترى؟ لقد كشفت نفسك.

فجأة انهار تريفوسيس، فغرق في كرسيه وهو ينشج وقد دفن وجهه بين يديه: لقد كنت مجنوناً، كنت مجنوناً، ولكن آه يا ربي كم اعتاد تعذيبي واضطهادي فوق كل احتمال! لقد كرهته ومقتُّه لسنوات طويلة.

صاحت الليدي آستويل: لقد عرفت ذلك!

ثم قفزت إلى الأمام ووجهها يشعّ بالانتصار وقالت: كنت أعرف أن هذا الرجل قد فعلها.

فقال لها بوارو: وقد كنتِ على حق. لقد برهن حدسك أنه صادق يا ليدي آستويل، لك مني أعظم التهنئة.

* * *

أربعة وعشرون شحروراً

- لن تجد ألذّ منها! هل تأخذ الحساء أولاً أم السمك؟

درس السيد بولينغتون الأمر وقال لبوارو محذّراً (إذ رآه يتفحص قائمة المأكولات): لن تجد هنا أياً من أصنافك الفرنسية، لا يوجد سوى الطعام الإنكليزي الطيب المطهوّ جيداً.

لوح بوارو بيده قائلاً: لن أطمع بأفضل من ذلك يا صديقي! استلم أنت قيادي دون تحفظ.

- آه، حسناً.

قالها السيد بولينغتون وأعطى المسألة جُلَّ اهتمامه. وبعد أن تمت تسوية هذه المسائل الخطيرة استراح السيد بولينغتون في كرسيه متنهداً وبسط منديله على المائدة، بينما انطلقت مولي مسرعة إلى عملها، فعلّق باستحسان: إنها فتاة جيدة، وقد كانت جميلة جداً فيما مضى بحيث كان الفنانون يرسمونها، وهي -بالإضافة إلى ذلك- خبيرة بالطعام، وهو الأهم. إذ إن النساء لسن ذوّاقات فيما يخص الطعام عادةً، وستجد كثيراً من النسوة إذا خرجتْ إحداهُنّ مع مَن تحبه فلن تنتبه إلى ما تأكله بل هي ستطلب أول صنف تراه.

هزّ بوارو رأسه قائلاً: هذا فظيع!

قال بولينغتون وهو يشعر بالرضا عن نفسه: إن الرجال ليسوا كذلك والحمد لله!

- كلهم؟

قال بوارو ذلك وطرف بعينيه، فاستدرك السيد بولينغتون قائلاً: حسناً، ربما كانوا غير ذلك في أول شبابهم. شبان مغرورون! إن شبّان هذه الأيام كلهم على نفس الشكل، يفتقرون جميعاً إلى الشجاعة والعزم. لا أحبهم!

ثم أضاف بنزاهة تامة: وهم لا يحبونني، وربما كانوا على صواب. ولكنك لو سمعت أحدهم يتحدث لحسبت أن أحداً لا ينبغي له أن يعيش بعد سن الستين! ولو حكم المرء بما يراه من عقليّتهم لاستغرب كيف لا يُقدم هؤلاء الشبان على دفع أقربائهم المسنين إلى مغادرة هذه الدنيا!

- من الممكن أنهم يقومون بذلك فعلاً.

- إن لك عقلاً رائعاً يا بوارو. لقد أدى انخراطك في العمل البوليسي إلى تدمير مُثُلك العليا.

ابتسم بوارو وقال: ومع ذلك فإن من الجدير بالاهتمام وضع جدول بالوَفَيات نتيجة الحوادث فوق سن الستين، وأنا أؤكد لك أن جدولاً كهذا سيثير علامات استفهام كثيرة في رأسك.

- مشكلتك أنك بدأت تسعى إلى البحث عن الجريمة بدل انتظار حدوثها وعرضها عليك.

- أعتذر إذ أتكلم بوحي من مهنتي. أخبرني يا صديقي عن أمورك، كيف تمضي الحياة معك؟

- في فوضى، هذه هي مشكلة الحياة في أيامنا، الكثير من الفوضى والكثير من الكلام المنمَّق. ويساعد الكلام المنمّق في إخفاء الفوضى، كنكهة الصلصة القوية التي تخفي حقيقة السمكة الفاسدة! أعطني شريحة سمك حقيقية ودعني من فوضى الصلصة فوقها.

أعطته مولي في تلك اللحظة مثل تلك الشريحة فهمهم مستحسناً: إنك تعرفين تماماً ما أحبه يا فتاتي!

- ينبغي أن أعرف ما تحب يا سيدي، فأنت تأتي إلى هنا بانتظام.

سألها هيركيول بوارو: فهل يحب الناس -إذن- الأشياء نفسها دائماً؟ ألا يحبون بعض التغيير أحياناً؟

- ليس الرجال يا سيدي. النساء يحببن التنويع، أما الرجال فإنهم يحبون الأصناف ذاتها دوماً.

علّق بولينغتون قائلاً: ألم أقل لك؟ النساء بطبعهن غير ذوّاقات فيما يخص الطعام!

ثم أجال بصره في المطعم وقال: العلمُ مضحك أحياناً. هل ترى ذلك العجوز ذا اللحية والشكل الغريب في الزاوية؟ بوسع مولي أن تخبرك أنه دائم الحضور إلى هذا المطعم مساء كل ثلاثاء وخميس مُنذ نحو عشر سنوات، حتى أصبح أحد معالم هذا المطعم. ومع ذلك لا يعلم أحدٌ هنا اسمَه أو عنوانه أو عمله. إذا فكرت بذلك ستجده غريباً.

عندما أحضرت النادلة وجبة الديك الرومي سألها بولينغتون: أرى أنكم ما زلتم تستضيفون «أبانا العتيق» هناك؟

- نعم يا سيدي؛ في كل ثلاثاء وخميس، هذان هما يوماه. إلاّ أنه جاء يوم الإثنين في الأسبوع الماضي، وقد أقلقني ذلك تماماً... شعرت أنني مخطئةٌ في التاريخ وأن ذلك اليوم كان الثلاثاء دون أن أدري! ولكنه عاد فأتى في الليلة اللاحقة، فكان يوم الإثنين -كما يبدو- مجرد زيارة إضافية إذا صحّ التعبير.

تمتم بوارو قائلاً: إنه تغيير في عادته يبعث على الاهتمام، فما هو السبب يا ترى؟

- إن أردت رأيي يا سيدي، فأنا أعتقد بأنه كان منزعجاً أو قلقاً.

- ولماذا تعتقدين ذلك؟ مِن تصرفه؟

- لا يا سيدي. ليس تصرفه بالضبط؛ فقد كان هادئاً كعادته، إذ يكتفي بعبارة «مساء الخير» عندما يأتي وعندما يذهب. ولكن الغريب كان طلبه.

- طلبه؟

خجلت مولي وقالت: لعلكم ستسخرون مني يا سادتي، ولكن عندما يأتي امرؤ هنا طوال عشر سنوات فلا بد لنا أن نعرف ما يحب وما يكره. لم يكن هذا العجوز يحب فطائر الشحم أو التوت البري الأسود، ولم أره يوماً يطلب حساء ثخيناً... ولكنه طلب في ليلة الإثنين تلك حساء البندورة الثخين وشريحة لحم بقري ونقانق الكلى وفطيرة

محشوة بالتوت البري الأسود... بدا وكأنه لم يلاحظ ما الذي طلبه!

قال بوارو: هل تعلمين أنني أجد ذلك غريباً جداً؟

مضت مولي وهي راضيةٌ بما سمعته، فضحك هنري بولينغتون وقال: حسناً يا بوارو، أتحفنا ببعض استنتاجاتك المعهودة.

- أفضّل أن أسمع استنتاجاتك أنت أولاً.

- تريدني أن أكون الدكتور واطسون؟ حسناً، لنقل إن العجوز راجع طبيباً فغيّر الطبيبُ نظامه الغذائي.

- يغير نظامه إلى حساء ثخين وشرائح لحم ونقانق الكلى وكعك التوت البري؟ لا أتخيل طبيباً يصف ذلك.

- لا تصدق ذلك يا صديقي، فالأطباء مستعدون لنُصْحِك بأي شيء.

- أهذا هو الحلّ الوحيد الذي خطر ببالك؟

- حسناً، لنتكلم بجِدّ. أظن أن ثمة تفسيراً واحداً ممكناً؛ وهو أن صاحبنا المجهول كان في حمأة عقلية قوية شوّشَته إلى الحد الذي لم ينتبه فعلاً لما يطلبه أو يأكله.

وصمت لحظة ثم مضى قائلاً: وأراك تخبرني بعدها أنك تعرف تماماً ما الذي كان يدور في ذهنه، وربما قلت إنه كان يعتزم ارتكاب جريمة.

ثم ضحك من اقتراحه، ولكن هيركيول بوارو لم يضحك.

* * *

اعترف بوارو بأنه كان في تلك اللحظة قلقاً تماماً، وقال إنه كان يُفترَض فيه وقتها أن يدرك ولو طرفاً بسيطاً مما قد حدث، ولكن أصدقاءه أكدوا له أن فكرة كهذه خيالية تماماً.

* * *

لم يلتقِ هيركيول بوارو بصديقه بولينغتون إلاّ بعد ثلاثة أسابيع، وكان لقاؤهما تلك المرة في قطار الأنفاق حيث حيّا كلٌّ منهما صاحبَه بهزة رأس وهما يتأرجحان وقوفاً متعلقَين بالمساكات الجلدية للعربة، ثم خرج جمع غفير في محطة بيكاديلّي فتوفرت مقاعد في مقدمة العربة حيث يجد المرء الراحة لعدم خروج أحد أو دخوله من هناك.

قال بولينغتون: هذا أفضل. ما أشد أنانية هؤلاء الناس، إنهم لا يفسحون مجالاً في العربة مهما ناشدتهم!

هز بوارو كتفيه استهجاناً وقال: وبأي شيء عساك تناشدهم، بعمرك؟ لا أحد يعلم كم تطول حياته.

- فعلاً، لا يلبث اليوم أن يصير أمساً دابراً.

قالها السيد بولينغتون بنبرة كئيبة ثم أضاف: وبمناسبة الحديث عن ذلك، فهل تذكر ذلك العجوز الذي رأيناه في مطعم غالانت أنديفر؟ لن أستغرب أن يكون قد اختار الدار الباقية لأنه لم يتردد على المطعم طوال أسبوع كامل، حتى أن مولي قلقةٌ جداً بشأن غيابه.

اعتدل بوارو في جلسته ولمعت عيناه الخضراوان وقال: حقاً؟ حقاً؟

فأجابه بولينغتون: هل تذكر اقتراحي بأنه قد راجع طبيباً وغيّر

نظامه الغذائي؟ إن مسألة النظام الغذائي أمر سخيف بالطبع، ولكن ربما كان قد راجع طبيباً بخصوص حالته الصحية فقال له الطبيب شيئاً أصابه بصدمة ما. وهذا ما يفسر طلبه أشياء لم يألفها دون الانتباه لما يفعله، ومن المحتمل كثيراً أن تكون تلك الصدمة قد عجلت بخروجه من هذا العالم بأسرع مما لو لم يتلقّها، ولذلك ينبغي للأطباء أن يدققوا فيما يقولونه لمرضاهم.

- إنهم يدققون عادة.

- ها قد جاءت محطتي. وداعاً، لا تفترض أننا يمكن أن نعرف أبداً هوية ذلك العجوز، ولا حتى اسمه... علام تضحَك؟

وأسرع خارجاً من العربة، أما بوارو فبدا وهو يجلس مقطّب الجبين وكأنه لا يعتقد بأن هذا العالم مضحك فعلاً، ثم ذهب إلى بيته وأعطى بعض التعليمات لخادمه المخلص جورج.

* * *

مرّر هيركيول بوارو إصبعه على قائمة بأسماء الوفيات في منطقة معينة، ثم توقف إصبعه وهو يردّد: هنري جازكوين، العمر تسعة وستون. سأجرب هذا أولاً.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم جلس بوارو مع الدكتور ماكاندرو في عيادته في شارع كينغز. كان ماكاندرو طويلاً أحمر الشعر ذكي القسمات، وأجاب عن تساؤل بوارو قائلاً: جازكوين؟ نعم، صحيح، ذلك العجوز غريب الأطوار. كان يعيش في أحد تلك البيوت القديمة المهجورة التي تُهدَم عادة لبناء مجمعات شقق حديثة. لم أعالجه من قبل، ولكني كنت أراه أحياناً وأعرفه. لقد كان عامل

الألبان هو الذي لاحظ الأمر في البداية، إذ بدأت زجاجات الحليب المملوءة تتراكم خارج باب بيته، وبعدها أخبر جيرانُه الشرطة الذين كسروا الباب ووجدوه. كان قد هوى عن الدرج فاندقّت عنقه، وكان يرتدي رداء نوم قديماً ذا نطاق مهترئ يحتمل أن يكون قد تعثر به.

- هكذا إذن؟ كان الأمر بسيطاً تماماً... مجرد حادث.

- نعم.

- هل له أقرباء؟

- هناك ابن أخت له كان يأتي لرؤية خاله مرة في الشهر تقريباً، اسمه جورج لوريمر، وهو طبيب أيضاً ويقيم في ويمبلدون.

- هل بدا منزعجاً لوفاة العجوز؟

- لا أستطيع تأكيد ذلك. أعني أنه كان يحب خاله العجوز، ولكنه لم يكن يعرفه حق المعرفة.

- كم كان قد مضى على وفاة السيد جازكوين عندما رأيته؟

- آه، هنا نأتي إلى الجانب الرسمي... كان قد مرّ على وفاته ما بين ثمان وأربعين ساعة واثنتين وسبعين ساعة. لقد اكتشفت جثته صباح السادس من هذا الشهر، وكان في جيب ردائه رسالة كُتبت في الثالث من الشهر ووضعت في البريد في ويمبلدون بعد ظهر اليوم الثالث، والأغلب أنها وصلت في نحو الساعة التاسعة والثلث مساء اليوم نفسه. وهذا يجعل وقت الوفاة بعد الساعة التاسعة والثلث من اليوم الثالث في هذا الشهر، وهو ينسجم مع ما وجدناه في معدته من طعام ومع عمليات الهضم، إذ كان قد تناول وجبة قبل نحو ساعتين

من موته. وقد فحصته صباح اليوم السادس وكانت حالته تشير إلى أن الوفاة حدثت قبل نحو ستين ساعة، أي قرب العاشرة من مساء اليوم الثالث.

- كل ذلك يبدو طبيعياً ومنسجماً. قل لي: متى شوهد حياً لآخر مرة؟

- شوهد في نحو السابعة من مساء ذلك اليوم في شارع كينغز، حيث تعشى في مطعم غالانت أنديفر في السابعة والنصف، ويبدو أنه كان يتعشى هناك في كل ثلاثاء.

- أليس له أقرباء آخرون غير ابن أخته؟

- كان له شقيق توأم. وتبدو قصتهما غريبة تماماً؛ فهما لم يلتقيا منذ سنوات، ويبدو أن شقيقه أنطوني جازكوين تزوج امرأة غنية جداً وهجر الفن، وقد تشاجر الشقيقان إثر ذلك ولم يتقابلا منذ ذلك الحين كما أعتقد. ولكن الغرابة كلها في حقيقة أنهما توفيا في اليوم نفسه، حيث مات الشقيق الأكبر في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثالث من هذا الشهر! لقد مرت بي في السابق حالة توأمين يموتان في يوم واحد وهما في بقعتين مختلفتين من العالم. ربما كان ذلك مصادفة، ولكنه حدث.

- وزوجة الشقيق الآخر، أهي على قيد الحياة؟

- لا، لقد ماتت منذ بضع سنين.

- وأين كان أنطوني جازكوين يعيش؟

- كان لديه بيت في منطقة كينغستون هيل، وكان يعيش في عزلة عن العالم كما فهمت من الدكتور لوريمر.

هزّ بوارو رأسه مفكراً، فيما نظر إليه الطبيب بحدة ثم سأله بفظاظة: ما الذي تفكر فيه بالضبط يا سيد بوارو؟ لقد أجبت عن أسئلتك كما يمليه عليّ الواجب وأنا أرى الوثائق التي أبرزتها لي، ولكنني ما زلت أجهل سبب كل هذه الأسئلة.

أجاب بوارو ببطء: ما قلتَه يفيد بأن القضية قضية بسيطة لوفاة جاءت نتيجة حادث، ولكن ما أفكر فيه هو أنها قضية بسيطة بنفس الدرجة، ولكنها قضية دفعة بسيطة.

جفلَ الطبيب ماكاندرو وقال: بكلمة أخرى: جريمة قتل! هل لديك أية أسباب لهذا الاعتقاد؟

- لا، إنه مجرد افتراض.

- ولكن لا بد من وجود سبب.

لم يتكلم بوارو، فقال ماكاندرو: إن كان ابن الأخت لوريمر هو موضع شكوكك فإنني أقول لك الآن: إنك تلاحق الشخص الخطأ. إذ أن لوريمر كان يلعب الورق في ويمبلدون من الساعة الثامنة والنصف وحتى منتصف الليل، وقد ورد ذلك في الاستجواب.

- والأغلب أن ذلك قد تم التأكد منه، فالشرطة حريصون في هذه الأمور.

- هل عندك أية معلومات ضده؟

- لم أكن أعلم بوجوده أصلاً حتى أخبرتني أنت.

- فهل تشكّ في شخص آخر إذن؟

- لا، لا، ليست هذه هي المشكلة أبداً. إنها قضية العادات

الروتينية لذلك الحيوان الذي يسمّى إنساناً. إنها قضية مهمة جداً، والسيد جازكوين الراحل لا ينطبق وضعه ولا ينسجم. هناك خطأ ما، هل تفهمني؟

- في الواقع لا أفهم.

تمتم بوارو قائلاً: المشكلة هي أن ترى كثيراً من الصلصة فوق السمكة الفاسدة.

- ماذا تعني يا سيدي العزيز؟

ابتسم بوارو وقال: أنت توشك أن تقفل عليّ الباب كما يُفعَل بالمجانين يا سيدي الدكتور، ولكنني لست مصاباً بعقلي في الحقيقة؛ فأنا مجرد رجل يحب النظام والمنهجية ويشعر بالقلق عندما يصادف حقيقة لا تنسجم معهما. عليّ أن أطلب عفوك لما سبّبته لك من تعب.

نهض ونهض معه الطبيب وهو يقول: أنا -بصدق- لا أرى أي شيء يبعث على الشك في موت هنري جازكوين. أنا أقول إنه وقع، وتقول أنت إن شخصاً ما قد دفعه. حسناً، ربما كان كل ذلك... مجرد افتراضات.

تنهد هيركيول بوارو وقال: نعم، إنه عمل بارع. لقد قام شخص بهذه العملية بنجاح!

- أما زلت تعتقد...

رفع الرجل الضئيل يديه مقاطعاً: أنا رجل عنيد... رجل يحمل فكرة صغيرة وما من شيء يدعمه! بالمناسبة، هل كانت لهنري جازكوين أسنان اصطناعية؟

- لا ، فقد كانت أسنانه في حالة ممتازة، أسنان رائعة حقاً لمن هم في مثل سنه.

- أكان يعتني بها جيداً؟ هل كانت بيضاء نظيفة؟

- نعم، لقد لفتت أسنانه انتباهي بشكل خاص؛ فالأسنان تميل إلى الاصفرار مع تقدم العمر، ولكن أسنانه كانت في حالة جيدة.

- ألم تكن ملوَّنة بأي شكل؟

- لا أعتقد أنه كان مدخناً إن كان ذلك ما تقصده.

- لا ، لم أقصد ذلك تحديداً. كانت مجرد رمية بعيدة ربما لا تصيب هدفها! وداعاً يا دكتور ماكاندرو، وشكراً على لطفك.

صافح الطبيب وغادر قائلاً: والآن، إلى الرمية البعيدة.

* * *

جلس في مطعم غالانت أنديفر على الطاولة نفسها التي جلس عليها مع بولينغتون، وقد خدمته فتاة غير مولي، فمولي كانت في إجازة كما أخبرته الفتاة.

كانت الساعة قد بلغت السابعة تماماً، ولم يجد بوارو أية صعوبة في الدخول مع الفتاة في المحادثة حول السيد جازكوين العجوز. قالت النادلة: نعم، استمرّ في المجيء إلى هنا سنوات وسنوات، ولكن أياً منا -نحن الفتيات- لم تعرف اسمه. لقد رأينا التحقيق حول وفاته في الصحيفة حيث وضعوا صورة له، فقلت لمولي: انظري، أليس هذا «أبانا العتيق» (كما كنا ندعوه)؟

- لقد تعشى هنا ليلة وفاته، أليس كذلك؟

- بلى، يوم الثلاثاء الثالث من هذا الشهر، حيث كان يأتي بانتظام أيام الثلاثاء... الثلاثاء والخميس، وكان دقيقاً في حضوره كالساعة.

- وهل تذكرين ما الذي تناوله على العشاء؟

- دعني أتذكر... تناول حساء دجاج بالتوابل الهندية، ونقانق بقر، وفطيرة التوت الأسود والتفاح والجبن. مَن كان يظن أنه سيذهب بعدها إلى بيته ويقع من أعلى الدرج في تلك الليلة نفسها؟ قالوا إنه تعثّر بالنطاق المهترئ لثوبه. طبعاً كانت ملابسه غريبة دوماً... بالية قديمة الطراز، وكان يلبسها كيفما اتفق. ومع ذلك فقد كان ذا هيئة توحي بأنه كان شخصاً مهماً. آه، إن لدينا كل أنواع الزبائن الغريبين هنا.

ثم مضت، وأكل بوارو شريحة السمك التي طلبها وعيناه تشعّان ببريق أخضر. قال لنفسه: غريب، كيف يقع أذكى الناس في أخطاء تفصيلية؟ سوف يستمتع بولينغتون بذلك. ولكن الوقت لم يحن -بعدُ- لإجراء حوار مرفّه مع بولينغتون.

* * *

لم يجد بوارو (الذي تسلح برسائل تعريف من أوساط نافذة معينة) صعوبة أبداً في التعامل مع محقق الوَفَيات في المنطقة، وقد علق المحقق بقوله: إن الفقيد جازكوين شخصية غريبة. لقد كان عجوزاً وحيداً غريب الأطوار، ولكن يبدو أن موته قد أثار كثيراً من الانتباه.

كان ينظر بشيء من الفضول إلى زائره وهو يتكلم. واختار بوارو

كلماته بعناية قائلاً: ثمة ظروفٌ أحاطت بموته يا سيدي، وهي تجعل من التحقيق مسألة مطلوبة.

- حسناً، كيف لي أن أساعدك؟

- أظن أن من اختصاصك أن تأمر بإتلاف أو بحفظ الوثائق التي تبرز في محكمتك، كما ترى الأمر مناسباً. وهناك رسالة معينة وُجدت في جيب رداء الميت، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- هل كانت رسالة من ابن أخته، الدكتور جورج لوريمر؟

- صحيح تماماً، وقد أبرزت الرسالة في أثناء الاستجواب لتحديد وقت الوفاة.

- وتطابقت في ذلك مع الدليل الطبي، أليس كذلك؟

- بالضبط.

- ألا تزال تلك الرسالة موجودة؟

انتظر بوارو الرد بلهفة، وعندما سمع بأن الرسالة ما زالت موجودة ويمكن له فحصها تنهد بارتياح، وعندما أُحضرت له الرسالة أخيراً تفحصها بعناية. كانت مكتوبة بخط معقَّد قليلاً وبقلم حبر، وكان نصها:

الخال العزيز هنري،

يؤسفني أن أبلغك بأنني لم أحقق نجاحاً فيما يخصّ الخال أنطوني، إذ لم يُبدِ أي حماسة لزيارة منك له،

ولم يعطني جواباً على طلبك منه بنسيان الماضي وفتح صفحة جديدة.

إنه مريض جداً بالطبع، وعقله يميل إلى الخرف. وأظن أن نهايته أصبحت قريبة جداً، فقد بدا أنه لم يتذكر مَن أنت إلا بصعوبة.

أعتذر لفشلي في تحقيق رغبتك، ولكنني أؤكد لك أنني بذلت قصارى جهدي.

ابن أختك المحب: جورج لوريمر

كانت الرسالة نفسها مؤرَّخة في الثالث من تشرين الثاني، وقد ألقى بوارو نظرة على ختم البريد على المغلف فقرأ: ٤,٣٠ مساء، ٣ تشرين الثاني.

تمتم بوارو قائلاً: إنها وفق النظام تماماً، أليس كذلك؟

* * *

كانت وجهته التالية هي كينغستون هيل. وهناك، بعد قليل من المتاعب ومن ممارسة الإلحاح المختلط بروح الدعابة، حصل بوارو على مقابلة مع إميليا هيل طاهية ومدبرة منزل الراحل أنطوني جازكوين.

كانت السيدة هيل ميّالة إلى العناد والتشكيك في البداية، ولكن اللطف الساحر لهذا الأجنبي ذي الشكل الغريب كان من شأنه أن يؤثر في جُلمودِ الصخر. وهكذا بدأت إميليا هيل تتخلى عن تحفظها، فقد وجدت نفسها -ككثير من النساء قبلها- تصبّ متاعبها في أذن متعاطفة حقاً.

لقد تولت مسؤولية منزل السيد جازكوين طوال أربعة عشر عاماً، وما كان ذلك بالعمل السهل أبداً. كان يمكن للكثيرات أن يذبلن تحت وطأة الأعباء التي اضطرت إلى تحمّلها! كان الرجل المسكين غريبَ الأطوار، ولا يمكن إنكار ذلك، وعلى درجة كبيرة من البخل... بل كان ذلك مرضاً فيه، وهو الرجل الغني! ولكن السيدة هيل خدمته بإخلاص وتحملت طريقة حياته، وتوقعت منه -على كل حال- أن يترك لها «ذكرى». ولكنْ لا، لا شيء البتة! مجرد وصية قديمة تعطي كل أمواله لزوجته، وفي حال وفاتها قبله يؤول كل شيء لأخيه هنري. وصية تمت صياغتها منذ سنوات طويلة، ولم تكن عادلة!

أبعدها بوارو تدريجياً عن موضوعها الرئيسي: الجشع الذي ليس له حدود. لقد كان ذلك ظلماً قاسياً بالفعل، ولا يجدر أن تلام السيدة هيل على شعورها بالدهشة والأذى، فقد كان السيد جازكوين مشهوراً بأنه ذو قبضة محكمة فيما يخص إنفاق المال، بل يقال إن الرجل الميت قد رفض مساعدة أخيه الوحيد. وربما كانت السيدة هيل تعلم كل ذلك، فقد سألت بوارو قائلة: ألهذا السبب جاء الدكتور لوريمر طالباً رؤيته؟ لقد علمت أن الأمر يتعلق بأخيه، ولكنني ظننت أن الأمر لا يعدو رغبة أخيه في المصالحة معه، فقد تشاجرا منذ سنوات.

- ولكني فهمت أن السيد جازكوين رفض ذلك تماماً، أليس كذلك؟

- هذا صحيح تماماً؛ لقد قال وقتها: "هنري؟ ما هذا الذي أسمعه عن هنري؟ لم أره منذ سنوات ولا أريد رؤيته، إنه شخص كثير الخصام"... هكذا قال تماماً.

ثم عاد الحديث إلى أحزان السيدة هيل الخاصة والموقف القاسي لمحامي السيد جازكوين، ووجد بوارو بعض الصعوبة في الاستئذان اللبق الذي لا يقطع الحديث بشكل فظ.

بعد ذلك وعقب فترة الغداء توجّه إلى شارع دورسيت في ويمبلدون حيث مسكن الدكتور جورج لوريمر. كان الطبيب في المنزل، وقد تم إرشاد بوارو إلى العيادة الملحقة بالمنزل وأتاه الدكتور لوريمر سريعاً بعدما أنهى غداءه كما هو واضح.

قال له بوارو: أنا لست مريضاً يا دكتور، وربما كان في حضوري إلى هنا بعض الوقاحة، ولكنني رجل عجوز أؤمن بالتعامل البسيط والمباشر ولا آبه بالمحامين وأساليبهم الملتوية.

لقد أثار اهتمام لوريمر بالتأكيد. كان الطبيب رجلاً حليقاً متوسط الطول ذا شعر بنّي ورموش تكاد تكون بيضاء مما يضفي على عينيه سمة الشحوب، وكان أسلوبه رشيقاً مع الدعابة. ورداً على كلام بوارو رفع الدكتور حاجبيه وقال: المحامون؟ كم أكرههم! ولكنك أثرت فضولي يا سيدي العزيز، أرجوك أن تجلس.

جلس بوارو ثم أخرج بطاقة تعريف بمهنته وناولها للطبيب. طرفت رموش جورج لوريمر البيضاء فيما أحنى بوارو قامته للأمام وقال كأنه يفشي سراً: إن العديد من زبائني نساء.

- هذا طبيعي.

- صحيح، هذا طبيعي لأن النساء لا يثقن بالشرطة ويفضلن التحريات الخاصة، حيث لا يردن أن تنتشر أخبار مشكلاتهن. لقد جاءت امرأة عجوز لاستشارتي قبل بضعة أيام، وكانت حزينة على

زوجها الذي تشاجرت معه قبل سنوات. وقد كان زوجها هذا هو خالك الراحل، السيد جازكوين.

اصطبغ وجه جورج لوريمر بلون كالأرجوان، وهتف قائلاً: خالي؟ هذا هراء! لقد ماتت زوجته منذ سنوات طويلة.

- ليس خالك السيد أنطوني جازكوين، بل خالك السيد هنري جازكوين.

- خالي هنري؟ ولكنه لم يكن متزوجاً!

- بل كان متزوجاً.

قالها بوارو وهو يستند بارتياح ودون تردد، ثم أضاف: ما من شك في ذلك؛ ولقد أحضرت السيدة معها عقد الزواج.

صاح جورج لوريمر وقد أصبح وجهه بلون ثمرة الخوخ: هذه كذبة! لا أصدق ذلك... إنك كاذب وقح.

- كم هو سيئ لك أن ترتكب جريمة من أجل لا شيء، أليس كذلك؟

- جريمة؟!

قالها لوريمر وقد تهدج صوته وجحظت عيناه الشاحبتان رعباً.

- بالمناسبة، أرى أنك قد عدت إلى أكل حلوى التوت البري الأسود. إنها عادة سيئة، فمع أن التوت البري الأسود مليء بالفيتامينات كما يقال، إلا أنه ربما يكون قاتلاً في بعض الأحيان. وفي هذه الحالة أتصور أن التوت البري ساعد في وضع الحبل حول عنقك يا دكتور لوريمر.

* * *

قال بوارو لصديقه بولينغتون وهو يبتسم بهدوء ويلوّح بيده مفسراً: وهكذا ترى يا صديقي أنك أخطأت في افتراضك الأساسي؛ إذ إن رجلاً يعاني من ضغط عقلي شديد لا يمكن أن يعمل وهو في حالته تلك شيئاً لم يعمله من قبل. إن ردود أفعاله تتخذ فوراً المسار الذي لا يحتوي أية مقاومة. والآن: هل يمكن لشخص يكره الحساء الثخين والنقانق المدهّنة والتوت البري أن يطلب فجأة وفي ليلة واحدة الأصناف الثلاثة جميعاً؟ إنك تقول إن ذلك حدث لأنه كان يفكر في أمر آخر، ولكنني أقول إن الرجل الذي يشغله شاغل في عقله سوف يطلب آلياً الوجبة التي اعتاد أن يطلبها مراراً.

حسناً، إذن فما التفسير البديل لذلك؟ لم أستطع -ببساطة- أن أجد تفسيراً معقولاً، ولذلك شعرت بالقلق! لقد كان الأمر كله خطأ ولا ينسجم مع المنهج، وأنا ذو عقل منظّم يحب أن يرى الأشياء تحدث بمنهجية، وقد أقلقني طلب عشاء السيد جازكوين. ثم قلتَ لي إن الرجل اختفى وغاب يومَي الثلاثاء والخميس للمرة الأولى منذ سنوات، فزاد ذلك في قلقي وأورد إلى ذهني افتراضاً غريباً، وهو أن الرجل ميت إذا صدق ظني، ولذلك قمت بتحرياتي فعلمت أنه مات حقاً وأنه مات بشكل مرتب ومنظم جداً! وبكلمة أخرى: كانت السمكة الفاسدة مغطاة بالصلصة!

كان قد شوهد في شارع كينغز في السابعة مساء، وتناول عشاءه هنا في السابعة والنصف، قبل ساعتين من موته. وكان كل ذلك يتطابق وينسجم بعضه مع بعض: دليل محتويات المعدة، ودليل الرسالة... كان هناك الكثير من الصلصة، حتى إنك لا تستطيع رؤية السمكة نهائياً!

ابن الأخت المخلص كتب الرسالة، وابن الأخت المخلص كان

لديه دليل على أنه كان في مكان آخر ساعة الجريمة. وكانت الوفاة بسيطة تماماً: سقوط عن الدرج. هل كان ذلك حادثاً بسيطاً أم جريمة قتل بسيطة؟ كان الجميع يقولون بالخيار الأول.

ابن الأخت المخلص هو القريب الوحيد الباقي على قيد الحياة، ابن الأخت المخلص سيرث... ولكن، هل كان هناك ما يمكن أن يرثه؟ لقد كان الخال معدماً، ولكن كان هناك أخ، وأخ تزوج في شبابه امرأة غنية، والأخ يعيش في بيت ثمين ضخم في كينغستون هيل، ولذلك يبدو أن الزوجة الغنية قد تركت له كلّ ثروتها. هل ترى السلسلة؟ الزوجة الغنية تترك المال لأنطوني، وهو يترك ماله لهنري، وأموال هنري تؤول لجورج... سلسلة كاملة.

قال بولينغتون بعد أن استمع إلى كل هذا الشرح: كل هذا جميل نظرياً، ولكن ما الذي فعلته عملياً؟

- حالما تمتلك المعرفة فإنك تستطيع أن تمسك بما تريد. لقد مات هنري بعد ساعتين من تناول وجبة، كان ذلك كل ما أراد التحقيق أن يهتم به. ولكنْ لنفترض أن تلك الوجبة كانت وجبة غداء لا عشاء. ضع نفسك مكان جورج، فقد كان بحاجة ماسة إلى المال، وكان أنطوني جازكوين يموت، ولكن موته لم يكن مفيداً لجورج لأن أمواله ستنتقل إلى هنري الذي يُحتمل أن يبقى على قيد الحياة سنوات. لذلك فإن هنري يجب أن يموت أيضاً، والمفضَّل أن يكون ذلك بسرعة. ولكن ينبغي أن يحدث موته بعد موت أنطوني، وفي نفس الوقت كان على جورج أن يؤمّن دليل غياب عن مكان الجريمة. وقد منحتْ عادةُ هنري في تناول عشائه في المطعم مرتين أسبوعياً جورج فكرة تأمين مثل ذلك الدليل، وبما أنه رجل حذر فقد حاول

تجربة خطته أولاً، فتقمّص دور خاله متنكراً مساء الإثنين في ذلك المطعم. لم ينتبه أحدٌ إلى الأمر ونجحت التجربة، فقد ظنه الجميع خاله، فشعر بالرضا. ولم يعد عليه سوى رؤية علامات قاطعة على أن وفاة خاله أنطوني أصبحت وشيكة، وعندما بدأ خاله يحتضر كتب رسالة إلى خاله هنري بعد ظهر الثاني من تشرين الثاني، ولكنه أرّخها في الثالث من الشهر، ثم حضر إلى المدينة بعد ظهر اليوم الثالث فزار خاله ونفذ خطته... دفعة قوية ويهوي الخال هنري إلى أسفل الدرج. يبحث جورج عن الرسالة التي كتبها لخاله ليجدها ويدسها في جيب رداء النوم الذي كان خاله يرتديه، وفي السابعة والنصف يذهب إلى مطعم غالانت أنديفر بلحية وحواجب كثة وعُدّة التنكر كاملة... وبذلك يبدو هنري جازكوين على قيد الحياة في السابعة والنصف دون شك. بعد ذلك يغير شكله ثانية وبسرعة في أحد الحمامات، وينطلق بأقصى سرعة سيارته إلى ويمبلدون حيث يقضي سهرة لعب الورق: إنه عذر غياب كامل عن مسرح الجريمة.

نظر إليه بولينغتون وقال: ولكن ماذا عن ختم البريد على غلاف الرسالة؟

- آه، كان ذلك بسيطاً؛ فقد كان الختم ملطخاً قليلاً. لماذا؟ لأنه تم تغييره بواسطة سِناج المصباح من الثاني إلى الثالث من تشرين الثاني، ولم يكن المرء ليلاحظ هذا التزوير ما لم يكن يبحث عنه. وأخيراً كان هناك دليل آخر، الشحارير.

- الشحارير؟!

- «أربعة وعشرون شحروراً مشوية في فطيرة»... كما تقول الأغنية القديمة، أو قُل «التوت الأسود» بدل الشحارير السوداء إن

أردت أن تكون أكثر حرفية! لم يكن جورج ممثلاً قديراً بدرجة كافية رغم كل شيء. هل تذكر ذلك الرجل الذي طلى نفسه بالسواد لكي يمثل دور عطيل؟ إن ذلك النوع من الممثلين هو ما تحتاجه الجرائم أحياناً. لقد بدا جورج مثل خاله ومشى مثل خاله وتكلم مثل خاله ووضع لحية وحواجب مثل لحية خاله وحواجبه، ولكنه نسي أن «يأكل» مثل خاله! لقد طلب الأصناف التي يحبها هو، ومن المعروف أن التوت البري الأسود يغير لون الأسنان بينما كانت أسنان الرجل الميت ناصعة البياض. وحتى لو افترضنا بأن هنري جازكوين أكل توتاً أسود في المطعم تلك الليلة، فكيف لم يظهر ذلك في محتويات معدته؟ لقد سألت هذا الصباح وتأكدت أن معدته لم يكن فيها بقايا توت بري أسود. وبالإضافة إلى كل ذلك فقد كان جورج من الحماقة بحيث احتفظ باللحية وبباقي مستلزمات التنكر! لقد زرت جورج وضايقته مما أدى إلى انهياره واعترافه وانتهاء القضية. وبالمناسبة، كان قد عاد إلى أكل التوت البري بعد ذلك. لقد كان رجلاً نهماً لا همّ له سوى طعامه، ولا أحسب إلا أن نهمه سيؤدي به إلى حبل المشنقة، وما أظنني مخطئاً في ذلك.



الحلم

ألقى بوارو نظرة فاحصة مركّزة نحو المنزل، وتجولت عيناه لحظة في الأبنية المجاورة؛ في المحلات وفي المصنع الضخم إلى اليمين ومجمّعات الشقق السكنية الرخيصة المقابلة. ثم عادت عيناه إلى جهة نورثوي، ذلك الأثر التاريخي الذي ينتمي إلى عصر سابق، عصر تتميز مساكنه بالاتساع والراحة، حيث كانت الحقول الخضراء تحيط بهذا القصر العتيد. أما الآن فإنه مجرد مفارقة تاريخية في غير محلها، مغمورة ومنسية في هذا الخِضَم المحموم لمدينة لندن الحديثة، حيث إنك لن تجد شخصاً واحداً من كل خمسين يمكن أن يدلك على مكانه. بل إن أولئك الذين يعرفون صاحبه هم أقل من ذلك بكثير، مع أن اسم صاحبه كاد أن يُعَد واحداً من أغنياء العالم. ولكن المال يمكن أن يحط من ذكر المرء كما يرفع ذكره.

لقد اختار بينيدكت فارلي، ذلك المليونير غريب الأطوار، أن لا يعلن عن محل سكناه، فهو شخصياً لم يكن يُرى أو يظهر في المناسبات العامة إلاّ نادراً، إذ كان يظهر بين فترة وأخرى في اجتماعات مجالس الإدارة بجسمه النحيل وأنفه المعقوف وصوته الأجش، وهو يسيطر بسهولة على المديرين المجتمعين، ولم يكن -باستثناء ذلك- سوى أسطورة غامضة مشهورة! كانت له قصص

بخل غريبة وقصص كرم لا تصدَّق، بالإضافة إلى بعض التفصيلات الشخصية مثل رداء نومه الشهير المصنوع من الرُّقَع مختلفة الألوان والذي يقال إنه يرتديه منذ ثمانية وعشرين عاماً، ونظامه الغذائي الثابت المؤلَّف من حساء الملفوف والكافيار، وبغضِه للقطط... كل تلك الأمور كان يعرفها عنه الجمهور.

وكان هيركيول بوارو يعرفها أيضاً، بل إنها كانت كل ما يعرفه عن الرجل الذي جاءه زائراً، والرسالة التي كانت في جيبه لم تُضِف إلى معلوماته إلاّ القليل.

جال بوارو ببصره على هذا المَعلم الحزين من معالم القرون الماضية صامتاً للحظات، ثم صعد الدرج المؤدي إلى الباب الأمامي للمنزل وقرع الجرس وهو ينظر إلى ساعته اليدوية الأنيقة التي حلت أخيراً محل ساعته المفضَّلة القديمة، تلك الساعة الضخمة مثل حبّة لفت مفلطحة والتي أصبحت من مخلَّفات الماضي. نعم، كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف تماماً؛ كان بوارو -كعادته- دقيقاً حتى الثواني.

فُتح الباب بعد فترة وجيزة، ووقف نموذجٌ مثالي لمهنة النادل في الباب حاجباً الصالة المضيئة. سأله بوارو: منزل السيد بينيدكت فارلي؟

استعرضته النظرة الحيادية للنادل من رأسه حتى أخمص قدميه بفعالية، ولكن دون إزعاج. وقال بوارو لنفسه: إنه نموذج النادل بجملته وتفصيله!

سأل الصوتُ المهذب: هل لديك موعد يا سيدي؟

- نعم.

- اسمك يا سيدي؟

- هيركيول بوارو.

انحنى النادل وتراجع قليلاً، فدخل بوارو المنزل وأغلق النادل الباب خلفه. ولكن يبدو أنه كان هناك تصرف رسمي إضافي قبل أن تقوم يدا النادل الرشيقتان بأخذ القبعة والعصا من الزائر، إذ قال له: لك أن تعذرني يا سيدي؛ فقد طُلب مني أن أطالبك برسالة.

أخرج بوارو بتروٍّ رسالة مطوية من جيبه وسلمها للنادل الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم أعادها بانحناءة، فأعادها بوارو إلى جيبه. كان مضمون الرسالة بسيطاً:

السيد هيركيول بوارو

سيدي العزيز، يرغب السيد بينيدكت فارلي بالتشرف باستشارتك، فإذا كان ذلك مناسباً لك فسيسعده أن تزوره في عنوانه أعلاه في التاسعة والنصف من مساء غدِ الخميس.

المخلص: هوغو كورنْوُرثي (السكرتير)
ملاحظة: يرجى إحضار هذه الرسالة معك

أخذ النادل قبعة بوارو وعصاه ومعطفه برشاقة ثم قال: هل لك أن تتلطف بالصعود إلى غرفة السيد كورنْورثي؟

ثم قاده على الدرج العريض، وتبعه بوارو وهو ينظر بإعجاب إلى تلك الأعمال الفنية ذات الطبيعة الغنية بالزخارف والألوان. لقد كان ذوقه في الفن بورجوازياً دائماً!

في الطابق الأول قرع النادل باباً. وارتفع حاجبا بوارو قليلاً، فقد كانت تلك أول ملاحظة ملفتة للنظر لأن النادل الجيد لا يقرع الأبواب، ومما لا شك فيه أن هذا النادل كان من الدرجة الأولى. كان ذلك إيذاناً -إذا صح التعبير- بأول احتكاك لبوارو مع غرابة أطوار المليونير.

وتكلم صوتٌ من الداخل بشيء ما ففتح النادلُ الباب وأعلن، وهنا أيضا أحسّ بوارو بالانحراف المتعمَّد عن التقاليد المتزمّتة لطبقة النُدُل: السيد الذي تنتظره يا سيدي.

دخل بوارو غرفة فسيحة بسيطة الأثاث بديعة المنظر. كانت تحتوي على خزائن الملفات وكتب المراجع وكرسيين مريحين ومكتب ضخم مَهيب مغطىً بأوراق مصفّفة بعناية وترتيب، وكانت زوايا الغرفة خافتة الإضاءة لأن الضوء الوحيد كان ينبعث من مصباح مكتبي ضخم ذي مظلة خضراء كان على طاولة صغيرة قرب أحد الكرسيين. كان المصباح موضوعاً بحيث يعكس ضوءه كله على كل قادم من الباب، وطرفت عينا بوارو قليلاً وهو يفكر بأن المصباح كان بقوة مئة وخمسين شمعة على الأقل.

جلس على الكرسي رجل ضئيل الجسم يرتدي رداء نوم مرقّعاً. كان ذلك هو بينيدكت فارلي، وكان رأسه منحنياً إلى الأمام بأسلوب اشتهر به فارلي، فيما برز أنفه المعقوف كمنقار طائر، وقد انتصبت فوق جبينه خصلة شعر بيضاء كعرف الببغاء، وكانت عيناه تلمعان خلف عدسات نظارته السميكة وهو يحدق إلى ضيفه بارتياب.

أخيراً قال بصوت خشن حاد: هيه، فأنت هيركيول بوارو إذن؟

- في خدمتك يا سيدي.

قالها بوارو بلطف منحنياً ويده على مسند الكرسي.

- تفضل، اجلس.

جلس بوارو مغموراً بضياء المصباح كله، فيما بدا أن الرجل العجوز يدرسه بعناية من خلف المصباح. وأخيراً قال له مشاكساً: كيف يمكنني أن أعرف أنك هيركيول بوارو فعلاً؟ أخبرني: كيف، هيه؟

سحب بوارو الرسالة مرة أخرى من جيبه وأعطاها لفارلي، فقال المليونير مهمهماً: نعم، هذا صحيح؛ هذا ما جعلتُ كورنورثي يكتبه.

ثم طوى الرسالة وأعادها إلى بوارو قائلاً: إذن فأنت الرجل المطلوب، أليس كذلك؟

أجاب بوارو بتلويح خفيف من يده قائلاً: أؤكد لك أنه ليس في الأمر خداع.

قهقه بينيدكت فارلي فجأة وقال: هذا ما يقوله الساحر قبل أن يُخرج الأرنب من قبعته... وهذا القول جزء من الخدعة نفسها كما تعلم!

لم يجبه بوارو، فقال فارلي فجأة: هل تعتقد أنني عجوز شكّاك؟ آه، أنا كذلك فعلاً، وشعاري هو «لا تثق بأي كان!»؛ إذ لا يمكنك أن تثق بأي كان عندما تكون غنياً... لا يمكن أبداً، إن ذلك لا ينفع.

ذكّره بوارو بلطف قائلاً: لقد أردت أن تستشيرني؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب وقال: «اذهب إلى الخبير ولا تهتم بالتكاليف»... لعلك لاحظت أنني لم أسألك عن أجورك يا سيد

بوارو، ولن أسألك! أرسل لي القائمة لاحقاً ولن أقتطع شيئاً منها. لقد حسب أولئك الحمقى اللعينون في متجر الألبان أن بوسعهم أن يأخذوا مني جنيهين وتسعة شلنات ثمن البيض، وسعره في السوق جنيهان وسبعة شلنات... هناك الكثير من المحتالين، ولكنني لا أُخدَع! أما الرجل الذي يتربع على القمة فأمره يختلف وهو يستحق ما يُدفَع له من مال، فأنا نفسي في القمة وأعرف ذلك.

لم يجب بوارو، بل أصغى بانتباه وقد مال رأسه قليلاً إلى جانبه. خلف مظهره الخارجي الهادئ كان يلمس شعوراً بخيبة الأمل، شعوراً لم يكن قادراً على تحديده؛ فحتى الآن تصرف بينيدكت فارلي بأسلوب منسجم مع نموذجه، أي إنه تصرف بما يوافق الفكرة الشعبية المأخوذة عنه، ولكن رغم ذلك كان بوارو يحس بخيبة الأمل.

قال لنفسه باشمئزاز: إن الرجل مشعوذ، مجرد مشعوذ.

كان قد قابل كثيراً من أصحاب الملايين ومن غريبي الأطوار أيضاً، ولكنه كان يحس أمام كل منهم بقوة ما، بطاقة داخلية كانت تفرض عليه احترامهم. لو كان أحدهم يرتدي رداء مرقَّعاً فذلك لأنه كان يحب أن يرتدي رداء مرقعاً، أما رداء بينيدكت فارلي فقد بدا لبوارو أنه من ثياب المسرح، وبدا الرجل نفسه متكلِّفاً كواحد من رجال المسرح أيضاً. كان بوارو متأكداً أن كل كلمة يقولها فارلي كانت تنطق لمجرد خلق التأثير.

كرر بوارو سؤاله بلهجة تخلو من المشاعر: هل رغبت في استشارتي يا سيد فارلي؟

تغيرت حالة المليونير فجأة، فانحنى بجسمه إلى الأمام وانخفض

صوته إلى ما يشبه الهمس: نعم، نعم؛ أردت أن اسمع رأيك ووجهة نظرك. اذهب إلى أهل القمة، تلك هي طريقتي... أفضل طبيب وأفضل رجل تحر، إن الأمر لا يعدو هذين الاثنين.

- ولكنني لم أفهم حتى الآن يا سيدي.

- طبعاً، فأنا لم أبدأ بإخبارك بعد.

انحنى إلى الأمام ثانية وأطلق سؤالاً مفاجئاً: ما الذي تعرفه عن الأحلام يا سيد بوارو؟

ارتفع حاجبا الرجل الضئيل، فهو لم يتوقع ذلك مهما تنوعت توقعاته. قال مجيباً على السؤال: فيما يخص هذا الموضوع -يا سيد فارلي- فإنني أنصحك بمراجعة «كتاب الأحلام» أو مراجعة أحدث الأطباء النفسيين في شارع هارلي.

قال بينيدكت فارلي بهدوء: لقد جربتهما كليهما.

ساد صمت قصير، ثم تكلم المليونير بصوت أقرب إلى الهمس في البداية، ليرتفع الصوت بعد ذلك شيئاً فشيئاً: إنه الحلم نفسه، يتكرر ليلة بعد أخرى... وأنا خائف. أقول لك: أنا خائف! إنه الحلم نفسه دائماً: أكون جالساً في غرفتي الملاصقة لهذه الغرفة أكتب على مكتبي وأمامي ساعة جدارية أنظر إليها وأرى الوقت، الساعة الثالثة وثمان وعشرون دقيقة بالضبط. الوقت نفسه دائماً، هل تفهمني؟ وعندما أرى الوقت -يا سيد بوارو- أعرف أنني مضطر للقيام بذلك، مع أنني لا أريد أن أفعله، بل إنني أكره فعله، ولكنني أضطر...

ارتفع صوته بشكل حاد، فسأله بوارو دون أن يبدو عليه الاضطراب: وما هو ذلك الشيء الذي عليك أن تفعله؟

- في الثالثة وثمان وعشرين دقيقة أفتح الدرج الثاني عن يمين مكتبي، ثم أُخرج المسدس الذي أحتفظ به هناك فأحشوه وأمشي إلى النافذة، ثم، ثم...

- نعم؟

قال بينيدكت فارلي هامساً: ثم أطلق النار على نفسي!

ساد الصمت، ثم قال بوارو: أهذا هو حلمك؟

- نعم.

- نفسه في كل ليلة؟

- نعم.

- وما الذي يحدث بعد أن تطلق النار على نفسك؟

- أصحو من نومي.

هز بوارو رأسه ببطء وهو يفكر ثم سأله: باعتبارها نقطة ذات علاقة بالموضوع، هل تحتفظ بمسدس في ذلك الدرج نفسه؟

- نعم.

- لماذا؟

- لقد اعتدت على ذلك، ولكي أكون مستعداً.

- مستعداً لأي شيء؟

قال فارلي بانزعاج: إن رجلاً في مكانتي ينبغي أن يكون حذراً، فلكل الأغنياء أعداء.

لم يتابع بوارو البحث في هذه النقطة، بل صمت برهة ثم قال: لماذا أرسلتَ في طلبي بالتحديد؟

- سأخبرك؛ لقد استشرت في البداية طبيباً... بل ثلاثة أطباء في الواقع.

- نعم؟

- أخبرني الأول أن القضية بمجملها قضية نظامي الغذائي، وكان هذا الطبيب عجوزاً. أما الثاني فكان شاباً من أتباع المدرسة الحديثة، وقد أكّد لي أن مشكلتي تتعلق بحادث معين حدث في طفولتي في ذلك الوقت المحدد من النهار، الثالثة وثمان وعشرين دقيقة، وقال إنني مصمّم بشدة على عدم تذكر هذا الحادث بحيث إنني أرمز لذلك بتدمير نفسي... هذا كان تفسيره.

- والطبيب الثالث؟

ارتفع صوت بينيدكت فارلي إلى صراخ غاضب وهو يقول: كان شاباً أيضاً، وكانت له نظرية منافية للمنطق! لقد أكد أنني قد سئمت الحياة وأنها أصبحت في نظري لا تُحتمَل بحيث إنني أريد عامداً أن أضع حداً لها! وقال إنني أرفض أن أعترف بهذه الحقيقة أمام نفسي في ساعات الصحو، لأن الاعتراف بها يعني الاعتراف بأنني فاشل أصلاً، ولكن عندما أنام تزول كل الكوابح فأُقدم على فعل ما أتمنى فعلاً أن أقوم به وأضع نهاية لحياتي.

- هل يعني تحليله أنك ترغب حقاً، دون وعي منك، في الانتحار؟

صرخ بينيدكت فارلي بقوة: وذلك مستحيل، مستحيل؛ فأنا

سعيد تماماً وأحصل على كل ما أريده، كل ما يمكن للمال أن يشتريه! إن مجرد اقتراح أمر كهذا مسألةٌ خيالية لا تصدَّق.

نظر بوارو إليه باهتمام، فقد كان في هزة يديه وفي الصراخ المرتعش لصوته شيء يحذّر بوارو من أنه كان في إنكاره مبالِغاً في حماسته، وأن هذا الإصرار بالذات كان يبعث على الشك. ولكن بوارو اكتفى بالقول: وما هو دوري يا سيدي؟

هدأ بينيدكت فارلي فجأة، وربت بأصابعه على الطاولة بجانبه وقال: يوجد احتمال آخر، وإذا كان صحيحاً فأنت الوحيد الذي يمكن أن تعرف شيئاً عنه؛ فأنت مشهور وقد حللت مئات القضايا، مئات القضايا الغريبة والمستبعَدة. وستعرف إن كان لأحد أن يعرف.

- أعرف ماذا؟

انخفض صوت فارلي إلى همس وهو يقول: إذا افترضنا أن أحداً يريد قتلي... فهل يمكنه قتلي بهذه الطريقة؟ هل يمكنه أن يجعلني أرى ذلك الحلم ليلة بعد أخرى؟

- هل تعني بالتنويم المغنَطيسي؟

- نعم.

فكر بوارو بالأمر ملياً ثم قال أخيراً: أظن أن ذلك ممكن، ولكن القضية تحتاج طبيباً على الأغلب.

- ألم تصادف حالة كهذه في خبرتك الطويلة؟

- ليس بمثل هذا السياق.

- هل فهمتَ ما أعنيه؟ إنني أُدفَع إلى رؤية الحلم نفسه ليلة بعد

أخرى، ثم يغلبني الإيحاء ذات يوم فأطبّقه وأقوم بما حلمت به مراراً عديدة، أقتل نفسي!

هز بوارو رأسه مشككاً بإمكانية ذلك، فسأله فارلي: ألا تعتقد أن ذلك ممكن؟

- ممكن؟ ليست هذه من الكلمات التي أعبأ بها.

- ولكنك تظن أن هذا غير محتمَل، أليس كذلك؟

- بل بعيد الاحتمال تماماً.

تمتم بينيدكت فارلي قائلاً: "الطبيب قال ذلك أيضاً"... ثم عاد صوته إلى الارتفاع وصاح ثانية: ولكن لماذا أرى ذلك الحلم؟ لماذا، لماذا؟!

هز بوارو رأسه بحيرة، فقال بينيدكت فارلي فجأة: أأنت متأكد من أنك لم تصادف حالة كهذه في السابق؟

- نعم.

- هذا ما أردت معرفته.

تنحنح بوارو بأدب وقال: هل تسمح لي بسؤال؟

- ما هو؟ ما هو؟ قل ما تشاء.

- من الذي تشك أنه يريد أن يقتلك؟

- لا أحد، لا أحد بتاتاً.

- ولكن الفكرة خطرت ببالك، أليس كذلك؟

- أردت أن أعرف إن كان هذا الاحتمال وارداً.

- من تجربتي الخاصة أقول إنه غير وارد. بالمناسبة: هل خضعت للتنويم المغنَطيسي من قبل؟

- طبعاً لا. هل تظن أنني مستعد لتقبل هذا الجنون؟

- أعتقدُ -إذن- أن نظريتك بعيدة الاحتمال بالتأكيد.

- ولكن ماذا عن الحلم؟ ماذا عن الحلم؟

- إن الحلم مهم بالتأكيد.

قال بوارو ذلك وهو يفكر، ثم صمت قليلاً وأضاف: أريد أن أرى مسرح هذه الدراما... المكتب والساعة والمسدس.

- طبعاً، سآخذك إلى الغرفة المجاورة.

جمع العجوز تلافيف ردائه حول جسمه ونهض قليلاً عن كرسيه، ثم عاد فجأة وجلس وكأن فكرة قد خطرت له، ثم قال: لا، لا يوجد ما يستحق أن تراه؛ لقد أخبرتك بكل ما ينبغي لك أن تعرفه.

- ولكنني أرغب أن أرى بنفسي...

قاطعه فارلي صائحاً: لا حاجة لذلك؛ لقد أعطيتني رأيك بالموضوع وانتهى كل شيء.

هزّ بوارو كتفيه بلامبالاة ونهض قائلاً: كما تريد. أنا آسف إذ لم أستطع مساعدتك يا سيد فارلي.

راح بينيدكت فارلي يحدق أمامه، ثم دمدم قائلاً: لا أريد شعوذة

واحتيالاً. لقد رويت لك الحقائق ولم تستطع أن تخرج منها بشيء، وبهذا تنتهي المسألة. بإمكانك إرسال فاتورة بأجور الاستشارة.

- سأفعل ذلك بالتأكيد.

قالها المحقق بجفاء ومضى باتجاه الباب، ولم يلبث المليونير أن ناداه قائلاً: قف لحظة، تلك الرسالة... أريدها.

- الرسالة التي أرسلها سكرتيرك؟

- نعم.

ارتفع حاجبا بوارو دهشة، فدسّ يده في جيبه وأخرج الرسالة المطوية وسلمها للعجوز الذي تفحصها ثم وضعها على الطاولة بجانبه.

ومضى بوارو إلى الباب ثانية وهو يشعر بالحيرة. كان عقله مشغولاً يستعيد مرة بعد مرة القصة التي سمعها، ومع ذلك راوده في حمأة انشغاله الفكري شعور مزعج، خطأ يرتبط به لا بالمليونير العجوز.

انتبه تفكيره بينما كان يمسك بقبضة الباب إذ تذكر أنه ارتكب خطأ، فالتفت مرة أخرى باتجاه الغرفة قائلاً: ألف اعتذار! في خِضَمّ اهتمامي بمشكلتك ارتكبت حماقة. تلك الرسالة التي أعطيتك إياها... لقد وضعت يدي خطأ في جيبي الأيمن بدل الأيسر.

- ما هذا الذي تقوله؟ ما هذا؟

- الرسالة التي أعطيتك إياها تواً هي رسالة اعتذار من محل غسيل ملابسي بشأن ما فعلوه بياقات قمصاني.

كان بوارو يبتسم معتذراً، وأدخل يده إلى جيبه الأيسر فأخرج الرسالة قائلاً: هذه رسالتك.

انتزعها بينيدكت فارلي من يده وهو يزمجر: لماذا لا تنتبه لما تفعله؟

استردّ بوارو رسالة محل غسيل ملابسه واعتذر مرة أخرى وغادر الغرفة، لكنه توقف قليلاً أمام باب الغرفة متأملاً الفسحة الواسعة أمامه التي تشكل استراحة الدرج. مقابله تماماً كان يوجد مقعد طويل من خشب البلوط القديم، وأمامه طاولة وُضعت عليها المجلات، وكان هناك أيضا كرسيان كبيران وطاولة صغيرة وضعت عليها الزهور. ذكّره منظر الفسحة بغرف الانتظار في عيادات أطباء الأسنان.

كان النادل في الصالة ينتظره ليودعه وقال: هل أطلب لك سيارة أجرة يا سيدي؟

- لا، أشكرك؛ فالليل جميل وسوف أتمشى.

وقف بوارو دقيقة على الرصيف منتظراً هدوء حركة المرور قبل أن يعبر الشارع المزدحم بالمركبات. وتربعت تقطيبة على جبينه وهو يقول لنفسه: لا أفهم أبداً. ما من شيء يحمل معنىً في ذلك كله، ويؤسفني أن أضطر إلى الاعتراف بأنني أنا -هيركيول بوارو- مرتبك تمام الارتباك.

* * *

كان ذلك ما يمكن أن نسميه الفصل الأول في هذه الدراما، أما

الفصل الثاني فقد تبعه بعد أسبوع. وقد افتُتح الفصل بمكالمة هاتفية من طبيب يدعى جون ستيلنغ فليت، قال ذلك الطبيب بأسلوب تعوزه لباقة الأطباء إلى حد بعيد: مَن؟ الحصان العجوز بوارو؟ ستيلنغ فليت يتكلم.

- تشرفنا، ما الأمر؟

- أنا أتكلم من قصر نورثوي، بيت بينيدكت فارلي.

قال بوارو بصوت أسرعت فيه اللهفة: آه، نعم؟ ماذا عن السيد فارلي؟

- فارلي ميت، لقد أطلق النار على نفسه بعد ظهر اليوم.

ساد صمت قصير قال بوارو بعده: نعم...

- أرى أنك لم تأخذك المفاجأة، هل تعلم شيئاً عن ذلك أيها العجوز؟

- ولماذا تظن أنني أعرف شيئاً؟

- حسناً، ليس استنتاجاً عبقرياً ولا تخاطر أفكار أو ما شابه ذلك. كل ما في الأمر أننا وجدنا رسالة من فارلي لك حددتما فيها موعداً للقاء.

- فهمت.

- لدينا هنا محقق شرطة وديع، فأنت تدري أن الحذر واجب عندما يقدم مليونير على قتل نفسه. لقد تساءلنا إذا ما كان لديك ما يلقي الضوء على العملية، فإذا كان لديك شيء فهلاّ حضرت إلى هنا؟

- سأحضر فوراً.

- هذا لطف منك أيها العجوز، أن تتحمل هذه الرحلة...

كرر بوارو أنه سيمضي فوراً، فقال الطبيب: أنت لا تريد إفشاء السر عبر الهاتف؟ أنت على حق إذن، ونحن بانتظارك.

* * *

بعد ربع ساعة كان بوارو يجلس في مكتبة قصر نورثوي في الطابق الأرضي، وكان في الغرفة خمسة أشخاص سواه: المفتش بارنيت، والدكتور ستيلنغ فليت، والسيدة فارلي أرملة المليونير، وجوانا فارلي ابنته الوحيدة، وهوغو كورنورثي سكرتيره الخاص.

من بين أولئك كان المحقق بارنيت رجلاً متحفظاً يبدو في شكله مثل جندي، أما الطبيب ستيلنغ فليت الذي كان تصرفه المهني يختلف تماماً عن أسلوب مكالماته الهاتفية فقد كان شاباً طويلاً في الثلاثين من عمره. السيدة فارلي بدت بوضوح أصغر كثيراً من زوجها... امرأة جميلة ذات شعر أسود وفم يدل على الصلابة، فيما لم تنبئ عيناها السوداوان بعواطفها أبداً، فبدت امرأة رابطة الجأش تماماً. أما جوانا فارلي فقد كانت ذات شعر أشقر ووجه منمَّش، وكان بروز أنفها وذقنها موروثاً عن أبيها كما هو واضح، وقد بدت عيناها ذكيتين لامعتين. وكان السكرتير هوغو كورنورثي شاباً حسن الهيئة أنيقاً تبدو عليه أمارات الذكاء والكفاءة.

بعد التحيات والتعارف سرد بوارو ظروف زيارته ببساطة ووضوح، وأعاد سرد القصة التي رواها له بينيدكت فارلي. ولم يعانِ بوارو من قلة اهتمام الحاضرين؛ إذ قال المحقق: إنها أغرب قصة

سمعتها في حياتي... حلم؟! هل كنتِ تعلمين شيئاً عن ذلك يا سيدة فارلي؟

أحنت رأسها وقالت: لقد ذكر زوجي ذلك لي، وهو أمر كان يزعجه كثيراً. وقلت له إن ذلك كان بسبب سوء الهضم، إذ كان نظامه الغذائي فريداً من نوعه كما تعلمون، واقترحت عليه مراجعة الدكتور ستيلنغ فليت.

هز الدكتور الشاب رأسه بالنفي وقال: لم يراجعني، وأفهم من رواية السيد بوارو أنه راجع الأطباء النفسانيين في شارع هارلي.

قال بوارو: أريد نصيحتك فيما يخص هذه النقطة يا دكتور، فقد أخبرني السيد فارلي أنه استشار ثلاثة اختصاصيين. ما رأيك في النظريات التي قدموها؟

عبس ستيلنغ فليت وقال: من الصعوبة إبداء أي رأي، إذ ينبغي لك أن تأخذ في حسبانك أن ما قاله لك لم يكن ما قاله له الأطباء بالضبط، بل كان تفسير رجل عادي لما قالوه.

- هل تعني أنه ربما أخطأ في العبارات التي قالها لي؟

- ليس هذا ما قصدته بالضبط... أعني أن الأطباء قد وصفوا له حالته بعبارات اختصاصية، وربما تسبب ذلك في أن يفهم المعنى بشكل مضطرب قليلاً ثم يعيد صياغته بلغته الخاصة.

- أي أن ما قاله لي ليس هو ما قاله الأطباء له بالفعل؟

- نعم، هذا هو ما ينتج عن وضعه تقريباً، فقد فهم الأمر بشكل خطأ كما يبدو إن كنت تفهم ما أعنيه.

هز بوارو رأسه بالإيجاب مفكراً ثم سأل الحضور: هل تعرفون الأطباء الذين استشارهم؟

هزّت السيدة فارلي رأسها بالنفي، فيما علّقت جوانا فارلي قائلة: لم يكن لدى أي واحد منا فكرة حول استشارته لأحد.

فسألها بوارو: وهل حدّثك أنت عن حلمه؟

هزت الفتاة رأسها نافية.

- وأنت يا سيد كورنورثي؟

- لا، لم يخبرني بشيء أبداً. لقد كتبتُ رسالة لك أملاها هو عليّ ولكن لم تكن لديّ فكرة عن سبب رغبته في استشارتك، وحسبت أن ذلك ربما كان يتعلق بأمر شاذ من أمور العمل.

تساءل بوارو: والآن، ماذا عن الوقائع الفعلية لوفاة السيد فارلي؟

نظر المحقق بارنيت إلى السيدة فارلي متسائلاً ثم إلى الطبيب ستيلنغ فليت، ثم أخذ على عاتقه مهمة الحديث: كان السيد فارلي معتاداً على العمل في غرفته الخاصة في الطابق الأول بعد ظهر كل يوم، وفهمت بأنه كان هناك زخم كبير من الأعمال...

نظر إلى هوغو كورنورثي الذي قال: نعم، بخصوص شركة المركبات المتحدة.

تابع المحقق بارنيت: نعم، عمل يتعلق بذلك. وكان السيد فارلي قد وافق على إجراء مقابلة مع اثنين من الصحفيين، وهو نادراً ما يفعل ذلك، ربما مرة واحدة كل خمس سنوات كما قيل لي. وبناء

على ذلك فقد وصل صحفيان في الثالثة والربع حسب الموعد، وانتظرا في الطابق الأول خارج غرفة السيد فارلي حيث كان يجلس عادة الأشخاص الذين يأتون لمقابلته. في الساعة الثالثة والثلث وصل رسول من مكاتب شركة «المركبات المتحدة» ومعه بعض الأوراق المستعجَلة، فتم إرشاده إلى غرفة السيد فارلي حيث سلمه الأوراق. وقد رافقه السيد فارلي إلى باب مكتبه وتحدث من هناك مع الصحفيين قائلاً: "أنا آسف أيها السادة على ترككم تنتظرون، ولكنْ لديّ عملٌ مستعجَلٌ سأنجزه بأسرع ما يمكن". وقد أكّد له السيدان بأنهما سينتظران بقدر ما يطيب له، فعاد إلى غرفته وأغلق الباب، ولم يشاهَد على قيد الحياة بعد ذلك.

قال بوارو: "أكمل"، فمضى قائلاً: بعد الساعة الرابعة بقليل خرج السيد كورنورثي من غرفته الملاصقة لغرفة السيد فارلي وفوجئ برؤية الصحفيين اللذين كانا ما يزالان ينتظران. وكان يريد توقيع السيد فارلي على بعض الرسائل وفكّر بأن يذكّره أيضاً بأن هذين السيدين ما زالا ينتظران، وهكذا دخل إلى غرفة السيد فارلي، ولدهشته لم يره، وظن الغرفة فارغة، ثم ما لبث أن لمح حذاء خلف المكتب الذي كان موجوداً أمام النافذة، فهرع بسرعة فرأى السيد فارلي ممدداً هناك ميتاً والمسدس بقربه. أسرع السيد كورنورثي خارج الغرفة وطلب من النادل مخابرة الطبيب ستيلنغ فليت، وبناء على نصيحة الطبيب أخبر السيد كورنورثي الشرطة أيضاً.

سأل بوارو: ألم تسمع صوت الطلقة؟

- لا، فحركة المرور تحدث ضوضاء عالية هنا، وقد كانت نافذة الفسحة أمام مكتبه مفتوحة فكان يصعب سماع صوت الطلقة مع

هدير الشاحنات وأصوات أبواق السيارات في الخارج.

هز بوارو رأسه مفكراً ثم سأل الطبيب: متى حدثت الوفاة؟

- فحصت الجثة فور وصولي، أي في الرابعة واثنتين وثلاثين دقيقة، فكان قد مضى على وفاة السيد فارلي ساعة على الأقل.

أصبح وجه بوارو جاداً تماماً، ثم قال: إذن فمن المحتمل أن وفاته قد حدثت في الوقت الذي ذكره لي، أي في الساعة الثالثة وثمان وعشرين دقيقة! هل كان على المسدس بصمات؟

- نعم، بصماته هو.

- وماذا عن المسدس؟

تولى المحقق بارنيت الإجابة: لقد كان المسدس هو نفسه الذي يحتفظ به في الدرج الأيمن الثاني من مكتبه، كما قال لك تماماً. وقد عرفت السيدة فارلي المسدس وأكدت أنه مسدسه، والأهم من ذلك أن للغرفة مدخلاً واحداً فقط هو الباب المطلّ على الفسحة، وقد كان الصحفيان يجلسان مقابل الباب تماماً وأقسما أن أحداً لم يدخل الغرفة من وقت حديث السيد فارلي معهما وحتى دخول السيد كورنورثي إليها بعد الساعة الرابعة بقليل.

- إذن فالدلائل كلها تشير إلى أن السيد فارلي قد انتحر؟

ابتسم المحقق بارنيت وقال: لم يكن أحد ليشك في ذلك لولا نقطة واحدة.

- وهي؟

- الرسالة التي كُتبت لك.

ابتسم بوارو بدوره وقال: فهمت؛ فحيث يوجد هيركيول بوارو تثور فوراً شكوك الجريمة!

قال المحقق بجفاء: تماماً. على كل حال بعد إزالتك لأي التباس في القضية...

قاطعه بوارو قائلاً: "دقيقة واحدة فقط"، ثم التفت إلى السيدة فارلي وقال: هل سبق لزوجك أن خضع للتنويم المغنطيسي؟

- أبداً.

- هل سبق له أن درس التنويم المغنطيسي أو كان له اهتمام بموضوعه؟

هزّت رأسها بالنفي وقالت: لا أعتقد ذلك.

وفجأة بدت وكأن رباطة جأشها تنهار، قالت: ذلك الحلم الفظيع. إنه أمر خارق... أن يحلم بذلك ليلة بعد أخرى، ثم... يبدو وكأنه قد طورد حتى الموت!

تذكر بوارو قول بينيدكت فارلي: "أقدم على فعل ما أتمنى فعلاً أن أقوم به، وأضع نهاية لحياتي"... وسأل الزوجةَ مجدداً: هل خطر لك يوماً أن زوجك ربما أغري ليضع حداً لحياته؟

- لا. على الأقل... أحياناً كانت تصرفاته غريبة جداً.

علا صوت جوانا فارلي واضحاً مزدرياً: إن أبي لم يكن ليقتل نفسه أبداً؛ فقد كان يهتم بنفسه كثيراً.

علّق الطبيب ستيلنغ فليت قائلاً: تعرفين يا آنسة فارلي أن الناس

الذين يهددون بالانتحار ليسوا هم من ينتحر، ولذلك تبدو حوادث الانتحار غريبة جداً في بعض الأحيان.

نهض بوارو واقفاً وقال: هل تسمحون لي بأن أرى الغرفة التي حدثت فيها المأساة؟

- بالتأكيد، رافقه من فضلك يا دكتور.

صعد الطبيب الدرج معه. كانت غرفة بينيدكت فارلي أكبر من غرفة السكرتير المجاورة بكثير، وكانت مؤثثة بأثاث فاخر وكراسي جلدية وسجادة سميكة ومكتب ضخم رائع.

خطا بوارو خلف المكتب حيث ظهرت بقعة دم داكنة على السجادة أمام النافذة تماماً. تذكر قول المليونير: في الثالثة وثمان وعشرين دقيقة، أفتح الدرج الثاني على يمين مكتبي، ثم أخرج المسدس الذي أحتفظ به هناك فأحشوه وأمشي إلى النافذة، ثم أطلق النار على نفسي!

هز رأسه قليلاً ثم قال: هل كانت النافذة مفتوحة هكذا؟

- نعم، ولكن ما كان يمكن لأحد أن يدخل من النافذة.

أخرج بوارو رأسه من النافذة. لم يكن لها أي حاجز ناتئ أو حافة، ولا أنابيب قريبة منها. حتى القطط لم يكن بمقدورها أن تصل إلى النافذة من الخارج! وفي مقابل النافذة قام حائط المصنع المصمت الخالي من أية نوافذ.

قال ستيلنغ فليت: من المضحك أن يختار رجل غني لمكتبه الخصوصي غرفة بمثل هذه الإطلالة. إنها كمن يطل على جدار سجن!

أدخل بوارو رأسه وحدّق إلى الآجر المصمت الممتد قائلاً: نعم، أعتقد بأن هذا الحائط مهم.

نظر ستيلنغ فليت إليه مستغرباً وتساءل: هل تعني أنه مهم نفسياً؟

انتقل بوارو إلى المكتب، ثم أخذ على سبيل التسلية (أو هكذا بدا الأمر) ملقطاً من تلك الملاقط الطويلة التي تسمى «ملاقط الكسالى». ضم يدَي الملقط فانفتح ذراعاه إلى أقصى طولهما، فمدّهما بوارو والتقط بهما عود كبريت كان تحت كرسي يبعد بضعة أقدام، ثم نقله إلى سلة المهملات بحذر.

خاطبه ستيلنغ فليت قائلاً بغضب: متى ستنتهي من اللعب بهذه الملاقط؟

تمتم بوارو قائلاً: "إنه اختراعٌ عبقري". ثم أعاد الملقط إلى مكانه على المكتب وسأل: أين كانت السيدة والآنسة فارلي ساعة الوفاة؟

- كانت السيدة فارلي ترتاح في غرفتها في الطابق الثاني، أما الآنسة فارلي فقد كانت ترسم في مرسمها على سطح المنزل.

قرع بوارو بأصابعه على طاولة المكتب للحظات ثم قال: أودّ رؤية الآنسة فارلي. هل يمكنك أن تطلب منها الحضور إلى هنا لدقائق؟

- كما تريد.

نظر إليه ستيلنغ فليت نظرة غريبة ثم غادر الغرفة، وبعد لحظات

فُتح الباب ودخلت جوانا فارلي، فسألها بوارو: هل تمانعين إذا سألتك بعض الأسئلة يا آنستي؟

ردت على نظرته ببرود قائلة: اسأل ما بدا لك.

- هل كنتِ تعرفين أن أباك يحتفظ بمسدس في مكتبه؟

- لا.

- أين كنت أنت وأمك... أقصد زوجة أبيك، أليس هذا صحيحاً؟

- نعم، لويز هي الزوجة الثانية لوالدي، وهي تكبرني بثماني سنوات فقط. ما الذي كنت تسأل عنه؟

- أين كنت أنت وهي يوم الخميس في الأسبوع الماضي؟ أعني في ليلة الخميس؟

. فكرت للحظات ثم قالت: الخميس؟ دعني أتذكر. آه، نعم؛ ذهبنا إلى المسرح لحضور مسرحية «ضحك الكلب الصغير».

- ألم يقترح أبوك مرافقتكما؟

- إنه لم يذهب إلى المسارح أبداً.

- ما الذي يفعله في الليل عادة؟

- يجلس هنا ويقرأ.

- لم يكن شخصاً اجتماعياً جداً، أليس كذلك؟

نظرت الفتاة إليه مباشرة وقالت: لقد كانت لوالدي شخصيته

الكريهة الفريدة، ولم يكن بمقدور أحد ممّن يعاشره عن قرب أن يحبه.

- هذه شهادة صريحة جداً يا آنستي.

- أنا أوفّر عليك الوقت -يا سيد بوارو- لأنني أدرك تماماً ما الذي تريد الوصول إليه. زوجة أبي تزوجته من أجل المال، وأنا أعيش هنا لأنني لا أملك من المال ما أعيش به في مكان آخر. وهناك رجل أتمنى أن أتزوجه، وهو رجل فقير تدخّل والدي لطرده من عمله من قبل، فقد كان يريدني أن أتزوج زواجاً يليق بي. إن الأمر مفهوم باعتبار أنني كنت سأرثه.

- وهل آلت ثروة أبيك إليك؟

- نعم. ترك للويز، زوجته، ربع مليون جنيه معفاة من الضرائب، وهناك وصية بمبالغ أخرى بسيطة، وما تبقى آلَ إليّ.

ثم ابتسمت فجأة وقالت: وهكذا ترى يا سيد بوارو، فقد كان لديّ كل الأسباب التي تجعلني أتمنى موت والدي!

- أرى أنك قد ورثت أيضاً ذكاء والدك يا آنستي.

قالت وهي تفكر: كان والدي ذكياً. كنت تشعر وأنت معه بذلك، بأن لديه القوة والقدرة على القيادة. ولكن ذلك كله تحوّل إلى مرارة...لم يبق فيه أية إنسانية!

قال بوارو برقة: يا إلهي، يا لي من أبله!

دارت جوانا فارلي نحو الباب قائلة: هل من شيء آخر؟

- سؤالان صغيران فقط: هذا الملقط هنا، هل كان مكانه دائماً هنا على المكتب؟

- نعم، كان والدي يستعمله لالتقاط الأشياء لأنه كان يكره الانحناء.

- سؤال واحد آخر: هل كان بصر أبيك قوياً؟

حدقت إليه وقالت: طبعاً لا؛ لم يكن يرى أبداً... أعني أنه لا يرى دون أن يضع نظارته، فبصره كان ضعيفاً منذ كان صبياً.

- وعندما يضع نظارته؟

- آه، عندها يرى بشكل جيد طبعاً.

- يستطيع قراءة الصحف والأحرف الصغيرة؟

- نعم.

- هذا كل شيء يا آنستي.

مضت الفتاة خارج الغرفة، وتمتم بوارو مع نفسه: لقد كنت غبياً؛ فقد كانت الحقيقة هناك طول الوقت أمام عيني، ولأنها كانت قريبة جداً لم أستطع رؤيتها!

أطلّ من النافذة مرة أخرى. وفي الأسفل، حيث الطريق الضيق بين البيت والمصنع، رأى شيئاً صغيراً أسود اللون. هزّ بوارو رأسه برضا ونزل ثانية إلى المكتبة حيث كان الباقون.

وجّه بوارو كلامه إلى السكرتير: أريد منك -يا سيد كورنورثي- أن تعيد عليّ بالتفصيل الملابسات الدقيقة التي رافقت دعوة السيد فارلي لي. مثلاً متى أملى السيد فارلي عليك الرسالة؟

- بعد ظهر الأربعاء، في الخامسة والنصف كما أذكر.

- هل أعطاك أية تعليمات خاصة حول طريقة إرسالها بالبريد؟

- طلب مني أن أرسلها بنفسي.

- وهل قمت بذلك؟

- نعم.

هل أعطى أية تعليمات للنادل في طريقة استقبالي؟

- نعم، طلب مني أن أخبر هولمز النادل بأن سيداً سيأتي في التاسعة والنصف، وعليه أن يسأله عن اسمه، وكان عليه أن يطلب منه رؤية الرسالة أيضاً.

- إنه احتياط غريب، ألا تعتقد ذلك؟

هزّ كورنورثي كتفيه بلامبالاة، ثم قال بحذر: لقد كان السيد فارلي غريباً كذلك.

- هل كانت هناك تعليمات أخرى؟

- نعم، أخبرني أن آخذ استراحة في المساء.

- وهل فعلت ذلك؟

- نعم، فقد ذهبت إلى السينما بعد العشاء مباشرة.

- ومتى عدت؟

- دخلت المنزل في نحو الحادية عشرة والربع.

- هل رأيت السيد فارلي في تلك الليلة ثانية؟

- لا.

- ولم يُشِر هو إلى القضية صباح اليوم التالي؟

- نعم، لم يفعل.

توقف بوارو لحظات ثم تابع قائلاً: عندما وصلت أنا لم يتم أخذي إلى غرفة السيد فارلي.

- صحيح، فقد طلب مني أن أخبر هولمز بأن يصطحبك إلى غرفتي.

- ولماذا إلى غرفتك؟ هل تعرف؟

- لم أكن أناقش أوامر السيد فارلي أبداً؛ فقد كان ذلك يغضبه.

- هل كان يستقبل زائريه عادة في غرفته؟

- نعم، عادةً ولكن ليس دائماً، فأحياناً كان يقابلهم في غرفتي.

- وهل كان لذلك سبب؟

فكر هوغو كورنورثي ثم قال: لا، لا أعتقد ذلك... ولم يسبق لي التفكير في الأمر.

اتجه بوارو إلى السيدة فارلي وسألها: هل تسمحين لي بأن أقرع الجرس طلباً لنادلكم؟

- بالتأكيد يا سيد بوارو.

استجاب هولمز للجرس بدقة تامة وتهذيب تام قائلاً: هل طلبتِني يا سيدتي؟

أشارت السيدة فارلي بإيماءة إلى بوارو، فالتفت إليه النادل بأدب وقال: نعم يا سيدي؟

- ما هي التعليمات التي تلقيتها -يا هولمز- ليلة الخميس عندما حضرت أنا إلى هنا؟

تنحنح هولمز ثم قال: بعد العشاء أخبرني السيد كورنورثي بأن السيد فارلي ينتظر شخصاً اسمه هيركيول بوارو سيأتي في التاسعة والنصف، وقال إن عليّ أن أتأكد من اسم الزائر وأن أتحقق من صحة ذلك برؤية رسالة ما، ثم أرافقه بعد ذلك إلى غرفة السيد كورنورثي.

- وهل كان عليك أن تقرع الباب أيضاً؟

بدت علامة نفور على وجه النادل وقال: كان ذلك أحد أوامر السيد فارلي؛ كان عليّ أن أقرع الباب دائماً عندما أريد إدخال زوار، أعني زوار عمل.

- آه، إن هذا يحيّرني. هل تلقيت أية تعليمات أخرى بشأني؟

- لا يا سيدي، فقد أوصاني السيد كورنورثي بالتعليمات التي ذكرتها لك الآن ثم خرج.

- كم كانت الساعة؟

- التاسعة إلاّ عشر دقائق يا سيدي.

- وهل رأيت السيد فارلي بعد ذلك؟

- نعم يا سيدي، أخذت له كأس الماء الساخن المعتاد في الساعة التاسعة.

- هل كان وقتها في غرفته أم في غرفة السيد كورنورثي؟

- كان في غرفته يا سيدي.

- هل لاحظت شيئاً غير طبيعي في الغرفة؟

- غير طبيعي؟ لا يا سيدي.

- أين كانت السيدة والآنسة فارلي؟

- كانتا قد ذهبتا إلى المسرح يا سيدي.

- شكراً لك يا هولمز، هذا يكفي.

انحنى هولمز وغادر الغرفة، فيما عاد بوارو ليسأل أرملة المليونير: سؤال آخر يا سيدة فارلي، هل كان زوجك قوي البصر؟

- لا، ولا سيما من غير النظارات.

- هل كان لديه قصر نظر شديد؟

- نعم، بالتأكيد؛ كان عاجزاً تماماً دون نظارة.

- وهل كان لديه العديد من النظارات؟

- نعم.

قال بوارو وهو يرتاح في جلسته: آه، أعتقد أن القضية تنتهي بذلك.

* * *

ساد الصمت الغرفة، وكان الجميع ينظرون إلى الرجل الضئيل الذي جلس هناك يمسد شاربه وعليه سيماء الرضا، في حين بدت

الحيرة على وجه المحقق بارنيت، وقطب الدكتور ستيلنغ فليت جبينه، ووقف كورنورثي يحدّق ذاهلاً، ونظرت السيدة فارلي مشدوهة، وغلبت اللهفة على جوانا فارلي.

ثم خرقت السيدة فارلي الصمت بصوت مضطرب: إنني لا أفهم يا سيد بوارو، ولكن الحلم...

قاطعها بوارو قائلاً: نعم، الحلم كان مهماً جداً.

فارتعشت السيدة فارلي وقالت: لم يسبق لي أن آمنت بالأشياء الخارقة، أما الآن... أن يرى ذلك الحلم ليلة بعد أخرى مسبقاً!

تدخل الدكتور ستيلنغ فليت هذه المرة قائلاً: إنه أمر غريب، غريب جداً! ولو لم تؤكد ذلك يا سيد بوارو، ولو أنك لم تسمعه من السيد فارلي مباشرة...

ثم سعل بحرج وعاد للحديث بأسلوبه المحترف: عفواً يا سيدة فارلي، أقول: لو لم يكن السيد فارلي هو الذي أخبر شخصياً بقصة ذلك الحلم...

قاطعه بوارو قائلاً: بالضبط.

وانفتحت فجأة عيناه اللتان كانتا نصف مغمضتين لتبدو خضرتهما الشديدة، وأضاف مؤكداً: لو لم يخبرني بينيدكت فارلي...

توقف لحظة ينظر في دائرة من الوجوه الشاحبة الخالية من التعبير، ثم قال: حدثت في تلك الليلة أشياء معينة كنت عاجزاً عن تفسيرها تماماً. أولها: كل هذا التركيز على مسألة إحضار الرسالة معي.

قال كورنورثي مقترحاً: ربما لتأكيد الهوية.

- لا، لا أيها الشاب العزيز؛ فتلك الفكرة سخيفة جداً في الواقع. لا بد من سبب أكثر وجاهة لأن السيد فارلي لم يطلب فقط رؤية تلك الرسالة، ولكنه طلب أيضاً وتحديداً أن أتركها هنا! والأغرب من ذلك أنه لم يتلفها؛ فقد وُجدت بين أوراقه بعد ظهر اليوم. فلماذا احتفظ بها؟

تدخل صوت جوانا فارلي قائلاً: ربما أراد أن تعرف حقيقة حلمه الغريب في حال حدوث أي مكروه له.

هز بوارو رأسه مؤمّناً على كلامها وقال: أنت ذكية يا آنستي، فلا شك أن ذلك كان الدافع الوحيد للاحتفاظ بالرسالة؛ أن يتم الإعلان عن قصة ذلك الحلم الغريب عندما يموت السيد فارلي. لقد كان ذلك الحلم مهماً جداً، بل كان حيوياً يا آنسة.

ثم مضى قائلاً: سآتي الآن إلى النقطة الثانية. بعدما سمعت قصته طلبت من السيد فارلي أن يريني المكتب والمسدس، وبدا أنه يوشك على النهوض للقيام بذلك، ثم رفض فجأة. فلماذا رفض؟

لم يتبرع أحد بالإجابة هذه المرة، فمضى بوارو قائلاً: سأعيد طرح السؤال بشكل مختلف: ما الذي كان في تلك الغرفة المجاورة ولا يريدني السيد فارلي أن أراه؟

بقي الصمت مستمراً.

- نعم، هذا سؤال صعب. ومع ذلك فقد كان هناك سبب ما، سبب ملحّ جعل السيد فارلي يستقبلني في غرفة سكرتيره ويرفض اصطحابي إلى غرفته الخاص بعناد. كان في تلك الغرفة شيء لم يكن بوسعه أن يجعلني أراه.

- والآن أصل إلى الأمر الغامض الثالث الذي حدث في تلك الليلة. لقد طلب السيد فارلي مني وأنا على وشك المغادرة أن أعطيه الرسالة التي تلقيتها منه، ونتيجة بعض الإهمال أعطيته رسالة من محل تنظيف ملابسي فنظر إليها ووضعها بجانبه، وقبل أن أغادر الغرفة عرفت الخطأ فصححته. بعدها غادرت المنزل، وأعترف بأنني كنت في بحر من الحيرة؛ فالأمر كله بدا لي غامضاً تماماً، وخاصة ذلك الحدث الأخير.

نظر إليهم واحداً واحداً وقال: ألم تفهموا الأمر؟

أجاب ستيلنغ فليت قائلاً: لا أفهم حقاً ما علاقة محل تنظيف ملابسك بالموضوع يا سيد بوارو.

- كان محل تنظيف ملابسي مهماً جداً؛ فصاحبة المحل، تلك المرأة البائسة التي أتلفت ياقات قمصاني، كانت ذات فائدة لشخص آخر لأول مرة في حياتها! لا بد أنكم فهمتم ما أعنيه، فالأمر واضح تماماً. لقد نظر السيد فارلي إلى تلك الرسالة، وكانت نظرة واحدة كفيلة بتنبيهه إلى أنها الرسالة الخطأ، ومع ذلك لم ينتبه. لماذا؟ لأنه لم يرَها بشكل واضح!

قال المحقق بارنيت بحدة: ألم يكن يضع نظارته؟

ابتسم بوارو وقال: بلى، كان يضع نظارته. وهذا ما يجعل الأمر مثيراً تماماً.

ثم انحنى إلى الأمام وقال: لقد كان حلم السيد فارلي مهماً جداً؛ فقد حلم بأنه ينتحر كما تعلمون، وبعد فترة بسيطة أقدم على الانتحار فعلاً. أي أنه كان وحيداً في غرفته ووُجد هناك ومسدسه إلى

جانبه، ولم يدخل أحدٌ إلى الغرفة أو يخرج منها في وقت إطلاق النار. ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن الأمر لا بد أن يكون انتحاراً، أليس كذلك؟

قال ستيلنغ فليت: بلى.

ولكن هيركيول بوارو هزّ رأسه نافياً ذلك وقال: على العكس؛ لقد كانت تلك جريمةَ قتل... جريمة غير عادية تم التخطيط لها بمنتهى الذكاء!

انحنى ثانية إلى الأمام وهو يربّت على الطاولة وعيناه تشعان باللون الأخضر، وقال: لماذا لم يسمح لي السيد فارلي بالذهاب إلى غرفته الخاصة في تلك الليلة؟ وما هو ذلك الشيء هناك الذي ينبغي أن لا يُسمح لي برؤيته؟ أعتقد -يا أصدقائي- أن ذلك الشيء كان بينيدكت فارلي نفسه!

ابتسم أمام الوجوه المشدوهة، ومضى قائلاً: نعم، نعم؛ إن ما أقوله ليس كلاماً فارغاً. لماذا لم يستطع ذلك السيد فارلي الذي كنت أتحدث إليه أن يميز الفرق بين رسالتين مختلفتين تماماً؟ لأنه كان رجلاً ذا بصر طبيعي يضع نظارة قوية جداً يا أصدقائي، ومن شأن تلك النظارة أن تجعل من رجل طبيعي البصر شخصاً أعمى عملياً. أليس هذا صحيحاً يا دكتور؟

تمتم ستيلنغ فليت: هذا صحيح، بالطبع.

- لماذا شعرت وأنا أكلم السيد فارلي بأنني أكلم مشعوذاً أو ممثّلاً يقوم بدور؟ فلتفكروا قليلاً في خلفية المشهد: في الغرفة المعتمة، والضوء الأخضر المسلَّط بعيداً عن الشخص الجالس على

الكرسي وبشكل يعمي من يجلس أمامه. إن ما رأيتُه آنذاك كان مجرد الرداء المرقَّع المشهور، والأنف المعقوف (المزيَّف باستعمال تلك المادة المفيدة، معجون الأنوف)، وخصلة الشعر البيضاء، والنظارة القوية التي تحجب العين. ما هو الدليل على أن السيد فارلي قد رأى أي حلم؟ الدليل هو القصة التي رُويت لي وشهادة السيدة فارلي. ما هو الدليل على أن السيد فارلي كان يحتفظ بمسدس في مكتبه؟ الدليل الوحيد -مرة ثانية- هو القصة التي رُويت لي وشهادة السيدة فارلي... لقد قام شخصان بتنفيذ هذه الحيلة؛ السيدة فارلي وهوغو كورنورثي! كتب كورنورثي الرسالة لي، وأعطى تعليماته للنادل ثم خرج ظاهرياً إلى السينما، ولكنه عاد لدخول المنزل فوراً، وذهب إلى غرفته حيث تنكر ومثَّلَ دور بينيدكت فارلي.

وهكذا نصل إلى بعد ظهر اليوم حين تهيأت الفرصة التي كان السيد كورنورثي ينتظرها؛ فقد كان هناك شاهدان في الفسحة يمكن أن يقسما بأن أحداً لم يدخل أو يخرج من غرفة بينيدكت فارلي. انتظر كورنورثي مرور دفعة كبيرة من الشاحنات والسيارات في الشارع ليستفيد من الضجيج الذي تتسبب به، ثم أطلّ من نافذة غرفته (المجاورة لغرفة السيد فارلي) ومدّ الملقط الطويل الذي اختلسه من الغرفة المجاورة ممسكاً بطرفه شيئاً ما وواضعاً ذلك الشيء مقابل نافذة تلك الغرفة، غرفة السيد فارلي. هذا الشيء لفت انتباه السيد فارلي، وحين تقدم من النافذة سحب كورنورثي الملقط إلى الخلف، وحينما أطلّ فارلي من النافذة -والشاحنات تهدر بضجيجها في الخارج- أطلق كورنورثي النار عليه من المسدس (الذي هو مسدس فارلي نفسه كما تعلمون، وقد اختلسه في وقت سابق). تذكّروا أن هناك جداراً مصمتاً لا نوافذ فيه مقابل النافذتين، وبالتالي فلا شاهد

على الجريمة. وانتظر كورنورثي أكثر من نصف ساعة، ثم أخذ بعض الأوراق وأخفى وسطها الملقط والمسدس وخرج إلى الفسحة ومنها إلى الغرفة المجاورة، وهناك أعاد وضع الملقط على المكتب ووَضَع المسدس بجانب القتيل بعد أن ضغط أصابعه عليه من أجل البصمات، ثم أسرع إلى الخارج حاملاً نبأ «انتحار» السيد فارلي.

لقد خطط بهدف العثور على الرسالة التي أرسلها لي بين أوراق القتيل لكي آتي هنا مع قصتي، القصة التي سمعتها من فم السيد فارلي مباشرة عن «حلمه» الغريب والشعور الغريب الذي كان يدفعه لقتل نفسه! كان من شأن بعض المغفلين أن يناقشوا نظرية التنويم المغنطيسي، ولكن النتيجة الرئيسية ستكون تثبيت حقيقة لن يشك فيها أحد، وهي أن اليد التي أمسكت بالمسدس وأطلقت منه الرصاصة كانت يد بينيدكت فارلي شخصياً.

ارتفع نظر بوارو إلى وجه الأرملة ولاحظ برضا ما ارتسم عليه من الرعب، ومن الشحوب الرمادي والخوف الشديد... ثم قال بلطف مختتماً حديثه: وفي غضون ذلك تتحقق النهاية السعيدة؛ ربع مليون جنيه وقلبان يخفقان كقلب واحد!

* * *

مشى الدكتور جون ستيلنغ فليت وهيركيول بوارو بمحاذاة قصر نورثوي. كان الجدار الشامخ للمصنع عن يمينهما، وإلى يسارهما في أعلى المنزل كانت نافذتا غرفتَي بينيدكت فارلي وهوغو كورنورثي. توقف بوارو والتقط من الأرض شيئاً صغيراً... قطة سوداء محنَّطة.

- هذه هي، هذا ما أمسكه كورنورثي بملقط الكسالى أمام

نافذة فارلي. ألا تتذكر أنه كان يكره القطط؟ كان طبيعياً أن يهرع إلى النافذة.

- إني لأعجب: لماذا لم يخرج كورنورثي لأخذها وإخفائها بعد أن سقطت منه؟

- كيف يخرج؟ إن خروجه لأخذ القطة سيبعث على الشك حتماً. ثم ما الذي سيفكر فيه من يعثر على هذه القطة؟ أن طفلاً ما كان يتجول هنا ووقعت منه.

قال ستيلنغ فليت متنهداً: نعم، على الأغلب هذا هو ما سيظنه الإنسان العادي. ولكن ذلك مما لا ينخدع به هيركيول بوارو! هل تعلم أنني ظننت -حتى اللحظة الأخيرة- بأنك ستقودنا إلى نظرية بارعة طنّانة حول جريمة يتم «الإيحاء» بها نفسياً؟ وأراهن أن ذَينك الشخصين ظنّا ذلك أيضاً. يا لها من امرأة عنيفة السيدة فارلي تلك، يا إلهي كيف انهارت! ربما كان بوسع كورنورثي أن يفلت لو لم تتنَبّها تلك الهستيريا وتحاول أن تغرز أظافرها في وجهك حين هجمت عليك... لقد كان تدخلي لردها في وقته تماماً.

توقف لحظة ثم قال: لقد أعجبتني الفتاة، فهي ذات شخصية قوية وذكاء بالغ. ولكن ألا تعتقد أن الجميع سيظنّون أنني أسعى وراء ثروتها لو حاولت استمالتها؟

- لقد وصلت متأخراً جداً يا صديقي، فهناك شخص «على بساط البحث» وقد فتحت لها وفاةُ والدها الطريقَ إلى السعادة.

- ولكن لو فكرنا في الموضوع إجمالاً لوجدنا أن لديها هي ذاتها دافعاً قوياً لقتل والدها الكريه.

- إن الدافع والفرصة ليسا كافيين، إذ ينبغي توفّر المزاج الإجرامي أيضاً.

- أتساءل إن كان بوسعك أن ترتكب جريمة يا بوارو، وأراهن أنك كنت ستفلت منها بسهولة... بل إنها ستكون سهلة جداً بالنسبة لك، أعني أنك ستقوم بها بشكل تام.

عقّب بوارو قائلاً: يا لها من فكرة إنكليزية تقليدية!

* * *

حماقة غرينشو

-١-

انعطف الرجلان عند زاوية السياج الشجري، وقال ريموند ويست: حسناً، لقد وصلنا؛ هذا هو المبنى.

سحب هوريس بيندلر نفَساً عميقاً منبهراً وصاح: ما أروع هذا!

ثم ارتفع صوته بابتهاج، وأصبح عميقاً برهبة التبجيل وهو يقول: إنه منظر لا يصدق، كأنه من خارج هذا العالم! إنه من أفضل الشواهد الأثرية.

أجاب ريموند ويست راضياً: لقد علمت أنه سيعجبك.

- يعجبني؟ يا عزيزي!

خانت هوريس كلماته ففكّ رباط كاميرته وقال وهو مشغول بها: ستكون هذه الصور من نفائس مجموعتي. إنني أؤمن بأن من الممتع للمرء أن يجمع الفظائع والشواذ، أليس كذلك؟ لقد خطرت لي هذه الفكرة قبل سبع سنوات في الحمّام! وأخذت آخر تلك النفائس التي أجمعها في كامبو سانتو في جنوة. ولكني أعتقد فعلاً أن هذه تتفوق عليها. ما اسم هذا البيت؟

- لا أعرف.

- ولكنني أفترض أن له اسماً.

- لا بد أن له اسماً، ولكن الحقيقة هي أنه لا يُسمّى في هذه المنطقة إلا باسم «حَمَاقة غرينشو».

- وهل غرينشو هو الشخص الذي بناه؟

- نعم، في الستينيات أو السبعينيات من القرن التاسع عشر. كان غرينشو هو النموذج المحلي للنجاح في ذلك الحين، إذ كان صبياً حافياً ثم صار غنياً مترفاً. وتنقسم آراء أهل المنطقة هنا حول سبب بنائه هذا المنزل: هل كان تعبيراً محضاً عن وفرة المال والثروة أم أنه بناه ليعطي تأثيراً قوياً في نفوس دائنيه؟ وإذا كان قد بناه لهذا السبب الأخير فإنه لم يفلح في التأثير فيهم، فقد أفلس أو اقترب كثيراً من الإفلاس. ومن هنا أتى اسم «حماقة غرينشو»؛ فأنت تعلم أن الإنكليز يطلقون كلمة «حماقة» على أي بناء ضخم كثير التكاليف، ولا سيما إذا عجز صاحبه عن إتمامه لضخامة تكاليفه، وكأنهم يعنون أن بناء شيء كهذا ليس إلا ضرباً من الحماقة.

التقط هوريس صورة وهو يقول بصوت ينبعث منه الرضا: ذكّرني أن أريك الصورة رقم ثلاثمئة وعشرة في مجموعتي، إنها لإطار موقد رخامي رائع حقاً، على الطريقة الإيطالية.

ثم أضاف وهو ينظر إلى المنزل: لا أستطيع أن أفهم كيف فكر السيد غرينشو بهذا كله!

- يبدو الأمر واضحاً بطريقة ما؛ فقد زار قصر لوار، ألا تعتقد ذلك؟ انظر إلى تلك الأبراج. ثم إنه قد زار الشرق كما يبدو، فتأثير

«تاج محل» واضح تماماً. أنا يعجبني الجناح المغربي الإسلامي أكثر، وأيضاً آثار القصور في البندقية.

- يَعجب المرء كيف استطاع العثور على مهندس ينفذ هذه الأفكار!

هز ريموند كتفيه بلامبالاة وقال: لا صعوبة في ذلك كما أتوقع، فربما خرج المهندس من هذه العملية بدخل جيد ضمن له حياته، بينما أفلس العجوز المسكين غرينشو.

- هل يمكننا النظر إليه من الجانب الآخر أم أننا تجاوزنا ودخلنا حرمته؟

- لقد تجاوزنا ودخلنا منطقته منذ فترة، ولكن لا أعتقد أن في ذلك ضيراً.

ثم التفت نحو زاوية المنزل وتبعه هوريس وهو يسأل: ولكن، من يقيم هنا يا عزيزي؟ أيتام أم زوّار رحلات؟ لا يمكن أن يكون هذا المنزل مدرسة، فليس له ساحات أو مرافق للأنشطة.

- آه، إن امرأة من سلالة غرينشو تقيم هنا. فالمنزل نفسه لم يفقده غرينشو عند إفلاسه، بل ورّثه لابنه الذي كان بخيلاً وعاش هنا في إحدى زوايا المنزل ولم يصرف بنساً واحداً، وربما لم يكن يملك بنساً يصرفه أصلاً. والآن تعيش ابنته هنا، وهي عجوز غريبة الأطوار.

كان ريموند يهنّئ نفسه -وهو يتحدث- على تفكيره بحماقة غرينشو كوسيلة لتسلية ضيفه؛ فهؤلاء النقّاد الأدبيون يعلنون دائماً

عن اشتياقهم لقضاء عطلة ما في الريف، وعندما يذهبون إلى الريف يجدونه مملاً جداً. غداً سيجد ضيفه تسلية في قراءة صحف الأحد، أما بالنسبة إلى اليوم فقد قامت «حماقة غرينشو» بإغناء مجموعة صور الغرائب التي يمتلكها هوريس بيندلر.

دار الاثنان حول زاوية المنزل ليجدا أمامهما مرجاً مهملاً وُضعت في إحدى زواياه كومة صخرية اصطناعية لتناسب النباتات الصخرية، وقد انحنت فوقها امرأة. وما إن رأى هوريس المرأة حتى أمسك فرحاً بذراع ريموند قائلاً بدهشة: عزيزي، هل ترى ما الذي ترتديه؟ ثوباً ملوناً بالزهور والأغصان، تماماً كخادمات المنازل (عندما كان للمنازل خادمات). إن واحدة من أقوى ما علق في ذهني من ذكريات هي ذكرى الإقامة في منزل في الريف عندما كنت صبياً، حيث تناديك خادمة حقيقية في الصباح وهي تروح وتجيء بثوبها المورّد وقبعتها... إنه يوم ممتع نقضيه هنا.

اعتدلت المرأة ذات الثوب المورَّد ومضت نحوهما. كان منظرها باعثاً على الجفلة، إذ تدلّت خصلات شعثاء من شعرها الرمادي على كتفيها، ووضعت فوق رأسها قبعة من القش كتلك التي توضع على رؤوس الخيل في إيطاليا، وقد تدلى الثوب المورد الذي تلبسه إلى كاحليها تقريباً. كان وجهها قد لوحته الشمس ولم يكن نظيفاً تماماً.

ألقت عيناها الحادتان نظرة تقييم عليهما، فقال ريموند ويست وهو يتقدم نحوها: عليّ أن أعتذر عن تجاوز حرمة المنزل، ولكن السيد هوريس بيندلر الذي يحل ضيفاً عليّ...

انحنى هوريس رافعاً قبعته بالتحية فيما أكمل زميله: إنه مهتم كثيراً بالتاريخ القديم وبالمباني الجميلة.

كان ريموند ويست يتحدث بطلاقة كاتب مشهور يعرف مقدار شهرته ويعرف أنه يستطيع أن يجازف حيث لا يستطيع الآخرون.

نظرت الآنسة غرينشو إلى المنزل الضخم المرتفع خلفها وقالت باستحسان: إنه منزل رائع بناه جدي قبل أن أولد بالطبع، ويقال إنه أراد أن يُدهش به السكان المحليين.

علّقَ هوريس بيندلر قائلاً: لا شك أنه قد أدهشهم حقاً يا سيدتي.

قدّم ريموند ويست زميله إلى المرأة قائلاً: السيد بيندلر ناقد أدبي مشهور.

لم تُبدِ السيدة غرينشو تأثراً كبيراً بذلك، فقد بدا واضحاً أنها لا تكنّ احتراماً للنقاد الأدبيين. أشارت إلى المنزل وقالت: إنني أعتبره صرحاً يمثل عبقرية جدي. يأتيني أحياناً بعض الحمقى السخفاء ويتساءلون: لماذا لا أبيعه وأذهب للعيش في شقة؟ وما عساني أفعل في شقة؟ هذا هو بيتي وأنا أقيم فيه منذ أن ولدت.

ثم فكرت وهي تستغرق في الماضي: كنا ثلاث أخوات. تزوجت الأولى، لاورا، مساعد القس رغم معارضة والدي الذي حرمها من المال قائلاً إن رجال الدين ينبغي أن لا يكونوا دنيويين، ثم ماتت وهي تلد ومات الطفل أيضاً. أما نيتي فقد هربت مع مدرب الفروسية، واستبعدها والدي من وصيته بالطبع. وكان زوجها هاري فليتشر رجلاً وسيماً ولكنه كان سيئاً، ولم تكن نيتي سعيدة معه. وهي لم تعش طويلاً على أي حال، لكنها خلّفت ابناً يراسلني أحياناً، وإن لم يكن من سلالة غرينشو بالطبع، فأنا آخر من تبقّى من هذه السلالة.

شدت قامتها بشيء من الفخر وعدّلت زاوية قبعة القش، ثم قالت بحدة وهي تلتفت: نعم يا سيدة كريسويل، ما الأمر؟

تقدمت من المنزل امرأة بدت -عند مقارنتها بالآنسة غرينشو- مختلفة عنها إلى حد يثير الضحك؛ فقد كان شعر السيدة كريسويل مصفّفاً بشكل بديع إلى الأعلى بانحناءات ولفّات رُتّبت بدقة بالغة، كأنما هي تصفيفة مركيزة فرنسية ذاهبة إلى حفلة راقصة! أما جسمها فقد كان ملفوفاً بثوب من الحرير الأسود أو من الأنواع الأكثر بريقاً من الحرير الاصطناعي. وكان صوتها عندما تتكلم عميقاً إلى حد غير متوقَّع، ولكنها كانت ذات بيان متقَن لولا ذلك التردد الخفيف عند الكلمات التي تبدأ بحرف الهاء، ونطقها لتلك الكلمات بإخراج كمية مبالغ بها من الهواء مما يشير إلى أنها كانت تعاني من مشكلات في لفظ هذا الحرف في طفولتها البعيدة.

قالت السيدة كريسويل: السمكة يا سيدتي... إنها لم تصل بعد، وقد طلبت من ألفريد أن يذهب لإحضارها ولكنه رفض.

فقهقهت الآنسة غرينشو فجأة دون سابق إنذار وقالت: هل رفض حقاً؟

- لقد أصبح ألفريد مشاكساً تماماً يا سيدتي.

رفعت الآنسة غرينشو إصبعيها الملوَّثين بالتراب إلى شفتيها وأطلقت فجأة صفيراً حاداً، ثم نادت: ألفريد، ألفريد، تعال إلى هنا.

ظهر عند زاوية المنزل جواباً على ندائها شاب يحمل مجرفة في يده. كان ذا وجه جريء وسيم، وكان يلقي مع تقدمه نظرة واضحة على السيدة كريسويل. سأل: هل طلبتني يا آنسة؟

- نعم يا ألفريد، سمعت أنك رفضت الذهاب لإحضار السمكة، فلماذا؟

أجاب ألفريد بصوت جاف: سأذهب لإحضارها إذا أردتها أنت يا آنسة، ما عليك إلا أن تقولي ذلك.

- إنني أريدها بالفعل، أريدها لعشائي.

- حسناً يا آنسة، سأذهب حالاً.

رمى السيدة كريسويل بنظرة متعالية، فصعد الدم إلى وجهها وتمتمت من بين أسنانها: حقاً إنه لأمر لا يُحتمَل!

التفتت الآنسة غرينشو إليها وقالت: لقد تهيأ الآن لي وأن أفكر في ذلك الأمر... إن زائرين غريبين هما كل ما نحتاجه، أليس كذلك يا سيدة كريسويل؟

بدت السيدة كريسويل حائرة وتساءلت: عفواً يا سيدتي، لم أفهم.

قالت الآنسة غرينشو: بخصوص ذلك الأمر.

ثم أحنت رأسها وتوجهت بكلامها إلى ريموند ويست قائلة: المستفيد من الوصية ينبغي أن لا يشهد عليها. أليس هذا صحيحاً؟

قال ريموند ويست: هذا صحيح تماماً.

- أنا أعرف من القانون ما يجعلني أعلم هذه القاعدة، وأنتما رجلان بارزان. هل تسمحان بالذهاب معي إلى المكتبة؟

أجابها هوريس بلهفة: بكل سرور.

قادتهما تحت نوافذ فرنسية الطراز وعبر غرفة جلوس ضخمة

غطي جدرانَها ورقٌ أصفر باهت ووُضعت على أثاثها أغطية لحجب الغبار، ثم عبرت بهما صالة ضخمة ضعيفة الإضاءة وصعدت درجاً، ثم دخلت إلى غرفة في الطابق الأول وأعلنت: مكتبة جدي.

أجال هوريس بصره بسرور كبير في أرجاء الغرفة، فقد كانت بالنسبة له غرفة مليئة بالغرائب التي يهواها. ظهرت رؤوس كائنات خرافية منحوتة على قطع الأثاث، وكان هناك تمثال برونزي يمثل بول وفيرجيني، وساعة برونزية ضخمة عليها نقش فني باسم صانعها وتاريخ صنعها. وقد رغب هوريس في تصوير تلك الساعة.

قالت الآنسة غرينشو: إنها مجموعة ضخمة من الكتب.

كان ريموند قد انشغل بالنظر إلى الكتب، وقد استطاع أن يدرك بنظرة سريعة أنه لم يكن بين تلك الكتب أي كتاب ذي أهمية حقيقية، أو أي كتاب يظهر منه أنه قد قُرئ في يوم ما. كانت الكتب كلها في شكل مجموعات للأعمال الكلاسيكية مجلَّدة بشكل فاخر كما كانت تُجلَّد قبل تسعين عاماً بغرض ملء مكتبة شخص ما، وقد ضمت المجموعة روايات لعهود سلفت يظهر عليها أيضاً أنها لم تقرأ.

بحثت الآنسة غرينشو في أدراج المكتب الضخم، ثم أخرجت أخيراً وثيقة مخطوطة وقالت موضّحة: إنها وصيتي، إذ لا بد للمرء من أن يترك ممتلكاته لأحد ما، أو هكذا يقولون. وأعتقد أنني لو متّ دون وصية فإن أملاكي ستؤول إلى ابن ذلك الخبيث سمسار الخيول هاري فليتشر. إنه رجل وسيم وغد بكل معنى الكلمة، ولا أرى سبباً يجعلني أترك هذا البيت لابنه.

ثم مضت قائلة وكأنها تجيب على اعتراض ضمني: لقد حزمت أمري وقررت ترك المنزل للسيدة كريسويل.

- مديرة منزلك؟

- نعم، وقد أوضحت لها ذلك. كتبت وصية تمنحها كل ما أملك مقابل عدم دفع أية أجور لها. إن هذا يوفّر عليّ كثيراً من المصاريف الجارية ويبقي على كفاءة عملها، ولا يجعلها ترحل في أي وقت أو تنذرني بالرحيل. إنها من النوع المتأنق المتحذلق، أليس كذلك؟ ولكن والدها كان سمكرياً متواضعاً وليس فيها ما يدفع إلى كل هذه الكبرياء.

كانت قد فتحت مخطوطة الوصية ثم أخذت قلماً وغمسته في المحبرة ووضعت توقيعها: كاثرين دوروثي غرينشو. ثم قالت: حسناً، لقد رأيتماني أوقعها، وقّعا إذن عليها أنتما الاثنين، وبذلك تصبح قانونية.

ناولت القلم لريموند ويست الذي تردد لحظة بسبب شعور غير متوقَّع راوده بكره ما طُلب منه فعله، ولكنه خطّ بسرعة توقيعه الشهير الذي تطلبه يومياً ست رسائل تصل بريده كل صباح على الأقل.

أخذ هوريس القلم منه وأضاف توقيعه الصغير، فقالت الآنسة غرينشو: لقد انتهينا.

مضت إلى المكتبة ووقفت تنظر حائرة إلى الكتب، ثم فتحت باباً زجاجياً صغيراً وأخرجت كتاباً وضعت فيه المخطوطة المطوية قائلة: عندي أماكني الخاصة لحفظ الأشياء.

لاحظ ريموند ويست بسرعة عنوان الكتاب وهي تعيده إلى مكانه فقرأه بصوت عال: «سر الليدي أودلي».

قهقهت الآنسة غرينشو مرة أخرى وعلقت على الكتاب بقولها: لقد حقق أعلى المبيعات في أوانه، وليس مثل كتبك.

قالت ذلك ووكزته في صدره بمودة. ولقد دُهش ريموند لمجرد معرفتها بأنه يؤلف كتباً، فرغم أنه كان اسماً مميزاً في عالم الأدب إلا أنه لم يكن بوسعه أن يعتبر نفسه كاتباً ممن يحققون أعلى المبيعات.

تساءل هوريس بلهفة قائلاً: أتساءل إن كان بوسعي أن ألتقط صورة للساعة!

- بالطبع. لقد اشتُريت من أحد المعارض التي عُقدت في باريس كما أظن.

قال: "نعم، إنها تبدو كذلك"، والتقط صورة لها.

- لم تستعمل هذه الغرفة منذ أيام جدي، وهذا المكتب مليء بمذكراته القديمة. أظنها مذكرات مثيرة ولكن نظري لا يساعدني على قراءتها بنفسي. أريد أن أنشر تلك المذكرات ولكني أظنها بحاجة إلى الكثير من العمل والتحرير.

- يمكنك أن تكلّفي أحداً للقيام بذلك.

- أهذا ممكن فعلاً؟ إنها فكرة جيدة، سأفكر في الأمر.

نظر ريموند ويست إلى ساعته وقال: علينا أن لا نستغلّ لطفك أكثر من ذلك.

أجابته الآنسة غرينشو بلطف قائلة: لقد سعدت برؤيتكما، وقد حسبتكما في البداية شرطيين عندما سمعتكما تتقدمان من خلف زاوية البيت.

سألها هوريس الذي لا يهمه إلقاء الأسئلة: ولماذا الشرطة؟

أجابت الآنسة غرينشو بشكل غير متوقع قائلة وهي تترنم: «إذا أردت أن تعرف الوقت فاسأل شرطياً»...

وبمثل هذه الروح الفكتورية الساخرة وكزت هوريس بين أضلاعه وهدرت ضاحكة.

* * *

تنهد هوريس لدى عودتهما إلى البيت وقال: لقد قضينا وقتاً رائعاً. ذلك المكان فيه كل شيء في الواقع، أما المكتبة فالشيء الوحيد الذي تفتقده هو وجود جثة! إنها تذكرني بالقصص البوليسية القديمة حول الجريمة في المكتبة، وأنا واثق من أن كتّاب تلك القصص كانوا يفكرون في مكتبة كالتي رأيناها اليوم!

- إن أردت الحديث عن جرائم القتل فعليك أن تتحدث مع عمتي جين.

- عمتك جين؟ هل تعني الآنسة ماربل؟!

شعر هوريس بالحيرة قليلاً؛ فتلك العجوز الرائعة التي تعرّف بها في الليلة الماضية بدت آخر إنسان يمكن ذكر اسمه مرتبطاً بجرائم القتل. لكن ريموند أكّد له ذلك بقوله: آه، نعم؛ إن جرائم القتل اختصاصها.

- ولكن هذا مثير جداً يا عزيزي. ما الذي تعنيه حقاً؟

- أعني ما قلته. البعض يرتكبون الجرائم، والبعض الآخر

يشغلون أنفسهم بالجرائم، والبعض تفرض الجرائم نفسها عليهم. وعمتي جين من هذا الصنف الثالث.

- لا بد أنك تمزح.

- أبداً؛ يمكنني أن أحيلك إلى المفوض السابق لشرطة اسكتلنديارد وإلى بضعة ضباط شرطة وبعض المحققين الأكفاء في إدارة المباحث الجنائية لتتأكد بنفسك.

قال هوريس: إن العجائب لا تنقضي!

* * *

على مائدة الشاي قام الاثنان بإعطاء جوان ويست زوجة ريموند، وابنة أختها لويزا أوكسلي، والآنسة ماربل العجوز، ملخصاً عن أحداث ذلك اليوم، وأعادا بالتفصيل رواية كل شيء قالته لهما الآنسة غرينشو.

قال هوريس بعد ذلك: ولكنني أحس بتشاؤم غامض تجاه هذا الأمر. تلك المخلوقة التي تشبه الدوقة، مديرة المنزل... هل يمكن مثلاً أن تضع الزرنيخ في إبريق شاي سيدتها؟ ولا سيما الآن بعدما أدركت أن سيدتها قد صاغت وصيتها لصالحها؟

- أخبرينا يا عمتي جين، هل ستقع هناك جريمة قتل أم لا؟ ماذا ترين أنت؟

كانت الآنسة ماربل تشتغل بيديها بالغزل بالصوف، وفي تلك اللحظة قطعت غَزْلها بطريقة عصبية نوعاً ما وقالت: لا يجدر بكم أن تمزحوا في مثل هذه الأمور كما تفعلون الآن يا ريموند. إن الزرنيخ

احتمال وارد بالطبع إذ يسهل الحصول عليه، وربما كان موجوداً أصلاً ضمن الأدوات الزراعية في البيت في شكل مبيد للنباتات الضارة.

قالت جوان بحنان: آه، حقاً يا عزيزتي؟ ولكن ألن يكون وجوده هناك واضح الهدف؟

ريموند: من الجيد للمرء أن يكتب وصيته، ولكني لا أعتقد أن لدى العجوز المسكينة ما تورّثه باستثناء ذلك البيت الفظيع الضخم، فمَن الذي يريده؟

هوريس: شركة إنتاج سينمائي مثلاً، أو فندق، أو معهد.

ريموند: سيتوقعون شراءه مقابل أغنية!

ولكن الآنسة ماربل هزت رأسها بعدم الموافقة وقالت: أتدري يا عزيزي ريموند؟ لا أوافقك الرأي فيما ذهبت إليه بخصوص المال. لقد كان الجد -كما هو واضح- واحداً من أولئك الذين ينفقون بلا حساب، أولئك الذين يكسبون المال بسهولة ولكنهم لا يحتفظون به. وربما كان قد أفلس كما تقول، ولكنه لم يفلس تماماً، وإلا لما كان قد خلّف البيت لابنه. أما الابن فقد كان -كما يحدث غالباً- على النقيض تماماً من أبيه، بخيلاً يوفر كل بنس، وأعتقد أنه استطاع أن يدّخر مبلغاً محترماً من المال خلال سنوات عمره. ويبدو أن الآنسة غرينشو هذه قد أخذت عن أبيها كرهه صرف الأموال. أعتقد أن هناك احتمالاً كبيراً في امتلاكها لثروة عظيمة مخبأة.

قالت جوان: في هذه الحالة أتساءل الآن، ماذا عن مشروع لويزا؟

نظر الجميع إلى لويزا وهي جالسة صامتة قرب المدفأة. كانت لويزا ابنة أخت جوان، وكان زواجها قد «فَرَط حديثاً» كما يحلو لها أن تقول، تاركاً إياها مع طفلين صغيرين ومال لا يكفي لتربيتهما.

جوان: أعني إذا كانت الآنسة غرينشو هذه تريد حقاً شخصاً لتدقيق المذكرات وتهيئتها للنشر...

ريموند: إنها فكرة جيدة.

لويزا: هذا عمل أستطيع تأديته، وأظنني سأحبه.

ريموند: سأكتب لها بذلك.

الآنسة ماربل: إنني أتساءل، ما الذي عنته العجوز بتلك الملاحظة عن الشرطي؟

ريموند: كانت تلك مجرد مزحة.

الآنسة ماربل: إنها تذكرني بالسيد نايسميث.

ريموند: ومن هو السيد نايسميث؟

الآنسة ماربل: كان مربّياً للنحل، وكان بارعاً في صياغة لعبة الكلمات المترادفة في صحف يوم الأحد، وكان يحب إعطاء انطباعات زائفة للقراء لمجرد المتعة، ولكن ذلك أدى إلى بعض المتاعب.

صمت الجميع للحظة وهم يفكرون في السيد نايسميث، ولكن بما أنه لم تبدُ لهم أية نقاط تشابه بينه وبين الآنسة غرينشو فقد ظنوا بأن العمة العزيزة جين ربما بدأت تفقد قليلاً من ترابط أفكارها في شيخوختها.

-٢-

عاد هوريس بيندلر إلى لندن دون جمع المزيد من الغرائب، فيما كتب ريموند ويست رسالة إلى الآنسة غرينشو يخبرها فيها بأنه يعرف سيدة اسمها لويزا أوكسلي تستطيع تولي العمل في المذكرات. وبعد بضعة أيام وصلت رسالة مكتوبة بخط عنكبوتي ضخم قديم أعلنت فيها الآنسة غرينشو أنها تتوق إلى الاستفادة من خدمات السيدة أوكسلي، وحددت فيها موعداً لمقابلتها. وقد ذهبت لويزا إلى الموعد، وتم الاتفاق على شروط عمل جيدة، ثم بدأت عملها في اليوم التالي.

قالت لويزا مخاطِبةً ريموند: أنا ممتنة لك جداً؛ سيكون العمل مناسباً تماماً لي، إذ أستطيع أخذ الطفلين إلى المدرسة ثم الذهاب إلى «حماقة غرينشو»، ثم أعود لآخذهما في طريق عودتي. كم هو خيالي ذلك المكان! لا يمكنك تصديق وجود مثل تلك العجوز حتى تراها بالفعل.

وفي مساء يومها الأول في العمل عادت لتصف يومها: لم أرَ مديرة المنزل إلا قليلاً، فقد أحضرت لي القهوة في الحادية عشرة والنصف بفم مزموم، وكانت نادراً ما تكلمني، بل أظن أنها تعارض توظيفي بشدة. كما يبدو أن بينها وبين البستاني ألفريد عداء مستفحلاً، وهو صبي من السكان المحليين كسول تماماً كما أتصور، وهو ومديرة المنزل لا يتحادثان. وقد قالت الآنسة غرينشو بأسلوبها الفخم تعليقاً على العداوة بينهما: لقد نشأت دوماً عداواتٌ -كما أذكر- بين المسؤولين عن الحدائق وبين خدم المنزل. كان الأمر كذلك في أيام جدي، حيث كان هناك ثلاثة رجال وصبي في الحديقة

وفي المنزل سبع خادمات، وكان الاحتكاك بين الطرفين دائماً.

في اليوم التالي عادت لويزا بنبأ جديد آخر: تخيلوا، لقد طُلب مني أن أتصل بابن الأخت هذا الصباح!

- ابن أخت الآنسة غرينشو؟

- نعم، وهو ممثل يشارك في فرقة تقدّم عروضها الموسمية في مدينة بورهام أونسي. لقد اتصلتُ بالمسرح وتركت له رسالة تطلب منه الحضور للغداء غداً، والآنسة العجوز لم ترغب في إخبار مديرة المنزل بالأمر، وأظن أن السيدة كريسويل قد قامت بأمر أزعج سيدتها.

ريموند: غداً نشهد حلقة أخرى من هذا المسلسل المثير.

الآنسة ماربل: إنه مثل المسلسل تماماً، أليس كذلك؟ المصالحة مع ابن الأخت، حيث إن الدم لا يصير ماء... ثم تكتب وصية أخرى وتتلف الوصية القديمة.

ريموند: يا عمة جين، تبدين جادة تماماً فيما تقولين!

الآنسة ماربل: هل أبدو كذلك يا عزيزي؟ هل سمعت -يا لويزا- شيئاً جديداً بشأن الشرطي؟

لويزا: لا أعرف شيئاً عن أي شرطي.

الآنسة ماربل: لا بد أن ملاحظتها تلك قد عنت شيئاً يا عزيزتي.

وصلت لويزا إلى عملها في اليوم التالي بمزاج مبتهج، وعبرت الباب الأمامي المفتوح حيث كانت أبواب المنزل ونوافذه مفتوحة

دائماً، فالآنسة غرينشو لم تكن تخاف من اللصوص كما يبدو، وربما كان لذلك ما يبرره لأن أغلب الأشياء في المنزل تزن عدة أطنان وليست لها قيمة فعلية في السوق.

مرت بألفريد في الممر المؤدي إلى المنزل، وكان يتكئ على شجرة ويدخن لفافة، وما إن رآها حتى أمسك بمكنسة وبدأ يكنس أوراق الشجر باجتهاد. فكرت في أنه شاب كسول ولكنه وسيم، وقد ذكرتها ملامحه بشخص ما. وفيما كانت تمر عبر الصالة في طريقها إلى الدرج المؤدي إلى المكتبة ألقت نظرة على الصورة الضخمة لناثانييل غرينشو التي تستقر فوق الموقد، والتي تُظهره في ذروة ازدهاره الفكتوري جالساً وقد أسند ظهره على كرسي ذي ذراعين، ويداه تستقران على السلسلة الذهبية لساعته الممتدة على بطنه الواسع. ثم ارتفعت بنظرها من البطن إلى الوجه بخديه الضخمين وحاجبيه الكثّين وشاربه الأسود الكبير، وعندها خطرت لها فكرة أن ناثانييل غرينشو كان وسيماً في شبابه. وقد بدا لها أنه ربما كان في شبابه يشبه ألفريد إلى حد ما.

ذهبت إلى المكتبة وأغلقت الباب خلفها، وفتحت آلة الطباعة وأخرجت المذكرات من درج في جانب المكتب. ثم لمحت من النافذة المفتوحة الآنسة غرينشو بثوبها المورَّد ذي اللون الأحمر الداكن تنحني فوق الكومة الصخرية الاصطناعية التي كانت بحاجة إلى تعشيب، وبدأت عملها.

عندما دخلت السيدة كريسويل إلى المكتبة وهي تحمل صينية القهوة في الحادية عشرة والنصف كان واضحاً أنها في مزاج سيء تماماً، فقد خبطت الصينية على الطاولة وقالت بصوت عال: ضيوف

على الغداء ولا يوجد شيء في البيت! ماذا عساي أفعل، أريد أن أعرف؟ ولا أثر لألفريد أيضاً.

- لقد كان يكنس الممر عندما جئت إلى هنا.

- يا له من عمل رائع!

قالت السيدة كريسويل ذلك وخرجت من الغرفة صافِقةً الباب خلفها. ابتسمت لويزا مع نفسها وتساءلت كيف سيكون حال ابن الأخت، ثم أنهت شرب قهوتها وعادت إلى عملها ثانية. وكان عملها يشغلها إلى الحد الذي يمضي معه الوقت بسرعة دون أن تحس به، ويبدو أن ناثانييل غرينشو قد استسلم لمتعة الصراحة حين شرع في كتابة مذكراته، ولذلك فقد فكرت لويزا وهي تحاول إعداد صفحة من صفحات تلك المذكرات بأن من الضروري التدخل بالكثير من التحرير وإعادة الصياغة.

وبينما كانت تفكر في ذلك جفلت بسبب صرخة صدرت من الحديقة، فقفزت وهرعت إلى النافذة المفتوحة. كانت الآنسة غرينشو تترنح قادمة من جهة الكومة الصخرية باتجاه المنزل ويداها مضمومتان إلى صدرها، وبينهما نتأت قصبة ذات ريش أدركت لويزا بذهول أنها قصبة سهم.

سقط رأس الآنسة غرينشو على صدرها مع قبعة القش البالية وصاحت بلويزا بصوت تخونه القوة: لقد رُميت... رماني... بسهم... اطلبوا النجدة.

هرعت إلى الباب وأدارت المقبض ولكن الباب لم ينفتح، وأدركت بعد لحظات من المحاولات غير المجدية أن الباب قد أقفل

عليها، فاندفعت ثانية إلى النافذة وصاحت: لقد أقفل علي الباب.

أدارت الآنسة غرينشو ظهرها للويزا وهي تترنح على قدميها وبدأت بمناداة مديرة المنزل من النافذة الأخرى البعيدة: اتصلي بالشرطة... الهاتف.

ثم اختفت عن عينَي لويزا وهي تتمايل من جانب إلى آخر كالمخمور لتَمضي من تحت النافذة باتجاه غرفة الاستقبال، وبعد قليل سمعت لويزا صوت انكسار أوانٍ صينية، ثم سمعت صوت سقطة قوية وساد بعدها الصمت. أعاد خيالها تركيب المشهد، فلا بد أن الآنسة غرينشو قد دفعت -في أثناء ترنّحها- طاولة صغيرة وُضع عليها طقم أواني الشاي.

ضربت لويزا الباب بيأس وهي تصيح وتصرخ، فلم يكن ثمة نبات متسلّق أو أنبوب خارج النافذة يساعدها في الخروج من خلالها. ثم عادت إلى النافذة وقد أتعبها ضرب الباب، وأطلّت خارج النافذة برأسها فرأت رأس مديرة المنزل يطلّ من نافذة غرفة الجلوس. نادتها مديرة المنزل قائلة: تعالي وأخرجيني يا سيدة أوكسلي، فقد أقفل علي الباب.

- وأنا أيضاً!

- آه، هذا فظيع! لقد اتصلت بالشرطة، إذ يوجد في هذه الغرفة خط هاتفي، ولكن ما لا أفهمه هو إقفال الباب علينا. أنا لم أسمع صوت دوران المفتاح، هل سمعته أنت؟

- لا، لم أسمع شيئاً أبداً. آه، المسكينة! ماذا سنفعل؟ ربما يسمعنا ألفريد.

نادت لويزا بملء صوتها: ألفريد، ألفريد!

- لا بد أنه ذهب إلى الغداء، كم الساعة الآن؟

نظرت لويزا إلى ساعتها وصاحت: الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة.

- يُفترض أن لا يذهب حتى الثانية عشرة والنصف، ولكنه ينسلّ قبل ذلك كلما سنحت له الفرصة.

- هل تظنين... هل تظنين...

أرادت لويزا أن تسأل: "هل تظنين أنها ماتت؟"، ولكن الكلمات علقت في حنجرتها.

لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى الانتظار، فجلست على عتبة النافذة، وبدا لها أن دهراً قد مضى قبل أن تظهر قرب زاوية المنزل هيئة الشرطي المتبلّدة. أطلت لويزا من النافذة ونظر الشرطي إليها وهو يظلل عينيه بكفّه، وعندما تكلم ظهر التأنيب في صوته إذ سأل بامتعاض: ما الذي يجري هنا؟

أمطرت لويزا والسيدة كريسويل الشرطي بوابل من المعلومات المنفعلة من نافذتيهما، فأخرج الشرطي دفتر ملاحظات وقلماً وهو يقول: كيف صعدتما وأقفلتما على نفسيكما؟ هل لي باسميكما لو سمحتما؟

- لا، شخص آخر أقفل الباب علينا. تعال وأخرجنا.

قال الشرطي مؤنباً: كل شيء في وقته.

واختفى تحت النافذة.

مرة أخرى بدا الوقت دهراً يمرّ، ثم سمعت لويزا صوت سيارة تصل. وبعدها، بعد ثلاث دقائق حسبتها ساعة أطلق رقيب شرطة أكثر يقظة من الأول سراح السيدة كريسويل أولاً ثم سراحها.

قالت لويزا بصوت متلعثم: الآنسة غرينشو؟ ماذا... ماذا حدث؟

تنحنح الرقيب وقال: أنا آسف لإبلاغك يا سيدتي بما أبلغته تواً للسيدة كريسويل هنا. لقد ماتت الآنسة غرينشو.

صاحت السيدة كريسويل قائلة: بل قُتلت، هذه هي الحقيقة، جريمة قتل!

قال الرقيب مشككاً: ربما كان ذلك حادثاً، فبعض شبّان الريف يرمون بالقوس والنشاب.

ثم سمعوا صوت سيارة تصل فقال الرقيب: لا بد أنه الطبيب.

وبدأ بنزول الدرج. ولكنه لم يكن الطبيب، ففيما كانت لويزا والسيدة كريسويل تنزلان الدرج دخل شاب متردداً من الباب الأمامي ووقف ينظر حوله بشيء من الحيرة، ثم تكلم بصوت عذب بدا مألوفاً للويزا، إذ لعله كان يشبه قليلاً صوت الآنسة غرينشو. تساءل الشاب: المعذرة، هل... هل تسكن الآنسة غرينشو هنا؟

تقدم منه الرقيب وقال: هل لي أن أعرف اسمك إذا سمحت؟

أجابه الشاب: فليتشر، نات فليتشر. أنا ابن أخت الآنسة غرينشو في الواقع.

- حقاً يا سيدي؟ حسناً، أنا آسف جداً، إنني متأكد...

قاطعه نات فليتشر قائلاً: هل حدث شيء؟

- لقد وقع حادث، وأصيبت خالتك بسهم اخترق وريدها الوداجي.

أخذت السيدة كريسويل تتكلم بهستيرية تاركة تهذيبها المعتاد: لقد قُتلت خالتك، هذا ما حدث، لقد قُتلت خالتك.

-٣-

سحب المفتش ويلش كرسيّه مقترباً من الطاولة، وجعل يقلب نظره في الأشخاص الأربعة الجالسين أمامه في الغرفة. كان ذلك في مساء اليوم نفسه، وقد مر المفتش ببيت السيد ويست ليعيد الاستماع إلى شهادة لويزا أوكسلي.

قال المفتش: هل أنت متأكدة من أنها الكلمات نفسها: «لقد رُميت، رماني بسهم، اطلبوا النجدة»؟

هزت لويزا رأسها بالإيجاب.

- وهل أنت متأكدة من الوقت أيضاً؟

- لقد نظرت إلى ساعتي بعد دقيقة أو دقيقتين، وكانت تشير إلى الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة.

- وهل ساعتك دقيقة؟

- لقد نظرت إلى الساعة الجدارية أيضاً.

التفت المفتش إلى ريموند ويست وقال: يبدو -يا سيدي- أنك كنت والسيد هوريس بيندلر شاهدَين قبل أسبوع على وصية الآنسة غرينشو؟

أعاد ريموند سرد وقائع تلك الزيارة التي قام بها إلى «حماقة غرينشو» برفقة هوريس بيندلر باختصار، فعلّق ويلش قائلاً: قد تكون إفادتك هذه مهمة. هل أخبرتك الآنسة غرينشو تحديداً بأن وصيتها قد كُتبت لمصلحة السيدة كريسويل مديرة المنزل، وأنها لم تكن تدفع لها أجوراً مقابل ما كانت السيدة كريسويل ستكسبه عند موتها؟

- هذا ما قالته لي، نعم.

- هل ترى أن السيدة كريسويل كانت على علم بهذه الحقيقة بشكل أكيد؟

- بلا شك؛ فقد أشارت الآنسة غرينشو بحضوري إلى أن المستفيدين من الوصية لا يحق لهم أن يكونوا شهداء عليها. وقد فهمت السيدة كريسويل ما عنته الآنسة غرينشو بوضوح، كما أن الآنسة غرينشو أخبرتني أنها توصلت إلى هذا الترتيب مع السيدة كريسويل.

- إذن فإن لدى السيدة كريسويل سبباً يدفعها إلى الاعتقاد بأنها طرف مستفيد؛ أي أن الدافع واضح في حالتها، ويمكنني القول إنها ستكون المشتبه الرئيسي لدينا الآن لولا حقيقة أنها كانت محجوزة في غرفتها كالسيدة أوكسلي، وأن الآنسة غرينشو قالت تحديداً بأن رجلاً هو الذي رماها.

- لقد كانت محجوزة في غرفتها بالتأكيد.

- نعم، لقد أخرجها الرقيب كايلي، وقد كان قفل الغرفة قفلاً

ضخماً قديم الطراز ذا مفتاح ضخم قديم الطراز أيضاً، وكان المفتاح في القفل من الخارج، ولا يمكن أبداً أن يكون قد وُضع فيه من داخل الغرفة أو غير ذلك من احتمالات الاحتيال والخفّة. ولذلك سنعتبر أن السيدة كريسويل كانت حتماً محجوزة داخل تلك الغرفة ولم تستطع الخروج. ولم يكن في الغرفة قوس أو نشاب، بالإضافة إلى أن الآنسة غرينشو لم تكن لتُصاب من الغرفة تحت أية ظروف، فزاوية الرمي تنفي ذلك. نعم، إن السيدة كريسويل بعيدة عن الشبهات.

توقف المفتش قليلاً ثم مضى قائلاً: هل تظنون أن الآنسة غرينشو كانت مولعة بالمقالب أو بالمزاح الثقيل؟

نظرت الآنسة ماربل بحدّة من الزاوية التي تجلس فيها وقالت: إذن لم تكن الوصية لصالح السيدة كريسويل في نهاية المطاف؟

نظر المفتش ويلش إليها بطريقة تغلب عليها الدهشة وقال: هذا تخمين ذكي جداً منك يا سيدتي. نعم، لم يرد اسم السيدة كريسويل كمستفيدة من الوصية.

قالت الآنسة ماربل وهي تهزّ رأسها: تماماً كما كان يفعل السيد نايسميث الذي حدّثتكم عنه. لقد أخبرَت الآنسة غرينشو السيدةَ كريسويل بأنها ستخلّف لها كل شيء، وهكذا تخلصت من دفع أجورها، ثم تركت أموالها لشخص آخر. لا شك أنها كانت مستمتعة جداً بما تفعله وأنها كانت تتهلل فرحاً وهي تضع الوصية في كتاب «سر الليدي أودلي».

- من حسن الحظ أن السيدة أوكسلي نجحت في إرشادنا إلى مكان إخفاء الوصية، وإلا لكان أعيانا البحث عنها.

علق ريموند متمتماً: إنها روح الدعابة الفكتورية.

وقالت لويزا: إذن فقد تركت أموالها لابن أختها؟

هزّ المفتش رأسه بالنفي وقال: لا، لم تترك أموالها للسيد نات. ثمة إشاعة تدور هنا، ولكني أحب أن أشير -قبل ذلك- إلى أنني حديث عهد بالمنطقة ولم أسمع الإشاعة إلا من مصادر جانبية. الظاهر أن الآنسة غرينشو وأختها قد أغرمتا كلتاهما في تلك الأيام الغابرة بمدرّب الفروسية الشاب الوسيم، ولكن الأخت هي التي فازت به... لا، لم تترك الآنسة غرينشو المال لابن أختها.

توقف قليلاً وهو يحك ذقنه ثم أضاف: لقد تركته لألفريد.

صاحت جوان بصوت أذهلته المفاجأة: ألفريد البستاني؟

- نعم يا سيدة ويست، ألفريد بولوك.

- ولكن لماذا؟

سعلت الآنسة ماربل وتمتمت قائلة: أتخيل... وربما كنت مخطئة، أنه ربما كانت هناك أسباب عائلية كما يمكن تسميتها.

أجابها المفتش موافِقاً: يمكنك أن تسميها كذلك على نحو ما. يبدو أنه من المعروف تماماً في القرية أن توماس بولوك، جد ألفريد، كان ابناً غير شرعي للسيد غرينشو العجوز.

صاحت لويزا قائلة: بالطبع... التشابه بينهما! لقد رأيته صباح اليوم.

وتذكرت كيف مرت بألفريد ودخلت المنزل وهي تنظر إلى صورة غرينشو.

قالت الآنسة ماربل: يمكنني أن أفكر بالسبب. لعلها فكرت بأن ألفريد بولوك يمكنه أن يحس بالفخر بامتلاك المنزل وربما رغب في الإقامة فيه، أما ابن أختها فلن يجد له أية فائدة في المنزل بالتأكيد، وسوف يبيعه بأسرع ما يستطيع. إنه ممثل، أليس كذلك؟ ما هي المسرحية التي يمثلها في الوقت الحاضر؟

قال المفتش لنفسه: "لا بد للعجائز أن يخرجن عن الموضوع"، ولكنه أجابها بأدب: أظن -يا سيدتي- أنهم يمثلون في هذا الموسم مسرحيات جيمس باري.

قالت الآنسة ماربل وهي تفكر: باري؟

أجابها المفتش ويلش قائلاً: مسرحية «ما تعرفه كل امرأة».

ثم احمرّ وجهه خجلاً وسارع إلى القول: هذا هو اسم المسرحية. لست شخصياً من روّاد المسرح، ولكن زوجتي شاهدت تلك المسرحية في الأسبوع الماضي وقالت إنها مسرحية قوية الحبكة.

علقت الآنسة ماربل قائلة: لقد كتب باري بعض المسرحيات الرائعة جداً، مع أنني عندما ذهبت مع صديقي الجنرال إيسترلي لحضور مسرحية «ماري الصغيرة» لم يعرف أي منا أين ينظر من شدة الخجل.

بدا المفتش الذي لم يسمع من قبل بمسرحية «ماري الصغيرة» حائراً تماماً من كلامها، فيما كانت الآنسة ماربل تتحدث عن مسرحيات باري الأخرى: كانت مسرحية «كريتشتون الرائع» ذكية تماماً، كما كانت مسرحية «ماري روز» ساحرة أيضاً، وأذكر أنني بكيت فيها. أما مسرحية «شارع النخبة» فلم أحفل بها كثيراً. وهناك أيضاً مسرحية «قبلة لسندريلاّ»... آه، بالطبع!

لم يكن لدى المفتش من الوقت ما يضيعه في الأحاديث المسرحية، ولذلك فقد عاد إلى المشكلة المطروحة قائلاً: السؤال هو: هل كان ألفريد بولوك على علم بأن العجوز قد وضعت وصية لصالحه؟ هل أخبرته بذلك؟ وهل تعلمون أن في بورهام لوفيل القريبة نادياً لرماية السهام وأن ألفريد بولوك عضو فيه؟ وهو رامٍ ممتاز بالقوس والنشاب.

تساءل ريموند قائلاً: أليست قضية واضحة تماماً إذن؟ وهذا ينسجم مع حقيقة إقفال الباب على المرأتين، فقد كان يعرف مكانهما من المنزل تماماً.

نظر المفتش إليه ثم تكلم بأسى قائلاً: إن لديه دليل غياب عن مسرح الجريمة.

- لقد اعتقدت دوماً بأن أدلة الغياب عن مسرح الجريمة أدلة مشكوك فيها تماماً.

- ربما كنت تتكلم ككاتب.

قال ريموند ويست وقد أرعبته الفكرة: أنا لا أكتب قصصاً بوليسية.

- من السهل القول إن أدلة الغياب عن مسرح الجريمة مشكوك فيها، ولكننا مضطرون إلى التعامل مع الحقائق مع الأسف.

ثم تنهد وقال: لدينا ثلاثة مشبوهين مرجَّحين، ثلاثة أشخاص كانوا عندما وقعت الجريمة قريبين من مسرحها، لكن الغريب في الأمر أن أحداً من الثلاثة لم يفعلها! لقد شرحنا قبل قليل حالة مديرة المنزل، أما ابن الأخت، نات فليتشر، فقد كان لحظة إصابة الآنسة

غرينشو على بعد ميلين يملأ سيارته بالوقود في إحدى المحطات ويستفسر عن الطريق. أما ألفريد بولوك فإن ستة أشخاص يقسمون أنه دخل مطعم «دوغ آند دك» في الثانية عشرة والثلث وبقي هناك ساعة يتناول غداءه المعتاد خبزاً وجبناً وشاياً.

تدخل ريموند قائلاً بأمل: يقسمون متعمدين ليقيموا الدليل على غيابه.

أجابه المفتش: لعلهم كذلك، ولكن إذا كان الأمر هكذا فقد أقام دليله بالفعل.

ساد صمت طويل، ثم أدار ريموند رأسه إلى حيث تجلس الآنسة ماربل تفكر وقال: بقيت المسألة عندك يا عمة جين، فالجميع هنا في حيرة من أمرهم بدءاً بالمفتش وانتهاء بأقلنا تجربة وخبرة، أما أنت فأحسب أن المسألة واضحة لديك كل الوضوح، أليس كذلك؟

- لا يمكنني قول هذا يا عزيزي، ليس كل الوضوح؛ فالقتل ليس لعبة يا عزيزي ريموند، ولا أحسب أن الآنسة غرينشو المسكينة كانت تريد الموت. بالإضافة إلى أن الجريمة كانت فظيعة تماماً، كانت جريمة تم التخطيط لها بعناية بالغة ونُفِّذت بأعصاب باردة، ولذلك فإنها ليست موضوعاً يمكن التندّر به!

أحرجت ملاحظتها ريموند فقال: أنا آسف، فلست بالفظاظة التي قد تكون ظهرت مني، ولكن المرء ربما تعامل مع المكاره بشيء من اللطف هرباً من الرعب الذي يكتنفها.

تدخلت جوان قائلة: على أي حال نحن جميعاً لم نعرف القتيلة بشكل جيد.

- هذا صحيح تماماً، فأنت لم تعرفيها مطلقاً يا عزيزتي جوان، وكذلك أنا. وريموند لم يأخذ سوى انطباع بسيط من لقائه معها، أما لويزا فقد عرفتها ليومين فحسب.

هتف ريموند قائلاً: هيا يا عمتي، قولي لنا الآن رأيك في القضية. هل تمانع أيها المفتش؟

أجاب المفتش بأدب: لا، أبداً.

قالت الآنسة ماربل: حسناً يا عزيزي، يبدو أن لدينا ثلاثة أشخاص كان لهم (أو يُظَن أن لهم) دافعاً لقتل العجوز، ولدينا ثلاثة أسباب بسيطة تماماً لاستبعاد إقدام أي منهم على قتلها. فمديرة المنزل لم يكن بإمكانها أن تقتل العجوز لأنها كانت محجوزة في غرفتها، ولأن الآنسة غرينشو قالت تحديداً إن رجلاً رماها. البستاني لم يكن بوسعه أن يقتلها أيضاً لأنه كان في المطعم وقت ارتكاب الجريمة. وابن الأخت لم يكن بإمكانه أن يفعلها أيضاً لأنه كان ما يزال بعيداً بعض البعد في سيارته في ذلك الوقت.

علّق المفتش على عرضها للقضية بقوله: لقد صغتِ المشكلة بشكل واضح يا سيدتي.

فمضت قائلة: وما دام من المستبعَد تماماً أن يُقدِم أي شخص غريب على قتل العجوز، فما هو الحل؟

أجاب ريموند بقوله: هذا ما نريد أن نعرفه.

فمضت الآنسة ماربل وفي صوتها نبرة اعتذار: غالباً ما ينظر المرء إلى الأشياء من الزاوية الخطأ. فإن كنا لا نستطيع تغيير تحركات هؤلاء الأشخاص الثلاثة ومواقعهم، أفلا نستطيع تغيير وقت الجريمة إذن؟

سألتها لويزا: هل تعنين أن ساعة يدي والساعة الجدارية اتفقتا كلتاهما على عدم الدقة؟

- لا يا عزيزتي، لم أقصد ذلك مطلقاً. بل قصدت أن الجريمة لم تقع في الوقت الذي اعتقدتِ أنها وقعت فيه.

صاحت لويزا قائلة: ولكنني رأيتها بأم عيني.

- سأقول يا عزيزتي بأن ما كان يشغلني هو: هل كان القصد أن تري أنت الجريمة؟ ولطالما تساءلت: هل كان ذلك هو السبب الحقيقي لتوظيفك أصلاً؟

- ما الذي تقصدينه يا عمة جين؟

- يبدو الأمر غريباً؛ فالآنسة غرينشو لم تكن تحب صرف الأموال، ومع ذلك فقد وظّفتك وقبلت عن طيب خاطر بكل الشروط التي وضعتها. يبدو لي أن وجودك ربما كان مقصوداً في تلك المكتبة في الطابق الأول لتنظري من النافذة، وبذلك تكونين الشاهد الأول، شاهداً خارجياً يحدد بثقة لا يهزّها تأنيب الضمير مكاناً وزماناً محدَّدين للجريمة.

قالت لويزا والشك يملأ عقلها: ولكن لا أحسبك تقصدين أن الآنسة غرينشو قد قصدت أن تُقتَل!

- ما أقصده -يا عزيزتي- هو أنك لم تعرفي الآنسة غرينشو حقاً. فلا يوجد سبب يؤكد أن الآنسة غرينشو التي رأيتِها عندما ذهبت لاستلام الوظيفة هي نفسها الآنسة غرينشو التي رآها ريموند قبل ذلك بأيام.

ثم قالت مستبقة جواب لويزا: آه، نعم، أعرف؛ ستقولين إنها

كانت ترتدي ذلك الثوب المميز، ثوبها المورَّد القديم، وقبعة القش الغريبة فوق شعرها الأشعث، وأنها تطابقت تماماً مع الوصف الذي قدمه لنا ريموند في عطلة الأسبوع الماضي. ولكن هاتين المرأتين كانتا متماثلتين في العمر والطول والحجم، وأعني بهما مديرة المنزل والآنسة غرينشو.

تساءل ريموند قائلاً: ما الذي تقصدينه؟

- كنت أفكر يا عزيزي بأنه كان بإمكان امرأة واحدة أن تقوم بتمثيل الدورين كليهما خلال الأيام الثلاثة التي عملت فيها لويزا هناك. لقد قلت بنفسك -يا لويزا- إنك لم تري مديرة المنزل إلا نادراً خلال تلك الدقيقة الصباحية التي كانت تحضر لك فيها صينية القهوة. إننا كثيراً ما نرى بعض الممثلين الأذكياء يدخلون المسرح بشخصيات غير شخصياتهم الرئيسية لبضع دقائق لتقليص عدد الممثلين، وأنا واثقة أن تغيير الشخصية كان يعطي تأثيره بسهولة تامة، فربما لم تكن تسريحة الشعر التي كانت مديرة المنزل تبدو فيها كمركيزة إلا باروكة شعر توضع وتنزع.

- عمتي جين! هل تعنين أن الآنسة غرينشو كانت ميتة قبل أن أبدأ عملي هناك؟

- لم تكن ميتة، بل مخدَّرة إذا صح ظني، وهو أمر هيّن جداً على امرأة عديمة الضمير كمديرة المنزل التي صنعت ما صنعت، ثم اتفقت معك على ترتيبات العمل وجعلتك تتصلين بابن الأخت لدعوته إلى الغداء في وقت محدد. كان الشخص الوحيد القادر على تمييز الآنسة غرينشو الحقيقية هو ألفريد، ولعلك تذكرين بأن الجو كان ماطراً في أول يومين من عملك هناك وأن الآنسة غرينشو ظلت

داخل البيت في حين لم يدخله ألفريد بسبب خلافه مع مديرة المنزل. وفي آخر يوم كان ألفريد في الممر بينما كانت الآنسة غرينشو تعمل في الكومة الصخرية الاصطناعية التي أودّ لو ألقي نظرة عليها.

- هل تقصدين أن السيدة كريسويل هي التي قتلت الآنسة غرينشو؟

- أظن أن تلك المرأة أحضرت لك القهوة ثم أقفلت عليك الباب وهي خارجة، ومن ثَمّ حملت الآنسة غرينشو المخدَّرة إلى غرفة الاستقبال، ثم تنكرت وخرجت لتعمل على الكومة الصخرية حيث يمكن لك رؤيتها من النافذة. بعد ذلك صرخت وأتت مترنحة إلى المنزل ممسكة بما يبدو أنه سهم اخترق نحرها، وطلبت النجدة وحرصت أن تقول «رماني» لتبعد الشبهة عن مديرة المنزل، كما أنها طلبت النجدة من اتجاه نافذة مديرة المنزل وكأنها تراها هناك. وما إن دخلت غرفة الاستقبال حتى قلبت طاولة عليها أوان خزفية وركضت مسرعة إلى الطابق الأول حيث ارتدت باروكة المركيزة، واستطاعت بعد لحظات قليلة أن تطلّ برأسها من النافذة وتخبرك أنها محجوزة في غرفتها هي الأخرى.

- ولكنها كانت محجوزة بالفعل.

- أعلم ذلك، وهنا يأتي دور الشرطي.

- أي شرطي؟

- تماماً، أي شرطي؟ لو سمحت أيها المفتش، هل لك أن تخبرني كيف ومتى وصلت إلى مسرح الجريمة؟

بدت الحيرة على وجه المفتش وأجابها قائلاً: تلقينا في الثانية عشرة

وتسع وعشرين دقيقة مكالمة من السيدة كريسويل مديرة منزل الآنسة غرينشو تقول فيها إن سيدتها قد أصيبت بسهم، فانطلقنا أنا والرقيب كايلي مباشرة بسيارتنا ووصلنا المنزل في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، فوجدنا الآنسة غرينشو ميتة والسيدتين محجوزتين في غرفتيهما.

قالت الآنسة ماربل مخاطبة لويزا: وهكذا ترين يا عزيزتي أن الشرطي الذي رأيتِه لم يكن شرطياً حقيقياً. إنك لم تفكري فيه مرة أخرى، فلا أحد يتذكر ذلك بل يقبل المرء بدلة رسمية أخرى فقط.

- ولكن من؟ ولماذا؟

جواباً على كلمة مَن أقول: إذا كانت المسرحية التي يمثّلونها الآن هي «قبلة لسندريلاّ» فإن الشخصية الرئيسية فيها هي شخصية الشرطي، فلم يكن على نات فليتشر إلا أن يأخذ بدلة الشرطي (التي يرتديها على المسرح) ثم يسأل في المحطة عن الطريق متعمّداً لفت الانتباه إلى الوقت، حيث كانت الساعة الثانية عشرة وخمساً وعشرين دقيقة، ثم يسوق سيارته بسرعة فيتركها في إحدى الزوايا ويرتدي بدلة الشرطي ويقوم بدوره.

- ولكن لماذا، لماذا؟

- كان يجب على أحدٍ ما أن يقفل الباب على مديرة المنزل من الخارج، وكان على أحد ما أن يغرز السهم في نحر الآنسة غرينشو، إذ يمكنك طعن امرئ بالسهم طعناً ويكون كما لو أنك رميته، ولكنه يحتاج إلى بعض القوة.

- هل تعنين أنهما مشتركان في الجرم؟

- نعم، أعتقد ذلك، وأحسبهما أماً وابنها على الأغلب.

- ولكن أخت الآنسة غرينشو ماتت منذ زمن بعيد!

- نعم، ولكنني لا أشك في أن السيد فليتشر قد تزوج ثانية، فهو يبدو من ذلك النوع من الرجال الذين يتزوجون ثانية، وأظن أن الطفل مات أيضاً وأن ذلك المدعو «ابن الأخت» ما هو إلا ابن الزوجة الثانية وليس قريباً للآنسة غرينشو بتاتاً. لقد حصلت المرأة على عمل مديرة المنزل ودرست موقع الجريمة، ثم كتب الشاب رسالة إلى «خالته» مقترحاً القيام بزيارة لها، وربما كان قد أشار مداعباً إلى القدوم بزي شرطي أو طلب منها أن تذهب لمشاهدة المسرحية... ولكن لعلها شكّت في الأمر فرفضت مقابلته. ولو أنها ماتت دون كتابة وصية لأصبح وريثها الشرعي، ولكن بما أنها كتبت وصيتها لمصلحة مديرة المنزل (كما اعتقدا) فقد كانت المشكلة محلولة.

- ولكن لماذا استخدما السهم؟ إنها فكرة غريبة!

- ليست غريبة أبداً يا عزيزي؛ فقد كان ألفريد منتمياً إلى نادٍ لرماية السهام، وكان المطلوب أن يُتهَم هو بالقضية. وقد كان وجوده في المطعم منذ الثانية عشرة والثلث من سوء حظهما؛ كان معتاداً على الانصراف من عمله لتناول الغداء مبكراً قليلاً عن موعده، وقد أتى انصرافه مناسباً تماماً.

ثم هزت رأسها بالنفي وأضافت: يبدو الأمر خطأ من الناحية الأخلاقية، أعني أن يكون كسل ألفريد سبباً في إنقاذ حياته.

تنحنح المفتش وقال: حسناً يا سيدتي، إن اقتراحاتك هذه مثيرة تماماً، ولكن عليّ أن أتحرى بالطبع.

* * *

-٤-

وقفت الآنسة ماربل وريموند ويست قرب الكومة الصخرية الاصطناعية ونظرا إلى السلة التي توضع فيها الأعشاب الضارة المقتلعَة. تمتمت الآنسة ماربل: أزهار الآلوسن، وعشبة كاسر الحجر، وشقائق النعمان، والجريس... نعم، هذا كل ما أحتاجه من دليل؛ فالتي كانت تعشّب هنا صباح أمس لم تكن بستانية، إذ اقتلعت النباتات المزروعة الصالحة والأعشاب الضارة على السواء، لذلك أعرف الآن أنني كنت على حق. شكراً يا عزيزي ريموند لإحضاري إلى هنا، فقد أردت رؤية المكان بنفسي.

نظر الاثنان إلى المبنى الضخم المسمى «حماقة غرينشو»، ثم سُمع صوت سعلة جعلهما يلتفتان. كان هناك شاب وسيم ينظر أيضاً إلى البيت، قال: بيت ضخم جداً، أكبر مما يحتاجه المرء هذه الأيام. لا أدري، ولكن لو قُدِّر لي أن أربح بطاقة يانصيب وأكسب منها أموالاً كثيرة فما كنت لأبني إلا بيتاً كهذا.

نظر إليهما ألفريد بولوك بابتسامة خَجلى وقال: أستطيع الآن أن أقول إن جدي العظيم قد بنى هذا البيت، وهو بيت رائع. أقول ذلك لكل من يسميه «حماقة غرينشو»!

* * *

المحتويات